العدد العاشر
اكتوبر (تشرين الاول)
السنة السابعة

No. 10 Oct. 1959
7ème ANNEE

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

منحدر التل...

قصة بقلم نازك الملائكة

كنا متجمعين في الغرفة الكبرى ، ابي ملتف بعباءته وبيده مسبحته يلعب بحباتها ويردد بين الحين والحين :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

ومن بعيد كانت تأتينا أصوات رصاص متناثر يشتد حينا ثم يخفت . فعلى حدود قريتنا يربض اليهود ، وقد بدا حديث الرحيل والجلاء يصبح جديا بالنسبة لنا . لاول مرة اصبحت جدران بيتنا تبدو لي وكأنها تصمت وتبرد وتدير وجهها عني ... يجب ان نرحل عن قريتنا ، قرية أبي وقرية عامر وسمية وهدى . نرحل الى مستقبل مبهم تخفيه الظلال . يصدق ذلك لنا صوت ابن عمتي البدين كمال وقد عاد منذ دقائق يلهث من قرب الحدود واقسم لنا اقساما مغلظة انه شهد بعينيه سعيد البستاني العجوز قتيلا هو وابنته فاطمة ابشع قتلة . ثم قال لنا بانفعال ان الجيران يجمعون الثمين من مقتنياتهم ويرحلون وسرعان ما سوف تخلو القرية فلا بد لنا ان نتخلى عن كل امل في البقاء . وخطر لي ان كمال يكذب على عادته ، فما ألفنا منه الصدق الا نادرا . غير ان الرصاص الذي كان ينثال من الظلمات كذب املي هذا . وارتفع صوت ابي في لهجة اذعان وتسليم :

ـ لا بد من الرحيل اذن . سمية ؟ هيئي لكل منا بطانية ووسادة فقد نضطر الى ان ننام في الحقول .

ورأيت وجه سمية يشحب ولكنها لم تتكلم . المشكلة دائما هي مشكلة اختي الصغرى هدى التي صاحت بلهجة متأججة :

ـ بابا ، او حقا ؟ هل سنرحل ..؟

واجابها ابن عمتي بلهجة قاطعة وصريحة :

ـ طبعا ترحلون ، لا مفر من ذلك . ان المدينة ما زالت مكشوفة جنوبا وفي مساء الغد ـ على ابعد تقدير ـ لن يمكن لكم ان تغادروا لان هذا البيت سيكون في ايدي اليهود .

وانهارت اعصاب هدى وارتمت في حضني باكية بصوت عال . وشعرت بانني اريد ان ابكي معها احر بكاء غير انني صررت باسناني ورحت اربت على كتفها . ونظرت في وجه كمال وتمنيت لو انه كان يكذب علينا هذه المرة ايضا . فهل نترك قريتنا ، مسقط رؤوسنا ، وبيتنا الحلو الصغير وكرومنا المتعرشة على النوافذ العتيقة ؟ واصحاني شهيق هدى وارتعاشها ، اختي التي ستتشرد وهي في الثالثة عشرة

وافاقت سمية من المفاجأة وانتصبت بثباتها المألوف وغمغمت :

ـ بطانية ووسادة لكل واحد . وانت يا كمال ؟ اتذهب معنا ؟

كلا . كمال لا يريد ان يذهب . وعجبت له في نفسي . ما الذي يربطه الى قريتنا ؟ لقد كان طيلة حياته انسانا هوائيا عابثا ، مروج اشاعات من صنف رخيص ، وخالق مشاحنات . وما كان فيه شيء يحب الا قلبه الطيب وحنانه الفائض . فهل تراه ينقلب الان جنديا غيورا على فلسطين كلها ؟ ايمكن ان تحدث مثل هذه المعجزة لمثله ؟

وجاء عامر وجلس الى جواري واخذ بيد هدى . ولاح

في صوته جفاف رغم ولعه الشديد بهدى :

ـ عزيزتي ، يجب ان تكوني كبيرة وتكفي عن البكاء. ان امامنا الليلة سيرا طويلا على الاقدام. ولا بد لك من الشجاعة

ولكن هدى زادت نشيجا وكررت السؤال بصوت اعلى :

ـ ولكن هل نرحل حقا ؟ انترك بيتنا ؟

وفي هذه اللحظة بدا ابي يبكي وينشج . ان هناك شيئا لا يحتمل في بكاء رجل شيخ. ونهض عامر وغادر الغرفة على عجل . اما هدى فسكتت عن بكائها وركضت الى الغرفة المجاورة وجاءت ابي بكوب ماء وهدأت العاصفة بدخول سمية وهي تحمل مجموعة من البطانيات والوسائد ، القتها في وسط الغرفة . ذلك وجه الواقع يطل علينا ولا بد لنا ان نحدق فيه ونسكت عواطفنا . ونهضت لاساعد سمية على ربط الاشياء بحبل . واعترض كمال :

ـ لا تربطيها . ان كلا منكم سيحمل بطانيته ووسادته .

وصاحت هدى بانفعال :

ـ والفرس ؟ ديدي ؟ هل نتركها هنا ؟

وتلكأت ثم اضافت

ـ اليهود ؟ انهم سيقتلونها ...

قالت ذلك ثم ارتمت على كتف ابي وعادت الى النشيج. وربت ابي على راسها وقال لها وهو يبكي معها :

ـ لا يا غاليتي . سوف تأخذين ديدي معك .

وسألت سمية متى نبدأ الرحيل ؟ فاجاب كمال اننا ننتظر صافرة الانذار . فلقد حددت السلطة العربية نقطة على الحدود اذا تخطاها العدو وجب على السكان العرب ان يرحلوا .

وساد الصمت دقائق وابتعد كل منا عن الاخر مسافات. وجلست سمية صامتة لا يبدو عليها اي شيء. ماذا تراها ستفعل بكتبها العديدة ؟ اننا ندري انها اعز شيء لديها ، وليس في وسعها أن تحمل منها شيئا . ولكني لم اجرؤ على سؤالها خوفا من ان نبكي كلنا . فماذا نترك من بيتنا وماذا ندع ؟ كل ما هو لنا الان من ذكريات واشياء سوف يغيب عنا الى الابد ويصبح ملكا لسوانا . وفي مثل هذه الساعة من مساء الغد ستكون غرفنا هذه باردة يدوسها غرباء لم نفتح لهم الباب ولم نبادلهم قط اي شيء. وادرت راسي وتمنيت لو ان هدى عادت الى البكاء لعل الغرفة تكون ملكا لي لحظات أخرى . انما نمتلك غرفنا وبيوتنا لان اصوات اهلنا تتردد فيها ، ولو بالبكاء والعويل . وحين يتبدد الصوت تصبح الجدران موحشة وتطردنا من الجنة.

وفجأة خطف في نفسي شعاع . من قال أننا سنرحل ؟ الا يجوز أن يتغير الموقف فجأة ؟ ان صفارة الانذار هذه قد لا تنطلق قط ، ومن يدريني أن نجدة ما من الجيوش العربية لن تأتي لتحمي قريتنا ؟ اما يقال ان الجيش المصري يرابط جنوبا على مسيرة خمسين كيلومترا ؟

وقاطعتني ضجة مفاجئة خارج بابنا ، وصوت عامر مرتفع بينها . وقبل ان اتبين اي شيء قفزت هدى كالغزال وهي تصيح :

ـ جاء سمير ونادرة

وقبل ان ينجلي الموضوع قال ابي متشائما وهو يضرب بيده على ركبتيه :

ـ الهي ! ولدي وأسرته يجيئوننا لاجئين.

وكان ذلك حقا ، لقد جاءوا من القرى المجاورة التي كنا نحسبها آمنة . وسرعان ما اخبرنا سمير ان العدو احرق مزرعتهم وانهم تركوها ولم يستطيعوا انقاذ الفرسين والبقرات الثلاث فكان صياحها وهلعها يقطع نياط القلب. والتفتنا فجأة الى باسم الصغير ، ابن اخي ، وكان واقفا عند الباب بانكسار فلم يألف ان يأتينا ولا نطير فرحا برؤيته . وأسرعت اليه وحملته على ركبتي فرأيت في وجهه خوفا مستجيرا فرحت الاطفه واحاول جهد طاقتي أن انسيه المشاهد المحزنة التي رآها وكنت احسب ان صياح الحيوانات قد آلمه فهو طفل حساس جدا عادة. غير ان هلعه كان ينبع من جهة ثانية .

ـ سعاد ؟ هل تخافين من ابن آوى ؟

ـ انه حيوان مزعج يا عزيزي، ولكننا يجب ألا نخاف منه!

وقد قال على عجل وبلهجة قاطعة :

ـ اني اخاف منه . بابا يقول انه احيانا يأتي الى حوض الماء في مزرعتنا ويشرب . وعندما يعوي واسمعه اخاف وأخفي رأسي تحت الوسادة .

كان يتكلم بفزع . وخطر لي ان رعبه من صياح البقرات المسكينة التي حاصرتها النيران قد تحول الى ذكريات خوفه من ابن آوى . فالاطفال يمزجون بين ذكرياتهم وعواطفهم وكأن الوجود يبدو لهم اكبر من ان ينقسم الى تفاصيل .

وفجأة قال سمير :

ـ على كل حال ، لقد اخبرني الجنود العرب على الحدود ان العدو قد تراجع مسافة عن هذه القرية :

وحدثت ضجة بيننا واحطنا به نسأل . يا الهي . اذن كان ذلك الشعاع الذي خطف في قلبي صحيحا . اذن لن نرحل عن قريتنا . والليلة على الاقل سانام في غرفتي ، والمس وسادتي بخدي وارى عريش العنب من النافذة ، ويصهل الفرس ويبدد السكون بصوته المألوف ، واسمع ديكنا يوقت بحرارة وحماسة ساعات الليل البطيئة، ولاحظنا فجأة ان الرصاص قد انقطع فقوى ذلك آمالنا واسند فرحنا . ومر بنا الخفير وبشرنا بانسحاب الجيش اليهودي وعندما سألناه عن مصدر الخبر قال ان الناس كلهم يتحدثون به . وفجأة رحت ابكي انا، لاول مرة . وتدحرجت دموع حارة غزيرة على وجهي فنهضت وفتحت النافذة لاتنفس بحرية فرأيت القمر مشرقا وبساتين البرتقال مغرقة بفيض من الضياء.

نصف الليل ، وكمال ينصرف الى منزله المجاور طالبا الينا ان ننام لننال قسطا من الراحة بعد كل تلك الانفعالات. وفي غرفتي قلت لنفسي ان قريتنا ما زالت ملكا لنا . ومن

النافذة التي تطل على الساحة الخلفية رأيت هدى، أختي الحبيبة ، تتسلل لتطمئن على راحة فرسها المحبوبة ديدي. ونام الاخرون ، الا سمية التي تقع غرفتها فوق غرفتي ، فقد بقيت اسمعها تتحرك وكانها تقوم بعمل متواصل . وطرق باب غرفتي واطل عامر برأسه وفي يده فرشة الاسنان :

ـ سعاد . لقد انداح العدو حقا . جاء الخفير الان ثانية واعلمني بذلك .

وسألته ان يمر بغرفة سمية ويطالب اليها ان تنام . ثم اطفأت الضوء وسقطت في غفوة عميقة مطمئنة .

* * *

كان صوتا موحشا طويل النبرة يقطع السكون ويتكرر وافقت من نومي فزعة وسمعت نقرا عصبيا على زجاج نافذتي : سعاد ! سعاد ! استيقظي

وفركت عيني ومددت يدي الى زر الكهرباء واشعلته. ثم فتحت النافذة القائمة الى جوار سريري :

ـ سمية ؟ ماذا حدث ؟

وسمعت صوتها يرتعش :

ـ انها صفارة الانذار .

ولاول وهلة لم افهم وتبلد احساسي وذهني . صفارة الانذار ؟ من اجل ماذا ؟ ولكني تذكرت بعد لحظة . وادركت اننا سنرحل . ولم القِ اية أسئلة على سمية وانما نهضت فورا ورحت اغير ثيابي. لاح لي الرحيل الان طبيعيا ومعقولا . ورأيت بعين الخيال قافلتنا تتسلق التلال الموحشة المجاورة ، واهمني امر ابي الشيخ فحرت كيف سيسير تلك المسيرة الطويلة . وجاء عامر راكضا وصاح بي :

ـ هل انتهيت ؟ ان الوقت ضيق جدا والرصاص يقترب .

ثم ذهب على عجل كما جاء . كنت اعمل بسرعة ولكن حزني كان بطيئا يتبع مقياسا اخر . وسقطت عيني على مختلف الاشياء في غرفتي ، كل ما جمعته منذ طفولتي واعطيته من نفسي وذاكرتي . لا ، هذا ليس لي ولست املك اكثر من البطانية والوسادة . ان علي ان اساعد في حمل طفلي اخي فهما اثمن من كل شيء يحمل .

ثم عادت صفارة الانذار تصرخ صراخا مفزعا اشد مما صرخت اولا ، واختلط بها دوي رصاص وقنابل . واحسست بقشعريرة باردة تسري في ظهري. ولاح لي السؤال بليدا : لماذا يأتي اليهود ويأخذون ارضنا منا في اعماق الليل ؟

وجاءت هدى وهي تحمل اسامة الابن الاصغر لاخي . كانت مبتسمة ، عالية الروح ، وكأن دنو ساعة المحذور قد ازال دموعها . وسألت ان كان هناك ما تساعدني به فارسلتها الى نادرة زوجة اخي. لقد آثرت ان اكون وحيدة لحظات قبل ان نرحل. ولم آخذ من غرفتي الا قرآنا ذهبيا ذا سلسلة كانت امي قد اهدتني اياه في اخر سنوات حياتها . فشددته حول عنقي وغادرت الغرفة بعد ان اطفأت الضوء. ووقفت في الباب وتساءلت : هل اقفلها ؟ وكانني نسيت انها لم تعد ملكي . ولكني اخيرا اقفلتها . كانت الاكرة باردة جدا وقد تراكمت رطوبة الليل عليها . وشعرت وانا اغلق الباب انني اقفل قفل فلسطين كلها واقف مطرودة من الجنة . والصقت خدي المشتعل بالخشب البارد المرطب . وتحدرت عبرات ساخنة على وجهي وسالت في عنقي ودخلت في سلسلة القرآن . وداخلني شوق مفاجيء الى امي التي ماتت منذ عشر سنين وسمعت نفسي ابكي واكرر « ماما ـ ماما ـ »

وارتفع صوت خطوات خفيفة سريعة خلفي فالتفت . ذلك باسم الصغير وقد ارتدى ملابسه كاملة واقبل علي :

ـ سعاد ، لماذا تقفين هكذا ؟

كان صوته دافئا مملوءا بالحنان . ترى يستشعر طفل عمره اربع سنوات الم الرحيل ؟ وانحنيت وحملته بين ذراعي وانا اشعر ان مجيئه في تلك اللحظة كان عناية الهية او كأن امي تستجيب لي. وحين شعر بدموعي على وجهه لاحت نظرة خوف عليه وسألني مترددا :

ـ لماذا تبكين ؟

ولم اجد شيئا ارد به فقلت له :

ـ لانني يا عزيزي هنا وحدي

فما كان منه الا أن طوقني بذراعيه الصغيرتين وقال :

ـ ولكنني جئت اليك . انني احبك

واخرجت المفتاح من الباب وسرت . وبقي باسم ساكتا ونحن نخترق القسم الخارجي من المنزل . وقلت لنفسي ان كل الاشياء التي سنتركها هنا هينة ما دام هذا الصغير سالما آمنا وما دمنا احياء جميعا لم يقتل منا احدوالحمدلله. ان علي الان ان احرص على سلامة هذا الصغير البريء الذي لا يدري على حافة اي مستقبل مظلم يقف الليلة ونحن نغادر وطننا هاربين.

ورأيت اهلي متجمعين في الظلام ينتظرونني ... كان كل منهم يحمل بطانية ووسادة في يده ، وقد جاء كمال مودعا ومساعدا . وكان الفرس مسرجا وقد حملوا عليه بعض الطعام والماء وملابس للصغيرين . وانزلت باسم الى الارض وقال ابي مصدرا اوامره على عادته :

ـ تعاونوا على حمل الاشياء ولا تثقلوا الفرس ، سمير انت سوف تحمل باسم .

وانبرى باسم وقال بلهجة عصبية محتجة :

ـ وأنا ماذا سأحمل يا جدي ؟

لقد اصر على ان يحمل شيئا ما هو ايضا . وكنا ندري انه عنيد ، والوقت ضيق ، فقررنا ان ننزل عند رغبته . واقترحت امه ان يحمل فرسه الخشبي الصغير ولكنه رفض ذلك باباء واراد أن يحمل شيئا نافعا يساعدنا به .. وسرعان ما صاح :

ـ عرفت يا ماما . ساحمل زجاجة اسامه . ألن نسقيه الحليب عندما يجوع في الطريق ؟

وقالت امه بلهجة صارمة :

ـ كل شيء الا هذا ، لن تحمل انت الزجاجة . انك سوف تكسرها فيبقى « أس أس » جائعا .

وكانت مفاجأة لنا ان باسم انفجر يبكي بكاء صارخا. وانحنى ابي وحمله بين ذراعيه :

ـ ولكن ما بك يا حبيبنا ؟ الم نقل ان الولد العربي لا يبكي ابدا ؟

واجاب وهو يواصل البكاء وكلماته تتقطع :

ـ ان الولد العربي يساعد الناس . فلماذا لا اساعدكم ؟

وهمست نادرة لي:

ـ لقد بدأ يصبح حساسا منذ غادرنا منزلنا وسمع صراخ الحيوانات ورأى الحريق . خير لنا ان نجازف ونعطيه الزجاجة . ان هناك واحدة اخرى احتياطية ، ساضعها في خرج الفرس .

وشعرت بحرقة الم تعبر في قلبي. الصغار اذن يشعرون بالم الرحيل وان لم يدركوا ذلك تماما . ترى باسم يبكي من اجل الزجاجة حقا ؟ ام أنه يتعال ليبكي الرحيل ومشهد التوديع ؟ وفي هذه اللحظة ذهبت اليه امه بالزجاجة ومرت بسبابتها على خده وجرفت قطرات الدمع عنه وقالت له وهي تدلعه :

ـ هل هو يبكي حقا ؟ تراه صغيرا مثل اسامة اذن ؟ ها نحن نعطيه الزجاجة على كل حال وسوف يساعدنا على حملها لان الولد العربي ، كما قال لنا « جدي » ، يساعد الناس . انه ولد باسل .

وشهق الصغير شهيقا متقطعا وكأنه عاصفة قد بدات تهدأ ثم تنهد وقال بلهجة جازمة :

ـ اني كبير !

ـ ولكنك لن تكسر هذه الزجاجة . هل تعد ماما ؟ قالت ذلك وقدمتها له فلتقفها بلهفة وقال :

ـ كلا . سأمسكها بيدي الاثنتين

ثم أطبق اصابعه السمراء على الزجاجة . ولعل هذا المشهد قد استثار عواطف كمال فاندفع ينشج وقال بصوت مخنوق بالعبرات :

ـ اذهبوا ، يحرسكم الله . اني باق هنا . ولسوف تعودون كلكم قريبا . هذه أرضنا وحقولنا ولن نعطيها لليهود .

وردد ابي بلهجة متشائمة :

ـ ان شاء الله

وانهال وابل من الرصاص في هذه اللحظة من نقطة قريبة . وفزع الفرس فصهل عاليا ووقف على قائمتيه الخلفيتين وتدحرج الحصان الخشبي وانكسر الى قطعتين. وصاح ابي

ـ كل لحظة نقضيها هنا تقربنا من الخطر . فلنرحل فورا . اين سمية ؟ لماذا لم تحضر بعد ؟

واسرعت الى غرفتها في الطابق الثاني فرايتها تقفل حقيبة يدوية صغيرة وفي ملامحها اسى عميق لم ار له مثيلا سابقا في وجهها . وقالت وكأنها تعتذر :

ـ لم احتمل ان اترك كل كتبي هنا فحملت اهمها .

ـ سمية ، عزيزتي ، ان الكتب تعوض . ولسوف تثقلك هذه الحقيبه وتعرقل سيرك .

وقالت سمية ثائرة وهي تكاد تبكي :

ـ الكتب تعوض أحقا ! ولكن هذه كتبي انا يا سعاد ، وبين صفحاتها ، على كل سطر فيها ، وكل حاشية ، حياتي. وما من شيء يعوض حياتي .

ولم يكن لنا وقت نناقش فيه فساعدتها على اقفال حقيبتها وقلت لها بحزم :

ـ هيا بنا . ان العدو يقترب بسرعة .

* * *

وانطلقت قافلتنا في الظلام . كنا نسير على عجل ، كل يحمل بطانيته ووسادته في صمت . ويممنا نحو الجنوب ، صوب قطعات الجيش المصري . تسعة اشخاص سيكونون منذ هذه اللحظة بلا ماوى ولا ارض . ان وقع خطانا هنا موحش لان هذه ارض فلسطين التي لم تعد لنا ، وظلالنا تجر نفسها وراءنا جرا . ولاحت لي اشخاص اهلي هياكل مهمومة محنية الظهور فكانها تحمل عذاب المشردين منذ بدء الخليقة . وسمعت ضجة قريبة ، فاذا جيراننا قد بدأوا يخرجون . كل اسرة تحمل فانوسا صغيرا مضاء . ولاحت لي الفوانيس رموزا للاسر التي تبدأ اللحظة تاريخ تشردها . واحصيت اربعة فوانيس .

وبدأنا ننحدر في حي مظلم تحيط به بيوت ساكنة مطفأة الاضواء . لا بد ان يكون سكان هذا الشارع قد رحلوا قبلنا. وفجأة صرخت هدى :

ـ انظروا هناك . انظروا جميعا .

وفي تلك اللحظة تأججت في منعطف الشارع نار ساطعة باهرة فاجأتنا واعشت عيوننا. ثم سمعنا صوت انفجار مروع وتصاعدت النيران الى عنان السماء واحسسنا وجوهنا تلفح لفحا شديدا . وقبل ان نفيق من ذهولنا صرخ سمير صرخة لائعة مفجوعة :

ـ باسم !

كان ما وقع مباغتا لنا كلنا . فعلى مقربة منا اندفعت شعلة نار متأججة طائرة في الهواء تعبر بسرعة شديدة. واذ مرت بنا التقطت في وهجها الملتهب باسم الصغير الذي كان يسير في اقصى الطرف قريبا من والده . وتأجج حبيبنا الغالي لحظات في تلك النار وهرعنا اليه في جنون نطفيء ثيابه المشتعلة ، ونجح ابي بان لفه بعباءته السميكة فانطفأت النار ، ونظرنا اليه فاذا هو ينازع وقد اصيب بحروق مخيفة في جسمه كله . ولكنه كان واعيا فراح يصرخ صراخا متقطعا :

ـ ماما ... ماما ... ماما .

كان واضحا لنا كلنا انه لن يعيش اكثر من دقائق . فقد احرقت الشعلة جلده واكلت خده الايسر وعنقه . وقد التصقت قطع من جسمه المتآكل بعباءة ابي . وصرخت سمية بلهجة آمرة هائلة :

ـ اركضوا فورا . احملوه واتجهوا يمينا . لقد اشتعل مخزن البنزين .

واطعنا كلنا فورا وكأن منوما يسيرنا . ركضنا وركضنا وابي يحمل الضحية الاولى ، اول جزء حي منا ندفنه في ارض المعركة .

وعندما بلغنا تلا فصل بيننا وبين النار ، ولمسنا الارض التي تحمينا ارتمينا بقلوب دامية حول ابي نستطلع حياة الحبيب الصغير الذي اكلته النيران .

وكشف ابي العباءة ، ونظرنا ، في جنون، فاذا صغيرنا الغالي ما زال يختلج . كانت عيناه السوداوان الجميلتان مفتوحتين وقد راحت دموع غزيرة تتحدر من زاويتيهما وتسيل بلا انقطاع . وكان ساكنا ما عدا ارتعاش اطرافه. ونظر الى وجوهنا واحدا واحدا دون ان ينطق ثم استقرت نظراته المحمومة على وجه امه وتوقفت هناك . ورأيناه يحرك شفتيه لكي يتكلم ، والظاهر أن الشفاه المحترقة اوجعته فمرت موجة عذاب هائل على قسماته . وقالت له امه وهي تجهش بالبكاء :

ـ لا تتكلم يا حبيبي . ماما معك .

غير ان ذلك لم ينفع . فان الطفل المحتضر عاد يحاول الكلام حتى قال بعد جهد :

ـ ماما ...

ورأيناه يحاول ان يتحرك وكانت احدى يديه مخفية تحت طرف العباءة ،و فجأة حركها بقوة بعد ان بذل مجهودا ونظرنا مندهشين فاذا هو يمد كفه الصغيرة الى امه بزجاجة الحليب وهو ممسك بها بكل قواه ، وارتعش صوته مرارا حتى قال :

ـ ماما ... لم اكسرها .

واخذتها امه منه فارتعش بحدة واغمض عينيه. ونظرت اليه دون ان افهم . ورأيت ابي يرد عباءته على الجسد المحترق ويقول بأسى :

ـ انا لله وانا اليه راجعون .

اما نادرة ، امه ، فقد بقيت ذاهلة لحظة ثم صاحت بصوت مفجوع :

ـ مات ؟ مات ابني ؟

وارتمت هدى على التراب ، بطولها كله ، وراحت تمرغ وجهها فيه وتصرخ :

ـ مات باسم ؟ اتركوني هنا ، اتركوني . اني اريد ان اموت .

كان الفرس واقفا على مقربة في جمود ساكن بعد ان قطع معنا المسافة التي ركضناها . وعلى صرخة هدى رفع قائمته الامامية اليسرى ثم حرك احدى أذنيه واطرق .

ثم جاء مشهد موجع . نادرة تبكي متوسلة الى ابى ان يعطيها طفلها الميت لتودعه . وسمير يرفض ذلك ويحول بينها وبين ابي والطفل . وابي يقترح ان يدفن الميت لنواصل السير . وهنا ترفع هدى وجهها المصفر بالتراب وتصيح صياحا هستيريا :

ـ تدفنونه؟ قبل ان نتأكد من موته ؟ هل يدفن باسم حيا يا الهي ؟ هل تدفنونه قبل ان يموت ؟

وصاح بها ابي في عصبية بالغة منتهرا :

ـ لقد مات . اولا اعرف الموت بعد ؟ الم يكفني ما رأيت منه طيلة عمري ؟

ولكن هدى زادت صراخا ولاح انها فقدت صوابها وبدأت تهذي :

ـ ابي ، انك قاس جدا ، ان قلبك من حجر . انك تعاملنا بلا رحمة . لا بل انك سوف تدفننا احياء جميعنا.

ثم راحت ترتعش ارتعاشا هستيريا وواصلت الهذيان :

ـ يا صديقي الصغير ، ان هدى لن تخونك . سوف احملك انا وحدي واسير بك ساعات ، حتى تموت . والا فسوف ابقى هنا معك واموت .

وذهب عامر وركع الى جوار هدى محاولا ان يهدئها وقد لاح لنا انها اصيبت برجة عاطفية. والواقع ان الصغير كان هامدا ، ميتا كل الموت فليس بعد ذلك موت يمكن ان يكون . كانت النار التي اكلته بنزينا ضاريا فقضت عليه بسرعة . وتذكرت فجأة دموعي على خده الصغير وصوته الحنون وهو يهمس لي :

ـ ولكنني جئت اليك . انني احبك .

كنت انا الحرية بان ارتمي على التراب واموت . ولكن هل املك انا ان اموت الان ؟ من اذن لهذه القافلة البشرية المعذبة ؟ من يسير بهم سواي انا ؟ لا بل ينبغي ان ننهض ونواصل السير . وسرعان ما ستهدأ اختي الصغيرة المسكينة ، ويشرق الضياء على قلب الابوين الكسيرين .

ـ فلندفن الطفل

همسها ابي همسا هذه المرة . وقال له سمير برفق :

ـ ابي ، هل انت واثق من انه قد مات ؟

وفقد ابي اعصابه فجأة وصاح :

ـ خذ ابنك يا سيدي ، وانا ذاهب وحدي. سمية ، اتبعيني ..

وحاول النهوض فشعر فجأة بثقل الجثة الصغيرة بين ذراعيه . ورده ذاك ألى هدوئه فجلس على الارض وراح يبكي بكاء لاعجا وهو يردد :

ـ لك الحمد والشكر يا ربي .

ونهضت سمية وانحنت على ابي بوجهها المرطب بالعبرات وتوسلت اليه :

ـ ابتي ، ليس هذا وقت نثور فيه ونفقد اعصابنا . لقد فقدنا كلنا احب انسان ألينا منذ لحظات فلنحتمل بعض ما يصدر من هذا وذاك منا .

كان واضحا لنا أننا جميعا في حالة من العذاب المميت ولم يعد احدنا يحتمل حتى عبء نفسه . ولكن سمية وحدها بقيت مرفوعة الرأس لا تنهار ولا تضعف . وسرعان ما اقترحت علينا برفق رؤوم ان نحمل الطفل مسافة اخرى ارضاء لعواطفنا جميعا حتى اذا تأكدنا من موته دفناه!

ولم يعترض أحد . كانت سمية تقودنا دائما فلا يخالفها

احد . ورأيتهم ينهضون وسمير يحاول مساعدة نادرة على السير . وتناول عامر اسامة فحمله . اما انا فذهبت الى هدى التي كانت لم تزل نائمة تبكي في سكون ووجهها في التراب .

ــ هدى ، حبيبتي ، لا بد لنا من المسير . ان الرصاص يقترب منا .

وقد كنت اتوقع ان ترفض طلبي ، ولكني رأيتها على العكس تطيعني فتنهض في انقياد تام ، وتنفض التراب عن شعرها المسترسل بهزة من رأسها . كان هناك تراب كثير على خدها وشفتيها وقد اختلط بدموعها. فشعرت بعطف هائل عليها ، عطف لم أشعر بمثله قط نحو انسان ، فضممتها وبكيت . لا اظن ان هناك صبية في مثل بسالة اختي الصغرى هدى ، وفي تلك اللحظة كانت انبل منا جميعا . ورأيتها تسير متعثرة وهي تكاد تسقط حتى اذا بلغت بطانيتها المطروحة على التراب انحنت ورفعتها ثم تناولت حبل الفرس وبدأت تسير . وحين اطمأننت عليها لحقت بنادرة التي كانت لا تقوى على السير .

وبدأ موكبنا يسير نحو قمة التل في طريق يرتفع دائما نحو الجنوب . ولاحت الاشجار موحشة خاملة على جانب الطريق . واضاءت سمية الفانوس وتقدمتنا وعندما وصلنا القمة ونظرنا خلفنا رأينا منظرا رهيبا لا ينسى: قريتنا تحترق وقد امتدت النار الى منزلنا . ولا ادري لماذا لم اعبأ بذلك كثيرا ، وانما لاح لي ان هناك منظرا اشد ايلاما للقلب الانساني ، منظر هدى وهي تسير وراءنا جميعا تجر الفرس وتنتحب بصوت مسموع لا ينقطع .

* * *

على قمة التل دفنا صغيرنا الميت في بقعة تراب هش. وحفر القبر ابي بيديه الاثنتين لاننا لم نملك شيئا نحفر به . وجلس سمير عاجزا يبكي ولا يصنع شيئا . اما نادرة فقد اغمي عليها فاستراحت . ورفض ابي ان يضع الجسد في التراب الا اذا قرأ احدنا بعض آيات القرآن ، وكان ابي يعتقد انه لا يصح له هو ان يفعل ذلك . وكان عامر يحفظ جانبا من سورة البقرة فتلا ايات قليلة اقسم لي فيما بعد انه لم يعتمد اختيارها وانها كانت الايات الوحيدة التي تذكرها : « يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون . صدق الله العظيم . » ثم صلى ابي ركعتين واشار الي بأن آخذ هدى بعيدا . ومرة ثانية طاوعتني هدى فاخذتها الى منحدر قريب وجلسنا نبكي كلانا ولا ننطق . وبعد فترة قصيرة اقبلت سمية وعيناها حمراوان وقالت :

ــ هيا بنا . سوف نسافر

كان هناك على قمة التل مرتفع صغير من التراب وقد وقف ابي متجها صوب القبلة ، وحرك شفتيه ببعض كلمات لم اسمعها . وكانت زوجة اخي قد افاقت ورأت جانبا من عملية الدفن ، وهي صامتة لا تبكي وكأن ذروة المصيبة تمنح المفجوع هدوءا لا يفسر . وركعت الى جوارها ورحت ادلك لها يدها الباردة وحمدت الله على هدوئها . وفي تلك اللحظة عوى ابن آوى عواء طويلا موحشا على مقربة منا . وصرخت نادرة صرخة حادة :

ــ ابن آوى !

ثم اغمي عليها ثانية . وراح سمير يبكي في حرقة . ولم يفهم احد سواي ماذاكان تأثير صراخ ابن آوى عند القبر الجديد. سنتركه منفردا ونذهب بعد لحظات . وشكرت الله على ان هدى لا تعرف شيئا عن ذلك .

وباغتنا انثيال الرصاص وانفجرت عدة قنابل عالية وافاقت نادرة وتعاونا أنا وسمير على اسنادها فنهضت معنا وسارت . وتقدمتنا سمية بالفانوس . وكانت هدى على مقربة مني فرأيتها تنحني وتلتقط شيئا ثم قالت لي:

ــ حقيبة الكتب . لا بد ان سمية نسيتها هنا .

وكادت تضعها في خرج الفرس . فامسكت بيدها :

ــ اتركي هذه الكتب هنا .

ــ ولكنها كتب سمية ؟

ــ أدري . لا بد انها لم تعد تريدها . فان سمية لا تنسى شيئا .

ونشجت هدى نشيجا هادئا وقالت :

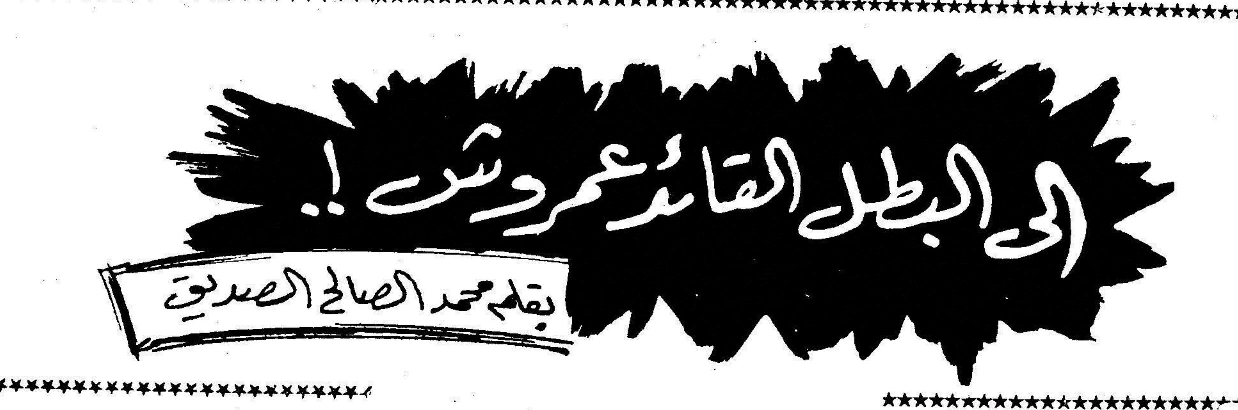
ــ اجل. اني بليدة. هل في الدنيا بعد باسم شيء عزيز؟

قالت ذلك ورمت حقيبة الكتب فتدحرجت كثيرا على المنحدر حتى خيل الي أنها سقطت في اعماق الوادي.

وبدأنا نسير ، على منحدر التل هذه المرة . والتفت الى الوراء اخر مرة فرايت فوانيس عديدة تصعد التل نحونا. لقد داهم الحريق القرية فخرج سكانها كما تخرج النمل مروعة حين نسكب الماء على بيوتها . كان سفح الجبل مفروشا بالفوانيس ، تلك الرموز المتحركة لكل ما هو فلسطين .

وبدأ فجر حزين يطلع على الدنيا .

بغداد **نازك الملائكة**



لن انساك يوم غادرت (الخضراء) الى (الحمراء) ... عندما ودعتني .. وانت تبتسم للعودة الى ارض الكفاح حيث اللقاء العذب السحري بالاباة الامجاد ، وحيث ينشر التاريخ صفحاته المشرقة ، ويخضع للارادة والايمان .

لن انساك ، وقد وقفت امامي تودعني بكلمات تفيض ثقة بالمستقبل ، وايمانا في ابعد الحدود بسمو المبدأ ، ونبل الغاية . كلمات في عزم وتصميم وصلابة وشدة ، كانها قدت من حديد ، بل كانها السنة البنادق عندما تهدر وتهتف بالويل للمستعمرين فوق ارض الوطن .

لقد قلت لي : اننا حطمنا الماضي الاسود ، وانطلقنا ننشد فجر الحياة ، ونشق الطريق اليه بالدماء والدموع ، اننا سنواصل الزحف حتى الغاية بين الاعاصير ، وتحت الصواعق ، وفوق البراكين ، فمن مات منا فبينه وبين الجنة ساعة ، ومن حي فعز وسعادة .

خدعتني نفسي وانا اصافحك ، فحسبت انني ساجتمع بك بعد ، ولم اكن اعلم ان تلك الساعة هي اخر عهدي بك ، وان لم تكن اخر عهدي بآيات بطولتك ، وروائع تضحياتك.

لقد نزعت نفسي الى ارض الكفاح. وتخالجني شوق الى تلك الجبال الرهيبة المخضبة بالدماء وانت تحدثني ، وخيل اليمما اهتاجني من الحنين الى البلاد العزيزة كأن المسافة بيننا وبين ارض الشهداء قد تلاشت ، وان كل شيء ذاب ولم اعد اسمع وارى الا زغردات الرصاص، وهزج البطولات ، وهدر العواصف ، وجبالا شامخة مكللة بالاباء ، وشبابا وكهولا يقودهم الموت الى النصر ، فيندفعون في عنف كالسيول الجارفة.

لقد ودعتني على امل اللقاء في ارض الوطن ارض الجزائر العربية ، وخرجت وقد نزا بك الطرب ، وطفى عليك نازح الحنين ، وتمنيت لو تطوى لك الارض في لحظات ، حتى تعود الى تلك الحياة الكريمة التي الفتها بين امواج الموت ، حياة المجد والكرامة والعز ، حياة الارادة والكفاح والخلق .

انسلخت ايام واسابيع وانا اتنسم انباءك بلهفة ظامئة . وكلما تساقط الي نبأ معركة واشتباك في الطريق بين تونس والجزائر توزع فكري قلق واوجست خيفة ان تكون سقطت بين الموت ، لا اشفاقا عليك، بل اشفاقا على تلك الامال الفساح التي ازهرت ولم تثمر بعد، وعطفا على تلك الشعلة المتوهجة بين حنايا الضلوع ان تنطفيء قبل ان تنال مبتغاك .

وبعد تلهف طويل دام نيفا وثلاثة اشهر ، بلغتني رسالتك الشيقة التي كتبتها بسرعة خاطفةعلى رابية عالية بجبال القبائل متوجة باشجار الزيتون يرفرف عليها علم الوطن العزيز .

وفي هذه الرسالة صورت لي آفاق طموحك ، ومدى هيامك بالعروبة والاسلام ، واستهانتك بالمخاوف والاخطار في سبيل وطنك.

لقد قلت لي ما معناه :

اكتب اليك وانا بين جمع من الاسود الرابضة تحت هذا العلم الخفاق ، هذا العلم الذي ينطق بصمته وترفعه انه قديم كعروبتنا ، اصيل كتاريخ نضالنا ، وان كل خفقة من خفقاته رمز لانتفاضة هذا الشعب ، وايذان بان الاستعمار يلفظ انفاسه الاخيرة في هذه البلاد العربية .. ان هذه الارض التي ينطق فيها كل شيء بانها عربية ستتحرر من الئام الاوغاد طوعا اوكرها ، ودماؤنا العزيزة هي الثمن الوحيد لحريتها ، وذكرتني بكلمة المصلح الخالد الامام ابن باديس (ان هذه الامة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ، ولا تريد ان تصير فرنسا ، ولا تستطيع ان تصير فرنسا ولو ارادت بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها وفي اخلاقها وعنصرها ، ودينها ، لا تريد ان تندمج ، ولها وطن معين هو الوطن الجزائري)

وقلت لي : غدا سيزول الظالم الجائر ، عن ارضنا الجزائر ، وترفرف راية السلام والمحبة والانسانية من اقصى بلاد العرب الى ادناها ... ان فجر الاستقلال سينبلج مضمخا بدمائنا ... واننا اقوياء ما دام الحق بجانبنا ، وخدمة الوطن هدفنا .»

لقد تاثرت برسالتك عميق التاثر ، ومرت تحت خيالي في لمحة خاطفة تلك الارض الملتهبة ، وتمثلت اولئك الابطال على الجبال والهضاب، وعلى السواحل والانهار ، تزأر في نفوسهم عواصف هوجاء من الحقد والبغض على السفاحين الاثمين ، وتخيلتك هناك في تلك الربوة العالية واقفا تحت جدائل الزيتون المتدلية ، وفي نفسك هدير من انفعال ضخم، وحماس محتدم ، وشجاعة خارقة ، وانت بين اولئك الاسود تتحينون الفرصة لتحدي مطامع الاشرار ، مطامع فور وماسو ، وتقسمون في عزم وتصميم ان لن يحول بينكم وبين الحرية المحبوبة اولئك الاقزام ، واولئك العلوج المجرمون .

لقد كنت على اتصال بك وباخوانك الابطال في الصحف والاذاعات ، وانتم تتنقلون في شعاب الجبال وفي جنباتها ومنحنياتها ، تثيرها رهيبة شعواء على اولئك البراغيث الهائجة الذين قذفت بهم اوروبا الى تلك الارض العربية فيتساقطون تحت ضربات الاحرار القاصمة كحفنات الذباب غير مأسوف عليهم .

وقد تخيلتك في المعركة المثلثة الرهيبة التي حشدت فيها فرنسا اعظم ما تملك من قوة وكنت فيها الضالة المنشودة لاربعة عشر جنرالا كلهم يتسابقون وراءك كما يتسابق الصيادون وراء الاسد : امل عظيم في هلع شديد .

تخيلتك تتنقل بين امواج الموت ، وفي صدرك هدرة بركان ، وغمغمة انفجار مستهينا بالموت في سبيل الحياة مسترخصا كل عزيز في سبيل الكرامة والعز .

لقد شاهد ماسو طائرات فرنسا واميركا تتساقط في تلك المعركة كانها عصافير اصابها صياد ماهر ... ورأى كيف عبثت تلك الارض الشاسعة بجثث ممزقة واشلاء مبعثرة ، وخضبت بالدماء.. دماء ابناء باريس المغرورين حتى كانها طليت بدهن احمر .

لقد تبين لماسو اثر تلك المعركة ـ وان جحد ـ ان تلك الطائرات والدبابات ، والاسلحة الفتاكة المبيدة ومئات الالاف من الجنود ، كل ذلك لا يجدى نفعا امام هذه الطاقات الجبارة الهائلة المتولدة التي تتحدى مطامع الحلف الاطلنطي منذ خمس سنوات .

لقد استطعت بصمودك في تلك المعركة ، وتدبيراتك الحربية الفائقة ان تنتزع اعجاب القادة الفرنسيين حتى لقبوك بصاحب النظام الحديدي، واصبحت منذ ذلك الحين شبحا مهيبا مرعبا يطاردهم اينما كانوا في الطريق ، في المنزل ، في المعسكر .

كم زحف (الجراد) على قمم جبال جرجرة الشامخة ، عابثا وعائثا ، فاجهزت عليه بانطلاقيات العملاقية ، وانتفاضاتك الجبارة ، فانسحق وانمحق ، واصبح مثلا للاخرين .

لقد اختلجت روحي اختلاجة العصفور عندما طرق سمعي نبأ استشهادك ، وتسمرت جوار المذياع مساء يوم ٢٩ مارس ، اترقب وانتظر، واتساءل : امات عميروش ؟ اصحيح انطفات تلك الشعلة المتقدة ؟! اسقط ذلك الاسد الهصور ؟ اهدأت تلك العاصفة الهوجاء التي طالما قوضت من آمال وحطمت من احلام واثارت من احزان ؟

لقد ذهبت نفسي في تكذيب الخبر مذاهب شتى ، ولكن لم البث ان تبينت الحقيقة ، وثبت انك على موعد مع الموت ... في جبال بوسعادة لتفتح هناك صفحة اخرى جديدة في التاريخ .

هناك في جبال بوسعادة كنت تمور كالاعصار جائلا وصائلا بجانب اسد الصحراء و(حارس ابوابها) سي الحواس هناك لقنت (دوكاس) اقسى درس واروعه في الصمود والثبات امام جحافله الجرارة طيلة ثلاثة ايام، وبرهنت مرة اخرى على ان العبرة بالروح المعنوية قبل كل شيء.. واثبت (لدوكاس) ان كثير الحطب يكفيه قليل من النار ..

لقد وقفت طيلة المدة بجانب اسد الصحراء ، تصارع الموت بشجاعة خارقة ، ادهشت العدو وانتزعت اعجابه ، فلم ترهبك النجدات الهائلة التي ظلت تتلاحق الى الميدان بين حين واخر طيلة ثلاثة ايام ، ولم تنل من عزمك وارادتك نار الارض ولا نار السماء .

لقد ظل عرينك الرهيب يرمي باللظى ويقذف بالموت حتى نفد ما عندك من ذخيرة وانتهت رسالتك ورسالة اخيك اسد الصحراء في هذه الحياة، وعندئذ فقط صعدت روحاكما الى الملأ الاعلى متعانقتين تحدوهما ملائكة الله في عز ورفعة ، وساد العرين صمت رهيب ثقيل ، وتربص العدو ساعة ثم تقدم ليرى ... ليراك يا صاحب النظام الحديدي منكبا على رشاشتك ، وعيناك مفتوحتان ، وبسمات الرضى والاطمئنان تتراقص على شفتيك .

لقد رجع القهقرى وهو يرتعد فرقا ، ويتساءل في صوت لا يكاد يبين: اهذا هو عميروش ؟ اميت هو ؟ لا لا... سألوا وعرضوا وما كادوا يصدقون .

لقد قالوا بعد موتك : ان الثورة على وشك النهاية كما سبق ان قالوا يوم مات زملاؤك، فاجابت الثورة من اعالي الجبال ومن كل شبر من التراب الثائر : انا هنا في كل مكان عاصفة لن تهدأ ، واعصار لن يسكن ونار لن تخمد ، حتى يلفظ الاستعمار انفاسه الاخيرة في هذه البلاد .

لقد غبت عنا ولكن بعد ان تركت وراءك ابطالا يعرف الفرنسيون بطشتهم الكبرى عندما تنفجر براكينهم ، وسيثارون لك من بعدك.

لقد تواريت ايها البطل الفوار ، ولكن ستبقى ذكراك ... ستبقى في انتفاضات الثائرين ، في طلقات المدافع والرشاشات .. في انشودة الراعي .. في الدماء الملتهبة ... في الغابة العذراء ... في تاريخ الغد ..

يا ارواح الشهداء .. بولعيد ، وزيغوت ، وديدوش ، لقد جاءكم روحا اخويكم عميروش وسي حواس ، فيا انسكم وفرحتكم بهما !..

اما نحن فعلى عهدنا القديم حتى ننتصر او نلتحق بكم اوفياء مكرمين، فاستريحوا الى جوار كريم واطمئنوا فاننا لن نحيدا

محمد الصالح الصديق الجزائر

النظرية التعبيرية وموقفها من البشرية

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

النظرية التعبيرية Expressionism في الفن هي احدى نظريات ثلاث يصنفها الناقد الفيلسوف هربرت ريد H. Read للدلالة على أشكال الفن المعاصر. هذه النظريات اوالاتجاهات هي: الواقعية والمثالية والتعبيرية .. الا أننا سوف نتبين ان المدرسة التعبيرية هي في الحقيقة مدرسة مثالية معادية للانسانية ولروح التقدم ..

وهذه المدرسة تضرب جذورها في الحركة الرومانسية التي كانت تنادي بالتعبير عن العاطفة والمشاعر الفردية وخاصة لدى الفلاسفة الالمان من امثال جوته وشيلر ... وهي تجد صدى لها في أقوال بعض الفنانين .. فهذا سير والتر رالي يقول: «لا يستطيع أي انسان ان يمشي الا على ظله» .. وهذا جوناتان ريتشاردسون يقول: «الرسامون انما يرسمون انفسهم» ... غير ان هذه المدرسة لم تأخذ شكلها النظري الا على يد فلاسفة يؤمنون بالتفكير الهجلي المثالي ونجد على رأسهم الفيلسوف الايطالي بنديتو كروتشه B. Croce يؤيده في اتجاهه كاريت Carritt الاستاذ بجامعة اكسفورد، وكذلك هربرت ريد السالف الذكر — وهي تجد اشياعا أيضا لدى بعض صغار المفكرين من امثال كولنجوود Collingwood الذي يقول: «ما يحاول الفنان ان يعمله هو ان يعبر عن عاطفة معينة» وكذلك ل. ا. ريد Raid القائل بان «الجمال هو التعبيرية الكاملة» .. ونجد اشياعا كذلك مثل ستيس Stice المتأثر بالفلسفة المثالية عند هيجل، وكذلك نراها عند الفيلسوف الامريكي سانتايانا Santayana

ونحب ان نوضح حقيقة صارخة في البدء، وهي ان اتباع هذه النظرية أنفسهم، يعترفون بصعوبة نظريتهم وغموضها ... والمتصفح لكتاب كروتشه الضخم «علم الجمال» Aesthetics يغرق في غموض لا يستطيع ان يتبين من خلاله شيئا .. ويعترف كاريت وهربرت ريد بهذا .. بل وحتى من كتبوا عن هذه النظرية مثل بوزما، الاستاذ بجامعة نبراسكا، يعترف بعدم فهمه للنظرية فهما كاملا، ويستطرد في انه لو قرأ كروتشه ثانية فسيزداد عدم فهمه .. ويبين لنا الاستاذ أوزبورن Osborne في كتابه «علم الجمال والنقد» Aesthetics & Criticism انه ما من تلميذ لكروتشه استطاع ان يوضح النظرية .

فما السبب في كل هذا الغموض ؟

هذا الغموض في الحقيقة يرجع الى أفلاس هذه المدرسة والى انها تريد ان تخدع قارئها وتلفه في ابهام حتى لا يكشف تهافتها ... ولكي تداري — في ثنايا المصطلحات الفلسفية المعقدة التي ابدعتها — زيفها ومعاداتها للانسانية وللعلم وللفلسفة العلمية ...

فما هي هذه المدرسة في الفن ؟ لما كان رأس النظرية التعبيرية في علم الجمال هو بنديتو كروتشه، فسوف نحاول أن نعرض لرأيه في وضوح، رغم ما فيه هو من غموض واضطراب ...

يقسم كروتشه المعرفة الى نوعين: معرفة عقلية intellectual ومعرفة حدسية Intuitive. المعرفة الاولى تكون المفاهيم Concepts والتصورات conceptions والكليات universals والمعرفة الثانية معرفة بالاشياء والجزئيات ... فمعرفة النهر والبحيرة والبحر معرفة حدسية، هي نفاذ مباشر الى قلب الاشياء، اما معرفة الماء بصفة عامة ففيها تجريد، ومن هنا يكون لدينا معرفة عقلية قائمة على المفاهيم التي يكونها العقل . والمعرفة العقلية عند كروتشه قائمة على المعرفة الحدسية، وليست المعرفة الحدسية في رأيه — كما يظن البعض — هي البوابة او الخادمة، انها هي السيد لانها اصل كل معرفة ..

والى هذه المعرفة الحدسية ينتسب الفن .. فالفن عنده حدس Intuition... فما هو المقصود بكلمة حدس؟

حاول كروتشه ان يعرف الحدس تعريفا ايجابيا ... ولما احس بفشل تعريفه لجأ الى السلب ... ففي كتابه عن فلسفة الفن يعرف الحدس تعريفا سلبيا على اسس اربعة هي: الفن ليس واقعة مادية — الفن ليس فعلا نفعيا — الفن ليس فعلا اخلاقيا — الفن ليس معرفة متعلقة بالمفاهيم ...

لقد كشف كروتشه في هذا التعريف عن موقفه المغرق في المثالية ... فهو لا يعترف بان للفن وقائع مادية .. ليس الفن عنده هو هذه اللوحات المعلقة على حوائط المتاحف .. وليس الفن هو هذه السيمفونيات التي تعزفها الفرق .. الفن عنده هو ذلك النشاط الروحي للفنان سواء عبر عنه في وسيط Medium ام احتفظ به لنفسه .. بل يغالي كروتشه فيذهب الى ان تذوق الاعمال الفنية هو

ايضا عمل فني... بمعنى انه ينكر وجود العمل الفني وجوداً موضوعيا ، وما العمل الفني ، الا ما يتذوقه المشاهدون والسامعون ، بمعنى ان تصبح اللوحات معلقة في نفوسنا ، وتصبح السيمفونيات معزوفة في اعماقنا !..

ها هي النظرة المثالية الضيقة تعلن سواء في الابداع او في التذوق ... وقد ذهب كاريت ، الى ان الجمال تعبير عن ألاحساس لانه يحل المشكلات المتعاقة بتفاوت الاذواق ... لقد وجد الاذواق متفاوتة .. فاعلنها : لا مشاحة في الاذواق ! ولم يحاول كاريت ان يرجع تفاوت الاذواق الى فروق الناس الطبقية والى ظروف مادية في الواقع الموضوعي ، بل غالى وغالت معه المدرسة التعبيرية كلها في انكار وجود الاعمال الفنية في الخارج .. وارجعوا وجودها الى النشاط الروحي للافراد بدورهم ...

والنظرية التعبيرية ينكر اصحابها ذوق الجماهير التي تشكل وجود الفن وتشكل وجود مدارسه ، فيشرح بيريل ليك Beryle Lake ضمن كتاب « علم الجمال واللغة » Aesthetics & Language الذي اشرف عليه الاستاذ التون Elton رأى المدرسة التعبيرية .. فيبين لنا ان العمل الفني عندهم عبارة عن ذاتية متخيلة ، هو حدس ـ تعبير Intuition -- expression يوجد في عقول الفنانين والمتذوقين المتازين .. فمن الذي سيحدد هؤلاء المتذوقين المتازين ؟ انهم اصحاب المدرسة التعبيرية انفسهم !! وسيحصرونهم في نطاق المثقفين وخاصة الخاصة منهم .. بل ان كاريت ليشتط في كتابه « مدخل الى علم الجمال » فيرى ان عالم الجمال عليه أن يجعل دراسته في هذا المجال قائمة على التجربة الجمالية Aesthetic experience لدى الفيلسوف ثم عند الذين نثق فيهم .. وبمعنى ادق عند الذين يثق فيهم اصحاب هذه النظرية .. ومن هنا تصل المثالية اقصى درجاتها .. فالتجربة الجمالية عندهم انما ترتد الى الفرد .. والمهم عندهم هو الخلق الباطني، وما يسمى عندهم جميلا او فنا هو « افكارهم » هم عن هذه الاشياء ... المهم لديهم هو ان تكون التجربة الجمالية هي ما يراه الفرد هكذا .. هي ترفض وجود الجمال الموضوعي objective المستقل عن ارادة الافراد ... وتركز على نشاطهم الداخلي ... الجمال في الافراد ... وعلى هذا يظل كل فرد محصورا في تذوقه ... محصورا كالسردين .. ويظل الناس علبا من سردين مرصوفة لا تتصل ولا تتفاعل ولا يؤثر بعضها في البعض ولا تتبادل خبراتها التذوقية ... ويظل كل فرد يستحلب ذاته في التذوق .. ويظل الفنان يبدع كما يشاء لان ما يهمه هو انما ابداعه هو .. وكذلك ما دام المتذوقون يفرضون على عمله تذوقهم هم ، ويبدعونه من جديد بحيث لن يرتد الى ابداعه هو ... وبهذا تعزل هذه النظرية الفنان عن المتذوقين وعن الناس وتكشف عن وجهها الحقيقي المنادى الفن للفن ...

وان تكن في الحقيقة قد اختارت هي الفن ضد الناس وضد المشاركة الجماعية وضد تطوير المشاعر البشرية..

ويزيد من رهابة هذه النظرية وعداوتها للبشر دعوتها بان الفنان لا يصور الواقع ، وانما هو يصور وقائع الشعور ان صح القول ، أو انطباعات impressions الفنان ...

ويصرح كروتشه تصريحا قاطعا في كتابه « علم الجمال » بان التمييز بين الواقع واللاواقع امر طاريء ... فالفن هو النشاط الروحي وهو نشاط ثابت ، انما المتغير هو المادة الميكانيكية المنحطة .. فمن ايىن جاء هذا الثبات للنشاط الروحي ؟ ان النشاط الروحي ـ او الثقافي ، لا الروحي بمعنى كروتشه لان الروح ان هي الا المادة التي تعضونت اثناء تطورها واصبحت مادة مفكرة ـ هذا النشاط انما يتطور مع تطور المجتمع ، وهو يتحدد عند الفرد طبقيا واجتماعيا ... وهذا الانحطاط للمادة من اين جاء ؟ أليس هذا هو النظرة الحضارية الرأسمالية المنهارة ؟ ان النظرية التعبيرية تكشف عن عدائها للعلم وللفلسفة العلمية ... فهي ترى ان التجارب الجمالية لا شأن لها بالعلم او بالتاريخ ... كأن التجارب الجمالية لم تتكون وفق شروط تاريخية! وكأنها لا ترتد الى وقائع مادية في حياة المجتمع ! وكأنها لا يمكن ان تخضع للبحث العلمي !

ان الفن عند اصحاب هذه النظرة ليس فعلا نفعيا ... بمعنى ان لا شأن له باللذة .. فكروتشه يخشى على الفن ان يكون معبرا عن اللذة الحسية ، وفي سبيل ذلك انكر على الفن كل لذة ممكنة .. ان الفن الحقيقي في الواقع لا ينقل اللذة الفجة البهيمية كما هي ... اللذة المغرقة في الحسية ، وانما هو يؤنسن تلك اللذة فتصبح لذة مصفاة منقاة .. بمعنى اخر ان الفن لا يقوم على الحساسية الفجة ، وانما على الحساسية المؤنسنة humanized التي دخلها طابع انساني بحيث تثير في القاريء في النهاية ذلك التطهير النفسي Cathersis الذي حدثنا عنه ارسطو قديما ..

ويستمر كروتشه في تعريفه السلبي للفن .. فيرى ان الفن ليس له تأثير عملي .. يكتب كاريت في «المدخل الى علم الجمال Introduction to Aesthetics ان الفنان قد يكتب من اجل النقود كما عند سكوت وترولوب ، او يغرقنا في السياسة كما يفعل وليم موريس ، لكن لما كان الفنانون رجال عبقرية فان اقلامهم ترشدها الروح ، وما نقرأه ان هو الا التعبير المحض عن المعاناة او الشفقة .. فالنظرية التعبيرية اذن لا تعترف بالشعور الجمعي الذي يكونه الفن والمشاركة الوجدانية التي يحدثها ... ان كروتشه ينعي على الفن ان يكون جماهيريا ومشاركا في تغيير الواقع ... والسبب في ذلك ان كروتشه يضع الروح في جهة والمادة في الجهة المقابلة ولا معبر بينهما .. والفن عنده تعبير عن الروح ولا شأن له بالواقع ولا بتغييره .. وهو قد فصل الفنان عن أرضيته الاجتماعية وانه يعبر

عن وجهة نظر في الحياة سواء اراد ام لم يرد .. وكلما عبر الفنان عن القوى الصاعدة في المجتمع كلما كان اقرب الى الافئدة .. فهذا بول روبسن المغني الامريكي ، عندما يغني تتبعه ملايين القلوب .. وهذا جوركي تقرأه ملايين العيون .. ان للفن تأثيرا في الواقع ، ليس تأثيرا مباشرا بل هو تأثير غير مباشر ... فالفن الهادف تطوير الحياة يبث في القاريء وجدانا جديدا ووجهة نظر جديدة آملة في الحياة، ومشاعر دفاقة بحب الارض .. فيتغير وجدان القاريء على المدى البعيد ، وينعكس هذا في سلوكه الخاص ... اما الفن الرجعي فهو يبث في القاريء تشاؤما ويأسا وقدرية ... ويؤثر هذا في وجدانه على المدى البعيد ... اذن فالفن له دور اجتماعي .. وهذا ما لم تستطع نظرة كروتشه أن تتبينه.. وقد اتخذت نظريته هو نظرة رجعية في الكون والحياة ...

وينكر كروتشه على الفن اي اثر للفهم العقلي اوالمفاهيم الذهنية ... حقيقة ليس الفن هو المفاهيم ... ليس هو القوانين العامة كما هو الحادث في العلم ... لكن الفن عن طريق التخصيص والتفرد والتعبير عن المشخص انما يعمم الجزئي من خلاله .. فراسكو لينكوف في رواية « الجريمة والعقاب » لديستوفسكي هو نموذج متفرد متعين له مصيره الخاص وتكوينه الداخلي .. لكن ديستوفسكي قد عمم من خلال مفهومه في ان الخلاص قائم في المسيحية والتوبة ، وهذا هو الذي سينقذ الارض من شرورها .

لقد فات كروتشه ان لا تعارض اطلاقا بين القول بان الفن يعبر عن الجزئي لا المفاهيم ، وانه يعبر عن المفاهيم من خلال هذا الجزئي ... والسبب في هذا يرجع الى انه يفصل المعرفة الحدسية عن المعرفة العقلية فصلا لا اقل من ان تمتد عليه قنطرة ...

والقاريء لهذا الجزء عند كروتشه يحس دعوته للفنان ان يعبر في تلقائية عن مشاعره دون ان يسيطر عليها ودون ان يتدبر موقفه في هذا الوجود عن طريق فنه ..

المعرفة الحدسية عند كروتشيه ليست معرفة عن شيء وليست انطباعات بشيء ، انما هي نفاذ .. هي نفاذ الروح بالروح في الروح .. ! فلا شيء عنده خارج النشاط الروحي .. الروح هي الواقع كله .. ومن ثم يوحد كروتشه بين الفن والحدس والتأمل والتخيل والخيال .. وهذا التأمل أو الخيال هو خيال الفرد عن مشاعره وتأملها ... ومن هنا لا يعترف كروتشه الا بالفن الغنائي ، لان الغنائية Lyricism هي من شأن الفردية والذاتية ..

فماذا من شأن تعريف الفن بالحدس من الناحية الايجابية؟ الحدس عند كروتشه هو التعبير ... والتعبير كما اوضح أوزبورن عندهم بمعان ثلاثة: التعبير عن الذات ، والتعبير عن العاطفة ، والرمز على حالة من حالات النفس .. ليس التعبير عندهم هو ذلك التجسد الخارجي ، بل هو تلك الحالة الاستبطانية introspective التي يوجد فيها المرء.. حتى ولو لم يبدع !.. تلك الحالة التي يستحلب فيها المرء مشاعره .. ومن المؤكد ان كروتشه يتبعه في هذا كل التلاميذ يرى ان ما يحدسه الفنان قبل الخلق هو اكثر جمالا مما تم بعد الخلق ... وان ما يتذوقه المتذوق ابداع جديد ، ليس فيه من حدس الفنان اي شيء، وكل الفارق ان الفنان يشتغل على حدسه ، بينما القاريء يشتغل حدسه على حدس الفنان ... ومن هنا تنمحي صفة التوصيل عن الفن ، وكاريت يرى ان الفن لا شأن له بالتوصيل الى الاخرين .. ويطالب منا ان نميز بين الفن بمعنى الخلق الفني وبين الحرفة او التكنيك .. فالمهم هو الخلق الباطني اما التوصيل فهو امر ثانوي يرجع الى حرفية الفنان خاصة وان ما سيصل الى القاريء سيصبح موضوعا للحدس من جديد ..

الحدس عندهم هو التعبير عن العاطفة ..والتعبير عندهم كما عرفه هربرت ريد هو ردود أفعال عاطفية..ومن هنا جاء التوحيد لديهم بين الحدس والتعبير .. بين الانطباعات والتعبير ... كأن ليست هناك عند الفنان مرحلة تلق ومرحلة ابداع ! لانهم يرون ان العارف بالمعرفة الحدسية يخلق بطريقة ما ، ما يعرفه ..

ولقد غالوا .. فالفن عندهم ليس حتى هو المضمون ..ليس هو هذه الانطباعات او الحدوس او التعبير بل الفن هو وحدة الشكل Form تلك الوحدة التي تحددها العاطفة .. فكشفوا حتى هنا عن نظرتهم المثالية ... فالشكل والمضمون في الحقيقة هما وحدة يبد متآزرة عن طريق الزمان الفني للعمل الفني مع اسبقية المضمون كروتشه وأتباعه يرتدون الى ان وسائل الفنان الابداعية في حرفته انما ترجع الى الحدوس ... حيث ان الايقاع والتوازن والوزن والتناغم هي جميعا اشياء حدسية وليست انتاجات عقلية ... فكأن كل هذه الاشياء – عندهم – ليست – الا نتاجات غرائزية – لا اجتماعية – لحدوس الفنان ... وهنا يكشفون حتى عن اماتتهم لحرية الفنان في خلقه – ما دام ينتج غرزيا – تلك الحرية التي كانوا يريدون الاعلاء من شأنها ..

انهم صرحاء في أعلانهم عن موقفهم وتعبيرهم عن ازمة الحضارة في الغرب وانهيارها ... فيعلنون عن وجهة نظرهم الجمالية المتمشية مع هذا الانهيار . وما المدرسة التعبيرية في الفن؟ ان هي الا اعلى مراحل الفلسفة المثالية المتأزمة في نطاق علم الجمال ... هي مدرسة لا تريد ان تعبر عن الوقائع الموضوعية ، ولا تريد ان تسلم الناس حتى يتغيروا فيغيروا ... بل هي تعبير عن الذاتية التي وصلت بها ازمتها حتى الخناق ..

بل ان هربت ريد ليكشف عن نظرة استعمارية اثناء بيانه لاسس هذه المدرسة في كتابه « معنى الفن » ... فهو يرى أن الفن التعبيري يرتد الى الاجناس الشمالية

– التتمة على الصفحة ٧٣ –



عاش مبروك عمره الطويل ، واحدا وثمانين عاما ، في قريته على شاطىء نهر الفرات لم يغادرها الا الى البلدة القريبة اياما قليلة يعود بعدها الى قريته ، ومات في هذه القرية نفسها منذ بضعة اسابيع . وكان جديرا بمبروك ان تكون ايام حياته الاخيرة ايام نكد مرة اذ كان يعيش فيهـا وحيدا ضعيفا عاجزا بعد ان فارقت زوجته الحياة منذ سنين طويلة وعديدة . ولم يكن له ولد يتولى رعاية شيخوخته .... لا ، بل كان له ابن وحيد ففقده في ريعان صباه وظل قلبه منفطرا بالحزن عليه الى اخر يوم من حياته . وكانت له بنات خمس كن متزوجات في قرى متباعدة وقد شغلن بأزواجهن وبابنائهن وابناء ابنائهن عن الالتفات الى ابيهن الوحيد العجوز . ولكن مبروك ، مع كل هذا وبالرغم من اساه المزمن على فقد ابنه الوحيد ، فارق الحياة قرير العين مثلج النفس بعد ان قضى شهوره الثلاثة الاخيرة منها في هناءة غامرة تشبه السعادة المطلقة . من اين جاءت مبروك هذه الهناءة في ايام شيخوخته الاخيرة ؟ انها لاشك رحمة الله التي ابت ان يفارق هذا العجوز المسن الدنيا محترق القلب بلوعة الثكل وبحسرة النفس وبالاحساس الممض بالعجز والهوان ، فساقت الى قرية مبروك فرقة الهندسة التي كلفت بدراسة مشروع اقامة سد على نهر الفرات وساقت مبروك الى خيام تلك الفرقة . هناك تعرف هذا الفلاح العجوز الى بعض المهندسين فانسوا اليه واولوه ، تحببا منهم اليه وعطفا عليه ، اولوه عملا يسيرا في ذاته ولكنه بالنسبة الى مبروك كان نقطة تحول مباركة في حياته ، في القليل الذي بقي من حياته، وفي البسيط البدائي من افكاره وفي الطبيعي البعيد عن الغرابة من احاسيسه .

قضى مبروك الاشهر الثلاثة الاخيرة من حياته حارسا في قرية فرقة الهندسة التي كانت تتألف من منزلين خشبيين من المنازل المهيأة لسكنى المهندسين ومكاتبهم ومن بضع خيام كان يأوى اليها العمال وتملؤها الادوات الفنية والميكانيكية . وكانت مهمة الحراسة في هذه القرية المستحدثة القائمة على السفح الذي يعلو قرية مبروك مهمة شكلية اذ لم يكن ثمة من يجرؤعلى ادوات المهندسين ومعداتهم في المنطقة كما ان الخيام والمساكن لم تكن لتفرغ ابدا ممن فيها فتطمع لصا بسرقتها . ولذا فقد كان عمل مبروك عملا هينا لايفوق طاقة سنيه الثمانين التي كانت حملا ثقيلا على كتفيه وان ظل بالرغم من ثقلها معتدل القامة جهير الصوت . فكان يبيت لياليه في خيمة تقع على تلعة يرى منها ، حين يكون القمر بدرا او قريبا من البدر ، كل الفضاء المحيط بالمسكنين وبالخيام الاخرى كما يرى منها ، اذا مد بصره ، كل السهل المنبسط جنوبا نحو الافق والوادي العريض الذي يسيل فيه نهر الفرات متعرجا كشريط فضي في سواد الارض حوله في الشمال . اما في النهار فان مبروك اذا لم ينزل الى قريته ليسمع احاديث الناس فيها عن الزرع والمطر واسعار العلف في هذه السنة المجدبة ، اذا لم ينزل الى قريته وقد اصبح يقلل من نزوله يوما بعد يوم ، فانه يرافق المهندسين في تجوالهم بسيارات الجيب في انحاء الوادي ويتوقف معهم حيث يتوقفون بين ان واخر في امكنة مختلفة من سفح المرتفع الذي يحد في الجنوب فراش نهر الفرات وهم يدرسون تركيب هذا السفح ونوع تربته وصلابة صخوره . واحيانا كان يركب مع فاسيلي ، وهو المهندس الاجنبي ، احد الزورقين السريعين ويظل في النهر ساعات يتأمل في انداح الماء حول الزورق في موجات تتوالى متدافعه حتى تلطم جرفي النهر في شاطئيه بينما يكون فاسيلي ومساعده منهمكين في قياس سرعة التيار في مختلف النقاط من النهر او في القاء المسابر في اعماق النهر المختلفة لمعرفة ابعادها وحرارة الماء او تركيبه فيها . كان ما يقوم به المهندسون من اعمال شاقة او دقيقة والجهود التي تبذل في قريتهم العجيبة والاموال التي تصرف في عمليات قليلة الجدوى في ظاهرها ، كان كل ذلك الغازا في نظر مبروك في الايام الاولى من التحاقه بعمله . ولكن احاديثه مع العمال واحتكاكه بالفنيين ومرافقته للمهندسين جلت نظره وادخلت في فهمه المعاني البعيدة لهذه الاعمال العقيمة : لقد فهم ان كل هذا مقدمة لعمل عظيم وخطير ، وانه سوف يأتي يوم ليس ببعيد تهدم فيه قريته وعشرات القرى المنتشرة قربها على شاطىء الفرات وتعطل حقولها ويهجر ابناؤها ليرتفع مكانها سد عظيم من اسمنت وحديد وحجارة عظيمة كل منها في حجم الخيمة التي ينام مبروك ، وان هذا السد حين يرتفع سيحجز وراءه ماء الفرات ويمنع طغيانه ويجعله عبدا مسيرا لامر هؤلاء المهندسين الاذكياء الذين يرافقهم مبروك كل يوم في جولاتهم في السفح والوادي في سياراتهم الشيطانية الخفيفة وعلى سطح الفرات في زوارقهم المتكتكة السريعة الانطلاق ..

اذن فهناك سد سيقام في هذا المضيق الذي يسير فيه الفرات في واد بين مرتفعين في الشمال والجنوب ... وشيئا وراء شيء كان المشروع الذي قامت لاجله قرية المهندسين فوق السفح يتضح امام عيني مبروك وباتضاحه كان الرضى ينساب الى نفسه شيئا وراء شيء كذلك . ربما كان المهندسون اناسا قصيري النظر لايدركون الا مايبصرونه باعينهم او تؤديه لهم الاتهم الحاسبة المعقدة فهم يثبتون معلوماتهم واحدة واحدة على اوراقهم ويرسمون هذه المعلومات على تلك الاوراق بخطوط متعددة الالوان عجيبة الاشكال ليس فيها مايشبه صورة سد او جزء من اجزاء سد على نهر الفرات ، اما مبروك فقد كان ابعد نظرة واوسع تصوراواشمل

مدى في التأمل من كل هؤلاء المهندسين ومعاونيهم ... لقد كان يرى بعينيه منذ الان صورة السد الذي سيقوم على الفرات بعد عام او عامين او اعوام مهما طالت فلن تبلغ العشرة : بناء عجيب ارسخ من سور الرصافة في البادية الذي مرت عليه الاف السنين ولم تنقض منه حجرة واضخم من تلعات المناخر التي تطالعه من الشرق في كل صباح بالرغم مما تفصله عنها من مئات المراحل ، واعلى من مئذنة جامع الرقة العتيق التي تبدو اول كل شيء لعينيه اذا ماقصد البلدة في صبيحة موسم او نهار عيد ... .لهذا البناء العجيب طاقات نمر فيها من كبرها الجمال المحملة ، يتحكم فيها مهندس مثل فاسيلي او صبيح او ربما صبي لاحد المهندسين مثل عبد الستار ، فيستطيع بضغطة على زر او بادارة لولب ان يترك الفرات ينصب منها معجلا او انه يحجز مياهه فتتلاطم وراء السد حرونة مغضبة ! كلما تصور مبروك هذه الصورة اثلج صدره وشعر في اعماق نفسه بغبطة من اشتفى من عدو له لدود ورضي من بلغ ثارا من خصمه العنيد ، وحدثته نفسه بان يندفع الى اقرب مهندس اومساعد مهندس او عامل من عمال مشروع السد ليضمه اليه ويقبله ، حامدا الله على ان مد في عمره حتى رأى هؤلاء الرجال الطيبين يجتهدون ليبنوا على الفرات هذا السد. يقولون ان وراء هذا البناء الجبار خيرا كثيرا ، ولكن خير الخير في نظر مبروك الشيخ كان ان يجد الفرات من يلجمه ويكبح طغيانه ، فهو لن يتحكم بالناس وبالارض بعد مثلما كان يفعل ، لن ينزع مزرعة من زيد ليهبها الى عمرو دون مقابل ، لن يهد الاجراف ويتلف الزرع ويغرق الصبيان في زهوة صباهم ... قد يكون الفرات سلطانا جبارا طاغيا ، ولكن مبروك عاش حتى رأى سطوة هذا السلطان الطاغي تتحطم ويقف فيه ، مقهورا ، عند حده ...

* * *

الفرات سلطان !... في الثمانين عاما التي غبرت من عمره سمع مبروك هذه الكلمة مرات لاتعد ولا تحصى ولفظها هو بلسانه مرات لاتعد ولا تحصى كذلك . والناس على ضفتي الفرات في واديه الممتد من منبعه الى مصبه يقولون كلهم هذا القول ويعتقدون به ، ربما منذ الاف السنين منذ كان للناس عيش على ضفتي هذا النهر الطويل العريض . الفرات سلطان حين يسيل في واديه موزعا خيراته على اليمين واليسار على الامم المختلفة التي تشرب من مائه وتتغذى بما يرنوي به من زرعه . والفرات سلطان حين تنحدر امواجه الهادرة في الربيع من قمم منابعة المكللة بالثلوج فتكتسح في نوبات فيضانه الجنوبية ما بناه الانسان بكده في المنخفضات من مساكن واوابد وما غرسه من شجر مثمر او زرع مستحصد . والفرات سلطان حين يبدل مجراه في الوادي العريض الذي يكون فراشه فيتحول الى اليمين او الى اليسار عشرات الاذرع او مئاتها مغيرا في المعالم والتخوم مداخلا بين الملكيات فاتحا بين الناس ابواب نزاع لاتنتهي . كان مبروك يعلم ان كلمة الفرات سلطان هي بند من بنود شريعة الوادي بين القبائل التي تسكن ضفاف النهر فاذا تحول النهر الى الجنوب حتى اتى على كل ارض مبروك في الضفة الشامية او تجاوزها فأصبحت هذه الارض في ضفة الجزيرة من النهر ، فان مبروك يكون قد فقد ارضه بدون عوض . وهو لايستطيع ان ينتقل الى ضفة الجزيرة وراء ارضه التي يعرفها بالمعالم التي تركها بنفسه فيها ، ذلك لان شريعة القبائل ضده في هذا ، فأرضه قد لحقت بارض فلان من الناس فأصبحت ملكا لفلان ، اليست حدود ارض هي النهر في الجنوب .؟ فلو قال مبروك ان هذه ارضي اعرفها ببقايا كوخي الذي بنيته فيها بيدي وبآثار البكرة التي اقمت منصبها بمجرفتي ومعولي ، لو قال مبروك هذا لاجابه عارفة القبيلة ، وهو قاضيها الذي لايرد قضاؤه بكلمة واحدة ، الفرات هو الذي اعطى ارضك لفلان ، والفرات يامبروك سلطان !

منذ ثمانين عاما ومبروك يرى الفرات يأخذ ويعطي ، يعمر ويدمر ، يفيض حتى تستند ضفتاه على المرتفعين اللذين ينتهي اليهما الوادي العريض ويغيض حتى يصبح اخدود ماء لا يتعدى المائتي ذراع في عرضه. كان في عيني مبروك سلطانا كأقوى مايكون السلاطين جبروتا واطول مايكونون عمرا . ذلك ان مبروك كان قد سمع بسلاطين كثيرة ذوي شأن وطغيان اتت الايام على شأنهم وطغيانهم بالموت او بتغلب عدو او بانتفاض بطانة او صديق ، فكان يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يكون الفرات وحده سلطانا ابديا مطلقا لانهاية لامره ولا مرد لحكمه ؟ هذا التساؤل كان امرا غريبا من مبروك في بساطة تفكيره وبدائية حياته وهو تساؤل لاشك في ان قليلا ممن يعيشون حول مبروك وفي ايامه قد اداروه بينهم وبين انفسهم . ذلك ان هؤلاء الناس الذين يحيون حياة مبروك ولهم مثل عقليته قد عرفوا من سلطان الفرات هديرموجه وحدة تياره وتهديمه الاجراف على ضفتيه بما عليها من بنيان البكرات والفراريف والمضخات ، ولكن احدا منهم لم يذق من جور الفرات ماذاقه مبروك في ليلة مظلمة مضت منذ ثلاثين عاما او مايقارب ثلاثين عاما . مضت تلك الليلة في حينها ، ولكن ذكراها واثرها ظلا في نفس مبروك لايمحوها مر الايام ولا كر الاعوام ...

الفرات سلطان ، وسلطان غاشم جبار ... يعرف مبروك ذلك كل المعرفة . فمنذ ثلاثين عاما او ما يقاربها ، في منتصف ليلة من ليالي نيسان بعد ان غاب القمر فلم يعد في الليل نور مضيء غير انوار النجوم ، عاد مبروك من كرده ، وهو قطعة الارض التي تخصه من ارض العشيرة ، بعد ان حل وثاق الثور الذي كان يجر الدلو على البكرة في آلة السقي البدائية التي كان يروي بها ارضه . عاد من كرده، اعني حقله ، وكان يتبعه ابنه رمضان . ورمضان كان وحيد مبروك ، صبيا يافعا اصغر من اخواته البنات الخمس ولكنه كان يبدو في حسن بناء جسده واكتمال نمو اعضائه وبالعون الكبير الذي يؤديه لابيه في عمله ، كان يبدو رجلا مكتمل الرجولة . وكان الاب والابن قد قضيا يوما منهكا من العمل في الكرد ، احدهما يسعى وراء الثور ، في انحداره في الاخدود العميق جارا دلو البكرة الجلدي المثقل بالماء ليصبه في الساقية ، او في صعوده في هذا الاخدود الى قمته خفيف الحمل مرخيا الحبل للدلو حتى يسقط في الفرات ليمتلىء بالماء من جديد ، والاخر منصرف الى تلقي الماء الذي تأتي به الساقية ليديره على الواح الحنطة، التي سقطت عيدانها وكادت سنابلها ، والوقت آخر نيسان ، تعقد . كان الاب والابن متعبين من يوم العمل الطويل الذي امتد الى منتصف الليل بنور القمر الذي يتيح لهما رؤية الدلو والبكرة والساقية وماءها، ولكن تعبهما لم يخل من نشوة الغبطة برضاهما عن زرعهما ثمرة كدهما. فكان الاب يسير في المقدمة في الشريط الضيق من الارض الذي يفصل جرف النهر عن زرع مبروك وزروع جيرانه وجيران جيرانه من اهل القرية ، خابطا في الظلمة بين آثار سواقي الكرود ومعالمها وهو يحدث ابنه المتخلف عنه بصوت مرتفع عن الموسم وجودة الزرع وارتفاع السنابل وعن النهر ، نهر الفرات الذي يعيشون كلهم في ظل سلطانه والذي هو اليوم في اوج فيضانه . كان النهر قريبا من الدرب الذي يسلكه مبروك وابنه لا يبعد عن مسير اقدامهما الا خطوة او خطوتين ، وكان مبروك

يسمع لأمواجه الهادئة دوي مكتوم مشوب في بعض الاحيان بلغط خفيف دليل تكسر احدى الموجات على قاعدة الجرف الذي يمشيان فوقه . واذا التفت مبروك بنظره قريبا الى يمينه او مده بعيدا امامه كان يرى مياه الفرات كامدة في الظلام الذي تعودت عيناه على التمييز بين الالوان الغامقة فيه او يرى بطن النهر في مجراه تلتمع ذرى بعض موجاته بالق النجوم فوقه . وقال مبروك لابنه بصوت مرتفع ، لانه كان يحدس ان ابنه ظل بعيدا وراءه ، قال له ان من حسن حظهما ان النهر هذا العام قد مال بثقله في الفيضان على ضفة الجزيرة ، وهي الضفة الشمالية ، ووفر الضفة الجنوبية التي تقع فيها ارض مبروك وارض سكان قريته . فكل البكرات المبنية على الضفة الشمالية قد هوجمت بموج النهر المتلاطم الذي هدم داراتها وخرب سواقيها وتعداها الى زروعها فاتلفها اذ اصبح نصف الزروع في مجرى الماء وما سلم منها سيموت عطشا لانه لم يبق على تلك الضفة جرف ثابت تبنى عليه دارة جديدة لبكرة او غراف . وبينما كان مبروك يحدث ابنه بهذا كان يسمع من الضفة المقابلة بين حين واخر صوت انهيار اصم مصدقا لاقوال الفلاح الكهل اذ كان كل من مبروك وابنه يعلم انه صوت انهيار جرف هدته هجمات امواج النهر الهائج . كان مبروك يتحدث ويتحدث وهو في طريقه الى منزله سابقا ابنه ، دون ان يسمع من رمضان جوابا او تعليقا على حديثه ودون ان ينتظر منه هذا الجواب او ذاك التعليق . ولكنه قبل ان يشارف منازل قريته وينحرف في طريقه دائرا حول الحقول الى حيث تقوم المنازل التفت وراءه متفقدا موقع ابنه فلم يتبينه قريبا منه. فوقف ومد بصره في العتمة الى الدرب الذي جاءا منه على حافة الجرف الذي كان النهر يتلاطم عند قاعدته فلم يلح له ، في مدى بصره في الظلام شبح رمضان . فصاح يناديه في الليل الساكن : رمضان ... رمضان ! ولكن رمضان لم يجب على ندائه ... فعاود النداء بصوت اعلى ونبرات ممطوطة وارهف سمعه مترقبا الجواب ، الا ان نداءه ظل صيحة ضائعة في سكون موحش ما كان فيه من نأمة الا صرير حشرات الليل الدقيقة . حينئذ احس الفلاح الكهل التعب بنقمة على ابنه اذ تأخر عنه وتركه في كل هذا الطريق يتحدث كالمجنون الى نفسه ممزوجة بالاستغراب لتخلفه عنه كل هذا التخلف ، ممزوجة بالقلق مما دعاه الى ان ينقطع عنه كل هذه المسافة دون ان يؤذنه او يستأذنه بذلك. ولما وجد مبروك ان صيحاته المتوالية لم تجد ردا وان انتظاره في مكانه لم يفد شيئا استدار عائدا من الطريق التي اقبل منها محددا بصره في الظلام باحثا فيه عن شبح ابنه مناديا بين الحين والحين باسمه في الليل العريض المظلم الساكن .

كان مبروك يعرف الطريق التي جاء منها معرفة تامة لطول ما سلكها في النهار وفي الليل ، في ضياء الشمس وفي نور القمر وفي الظلمة المطبقة التي لا ضياء فيها ولا نور ، يعرفها طريقا ضيقة محددة بين حوافي زورع كرود القرية من جانب وبين الجرف الثابت الذي كان الفرات يتباعد عنه في الصيف والخريف ويتقرب منه في الشتاء حتى يتخذه له ضفة في ذروة موسم الفيضان الربيعي من جانب اخر . هذه الطريق كانت تتسع احيانا حتى تبلغ اربعة اذرع او خمسة في عرضها وتضيق احيانا حتى تلتصق حافتها بحافة الجرف فلا تكاد تكفي لمرور حمار محمل بلاس تبن عريض . كان مبروك يعرف منها مواضع السعة والضيق والمواضع التي تقطع الدرب فيها سواقي البكرات والغراريف المقامة على ضفة النهر ، ويستطيع ان يسير فيها مغمض العينين دون ان يتعثر بكومة من التراب او ينحرف عنها جنوبا فيدخل الزرع او ينحرف شمالا فتزل قدمه في الجرف . فلما عاد ادراجه اخذ يتفقد ، بقدر ما كان يعينه بصره الحديد في العتمة المطبقة ، معالم تلك الطريق باحثا عن المكان الذي سمع فيه لاخر مرة صوت رمضان ابنه وراءه . وسار في طريق العودة طويلا ملقيا بين الفينة والفينة باسم ابنه صرخة دعاء لم تكن تحظى بجواب ، فما كان يسمع في السكون غير هدير امواج الفيضان الذي اخذت طبقته في العلو في سمع مبروك ربما لان اذنه اصبحت اكثر حدة بارهافه لها مترقبا صوت ابنه او ربما لان روافد جديدة من مياه الفيضان كانت قد بلغت هذا الموضع من مجرى النهر في هذه الساعة من الليل . والى جانب هدير الامواج المتلاطمة كان مبروك يحس بكل كيانه بتيار النهر مندفعا في سرعته المخيفة قريبا منه ويشعر بارتطام المياه الهائجة بقاعدة الجرف البيلوني الذي كان يسير هو ، مبروك ، على بعد ذراع او اقل احيانا من حافته . وفجأة وقف مبروك مشدوها ، وكادت صيحة داوية ان تنطلق من حنجرته ، ولكنه احس كأن يدا حديدية المخالب قبضت على عنقه فحبست الصيحة مكانها بينما هبط قلبه من موضعه في صدره وارتفع كل دم جسده الى رأسه . كل ذلك احس به مبروك حين بلغ في سيره مكانا تطلع فيه الى قيد باع منه فرأى ان الدرب امامه بين حافة الزروع والجرف قد امحى وان فجوة واسعة قد وصلت بين النهر والارض المزروعة . في مكان هذه الفجوة كان الجرف قد انهار فاندفع ماء النهر الطاغي فيها في ثلمة كان اصلها العريض متصلا بمسرى النهر وذروتها الدقيقة في الحقل المزروع حيث ارتفعت فوقها اعواد القمح النامي كثيفة متمايلة ...

جلس مبروك على الارض وقد دار رأسه بدوار عنيف واصبح جذعه في ثقل الرصاص فوق ساقيه حتى اصطكت من ثقله ركبتاه . ومد عنقه يتأمل ببلاهة في الماء الذي تسرب من الفجوة الواسعة الى حقل الحنطة ، فرآه بالرغم من الظلمة الداكنة يدور في دوامات بطيئة كانت تضرب في اصل الجرف الجديد الذي امتد تحت الحقل المزروع فتهد منه قليلا ثم تعود فتختلط بمياه النهر التي كانت تكسرها عند الضفة غلالة من الزبد الاسمر القذر . وتطلع مبروك حوله في اسى كأنما كان يستجدي ابنه من النهر والنجوم والسنابل ونادى بحرقة : رمضان ... رمضان ! غير ان نداءه هذا ظل في اثناء الليل وحيدا عقيما . حينئذ نكس الاب المسكين رأسه وهمس في دوامة الماء التي كانت في تلك اللحظة تدور تحته في الفجوة :

ـ رمضان ، يا ولدي !

ثم وضع رأسه بين كفيه وراح يبكي .

وفي الصباح وجده الفلاحون المبكرون الى سقاية زروعهم جالسا على الضفة حيث تهدم الجرف من هذا الجانب من جانبي النهر لاول مرة في هذا العام ، يتطلع بنظر ثابت الى الفجوة التي انهارت تحت قدمي ابنه الوحيد حيث ابتلعه الموج ، موج الفرات الطاغية ، في ظلمة الليل مخلفا اباه المسكين وحيدا مفردا حزينا ..

* * *

كل ذلك كان منذ ثلاثين عاما او مايقاربها . لقد اختطف النهر السلطان ابن مبروك ، اختطفه واخذه دون ما ذنب ، لم يعتذر ولم يدفع عنه دية ولا عوضا ، اليس الفرات بسلطان ؟ ولكن مبروك كان قد سمع بسلاطين كثيرة وضع الدهر حدا لطغيانهم وجورهم بالموت او بالخلع او بالثورات والحروب ، فلمَ يبقى هذا السلطان الجائر وحده ولا كابح لظلمه واستبداده ؟... كان مبروك يدير بمرارة هذا السؤال بينه وبين نفسه ، سؤالا في اعماق وجدانه غامضا حائرا لايكاد يتخذ له صيغة لفظية لو اراد ان يطرحه على انسان ممن حوله . ولو طرحه على احد ممن حوله لضحك من حوله وحسبوه مجنونا ، لذا فقد طوى جوانحه عليه مثلما طواها على اساه وحزنه على ابنه الوحيد . كلما جاش الفرات في فيضانه في الربيع احس مبروك بالمرارة تملأ نفسه وبهوان من يرى قاتل ابنه يخطر امامه متحديا فلا يستطيع ، عجزا وذلا ، ان يمد الى هذا القاتل المجرم يدا . ويردد الناس في احاديثهم اليومية ان الفرات سلطان فتأكل الثورة كبد الوالد المفجوع دون ان يستطيع تعقيبا او كلاما.
كان مبروك يترقب الموت ليتخلص به من وحدته وشيخوخته وعجزه ومن هذا الكمد الذي اضناه وانحله ، ولكن عمره طال ، طال اكثر مما يشتهي طال الى ان جاءت ذات يوم السيارات المثقلة تضع احمالها على التلعة التي تعلو قريته ورأى بعينه خياما تنصب ومساكن تقام ورجالا يلبسون سراويل الخاكي وقمصانا مشمرة الاكمام يقولون انهم جاءوا ليبنوا في هذا المكان بين المرتفعين اللذين يحجزان فراش الفرات ، سدا جبارا على نهر الفرات ... حينئذ اغتبط مبروك بأن حياته قد طالت الى اكثر مما كان يشتهي واسلم نفسه الى رقدة الموت ، حين جاءت ، راضيا هانئا .

مات مبروك بعد نحو من ثلاثة شهور من بدء الاعمال في مشروع السد الجبار ، وفي الواحدة والثمانين من عمره . وحين اغمض عينيه كان الزورق السريع يشق صدر الفرات جارا وراءه المسابر المعلقة في اسلاك غائصة في النهر تسجل اعماقه وابعاد قاعه وسرعة التيارات وعنف الدوامات فيه . وكانت الالات الحافرة تخرق الارض في مكان ما من السفح الذي يعلو قرية مبروك في ثقب عميق يسكب المهندسون فيه الماء ليسجلوا مقدار امتصاص التربة للمياه في مختلف طبقاتها . وكان المعاونون ، حين اغمض مبروك عينيه في غفوة الموت ، يملأون صناديق مستطيلة من تربة انحاء متفرقة من ضفتي النهر ويختمون هذه الصناديق قبل ارسالها الى مخابر التحليل . وبالرغم من اغماض مبروك عينيه الاغماضة الاخيرة فان هذه الاعمال والمشاهد كانت تتراءى له كصور حلم سعيد ويدرك منها ان السد العتيد ، وان لم يكن قد قام بعد ، سيقوم حتما في هذا المكان . كان واثقا من هذا حتى لكأنه كان يراه في هذه اللحظة : سورا طويلا عريضا ترتطم وراءه امواج الفرات تريد منه الانفلات فلا تقدر على الانفلات ، بل تتكسر متحطمة على صخور السد التي كل واحدة منها في علو مئذنة البلدة وفي ضخامة المنازل التي يسكنها المهندسون . لم يعد الفرات سلطانا مطلقا بل اصبح خادما مطيعا عبدا للانسان الذي يقيمه او يقعده ، يحبسه او يطلقه بضغطة زر من اصبع واحد من هؤلاء الفتيان الصباح الوجوه ذوي السراويل الخاكي والاكمام المشمرة . على ذلك اغمض مبروك عينيه مبتسما وخرج من هذه الدنيا مغتبطا راضيا سعيدا ...

الرقة　　　　عبد السلام العجيلي

رعاة البقر !

بالرعب ، و « الويسكي » ، وظل الموت ينتفض الرجال
وتدق اجراس الصلاه
وتغص حانات الرعاه
هذا الذي نبذته وديان ، وآوته جبال
ماذا يريد ...؟ وتلتوي شفة ، ويرتجف السؤال
ماذا يريد .. ؟ جواده ، قيثاره ، لا يعرفان
« جوني » نداء مبهم
« جوني » الجريمة والدم
حقد ، بهيمي الصراخ ، وضحكة ، ومسدسان
قذفته « شيكاغو » الى الدنيا ، خرافة عنفوان
وجه نحاسي ، وشعر من نوافير اللهيب
مهمازه ، نجم نسمَّر
وسياطه ، شرر تفجر
اسطورة الغابات ، والصحراء والليل الرهيب
حلم العذارى ، والحكايا الدافئات ، على الدروب

✶✻✶

« جوني » رسول الزيف ، والفوضى ، وقرصان البحار
في ليل « طوكيو » عربدات
وقمامة ، وتشنجات
في ليل « باريز » مواخير ، واقبية ، وعار
وبليل « برلين » يقيء ، على الخرائب والدمار
في « كوريا » ينهد مرتعدا ، بدهليز الخنادق
نفس يلج به ، ممزق
وفم سقيم اللون ، ازرق
وانامل متصلبات ، فوق فولاذ البنادق
« جوني » رسول الزيف ، والفوضى ، واحلام المراهق
في سفح لبنان ، يلوِّح بالاساطيل الكبيره
دولاره ، صك الخيانه
وسفينه ، من الف حانه
« جوني » يسير ، الى الشعوب ، بظل رايات اجيره
وبكل ارض ، قصة عنه ، واخبار كثيره

✶✻✶

« جوني » رحيب المقلتين ، مجمَّع الشفتين ، اشقر
وبحضنه شيء معرى
زنجية ، تصطك ذعرا
جسد ، بلون الفحم ، تعطر لذة ، ويذوب سكَّر
وبقبة الابنوس ، كالبلور ، نهد قد تكور
يا زوجها ، بالغصن مشنوقا ، اله الارض ابيض

من أنت ؟.. انت الجرح أسود
والطوق ، والالم المشرد
ان شئت ، غن له الغرام ، بلافح اللمسات يغمض
او شئت ، عد للحقل مكدودا وقل للشمس : تنهض
و«لبيت ابيض» في جلال سياسة ، ووقار مجد
فيه الدهاقنة الكبار
والهمس ، والبيض الحرار
وخريطة الدنيا مصير ، تحت قبضة مستبد
في جرة القلم الكريم ، وفي الجنون ، وفي التحدي
لاصبح ، في ليل العبيد ، فشد طوقك ، وانس صبحك
اركع ، وقل للشمس تنهض
البيت ، يا زنجي ، ابيض
وعلى الحبال ، تأرجحت جثث ، وحقد البيض ، يضحك
من انت ..؟ عد للشمس ، للعرق الغزير ، ولف جرحك
والريح ..؟ حتى الريح تزأر ، والسماء ترد صوتك
فادخل الى القفص المروض
البيت ، يا زنجي ، ابيض
حبات زيتك ، للضياع ، فصب في القنديل زيتك
والكوخ مقبرة ، ترقَّب ، في ذهول الكوخ ، موتك

✶✻✶

بالرعب ، والويسكي ، وظل الموت ، ينتفض الرجال
وتدق اجراس الصلاه
وتغص حانات الرعاه
هذا الذي نبذته وديان ، وآوته جبال
ماذا يريد ..؟ وتلتوي شفة ، ويرتجف السؤال
خلف النوافذ ، اعين تترصد الدرب البعيده
تهتز اطياف الشجر
وتخور قطعان البقر
بالخوف ، والدم ، والصراخ ، تطل مأساة ، جديده
وتئن اعماق الظلام ، وتلهث الارض الشهيده
تتنزه الاشباح صارخة ، وترقص كل لعنه
ارض « الهنود » بلا هنود
مادت بقافلة العبيد
همجية الانسان ، عرّت كل فردوس ، وجنه
جبلت دماه ، مع التراب ، وجوعه الطاغي ، وجبنه

حمص — **عبد الباسط الصوفي**



يفترض في النظارة ، وقراء هذه المسرحية ان يكونوا قد اطلعوا على نشرات جيش التحرير الجزائري ، وكتابات الادباء الفرنسيين الانسانيين ، وكذلك بعض مشاهدات وذكريات المجندين الفرنسيين في الجزائر ... فيما يختص بالحرب الوحشية التي يشنها الاستعمار الفرنسي على الشعب العربي الجزائري ... ذلك ان خاو ذهن المتفرج والقاريء من بعض هذه المعلومات لا يمكنه من متابعة الحوادث الدرامائية في المسرحيــة ...

اشخاص المسرحية

شخصيات الفرنسيين

الكولونيل اندريه : قائد فرقة المظلات

الكابتن جوزيف : ضابط في فرقة المظلات

الملازم الثاني جاك : ضابط في قلم المخابرات

الاب جولي

السجان فرنسيس : نقيب في الجيش الفرنسي

ثلاثة من صف الضباط : روجيه ، ريمون ، بيير ،

ضباط ، صف ضباط ، جنود

شخصيات مختلفة من المعمِّرين .

الشخصيات العربية

ابن حمود : من ضباط جيش التحرير

عجابي : من الثوار

بوعلاق : من الخونة

* * *

[غرفة متوسطة ، في الصدر طاولة عليها بعض الكتب والمجلات والاوراق المبعثرة ، وسوط مجدول قصير ... خلف الطاولة مباشرة ، وراء مقعد الضابط نافذة مشبكة بقضبان حديدية ، تلوح من خلالها معالم المدينة البعيدة ، بضعة مقاعد موزعة في الغرفة ، الى اليمين عند زاوية المسرح باب حديدي يقود الى غرفة التعذيب .. وفي الزاوية اليمنى نفسها الى صدر المسرح باب يقود الى حجرات داخلية غير مستخدمة. يدخل القادمون من الخارج ، من اليمين ...]

الفصل الاول

المشهد الاول

[الكابتن جوزيف قاعد وراء الطاولة ، وقد اراح جانب وجهه على مرفقة الايمن المسند الى الطاولة ، مغمض العينين في سنة نوم مفاجئة.. يلوح للمتفرج ـ قبل ان يدقق النظر ـ كأنه مستغرق في القراءة ...

الغرفة تسبح في ضوء برتقالي غائم ، هو مزيج من طلائع نور الفجر الاول ، وضوء المصباح الكهربائي المتدلي من السقف والضوء المنبعث من المصباح العاكس الصغير فوق الطاولة ..

ترفع الستارة ، والغرفة على حالها ... ثم يفتح باب غرفة التعذيب الخشبي الغليظ في شبه زاوية على مهل ، ويمرق من خلاله السجان فرنسيس ... يندفع في وقت واحد الى الغرفة صرير الباب الثقيل ، وانات بشرية موجعة .. ريثما يتم للسجان رد الباب ، بنفس التمهل والحيطة ... السجان يلقي نظرة محاذرة نحو الضابط ... ويسير متأنيا الى منتصف الغرفة]

السجان فرنسيس ـ (في صوت خافت) .. سيدي الكابتن ....

(يرفع صوته عندما لا يتلقى جوابا) سيدي الكابتن [ينوس راس الكابتن على مرفقه قليلا ، ثم يعود الى وضعه الاول]

السجان ـ انت نائم يا سيدي الكابتن ... (يقف متحيرا لحظة ثم يهز كتفيه) ... اذا لم اكن واهما فان الرائي يحسبك مستغرقا في القراءة ... هناك فرق ـ بطبيعة الحال ـ .. ولكنك يا سيدي نائم تماما .. وهي (يغمز باحدى عينيه) .. وهي ايضا نائمة ... ولكنها تخرج انات لطيفة ، قصيرة .. من ..؟ او تسألني سيدي الكابتن من.. الضفدعة ... لقد علقتها وهي مكتفة الذراعين والساقين في السقف ، وغمرت قفاها بالماء ، ولكنها لم تتأوه كفاية ، وعند ذلك .. (يتردد) .. اواه يا عزيزتي ماري .. اواه من هذا النعاس الثقيل ... يختلط كل شيء هنا في صدغي .. ولكن النجمتين المعلقتين في محجري ، ساهرتان .. (يلتفت) .. يا سيدي الكابتن ، .. اواه .. هو الفجر .. ساعة الصحو للاخرين ، الم تبلغ الخامسة بعد ؟ واذن ، كل حي سوف يستيقظ في القرية ، ويهرع الى الحقول .. النعاس ، انه يتلقفني يا صديقاتي ... هل ترى يغشى الناس في فرنسا هذا النعاس الثقيل الاسر ؟..

[يروح ويجيء في الغرفة ، متبرما ، ملوحا بذراعيه

السجان ـ ... يا للطش ، يا لهؤلاء الاوغاد الذين يفضلون السجن والتعذيب ، على هجعة الليل ، كيف يقدر لي اذن النوم ، وهم على مثل حالهم من الجنون ، أية صنعة ؟ ... عندما يموت الانسان يصبح منفرا، وتنتهي لحظات الرعب سريعا ، سريعا جدا ، اوه ، ان منظر الموت ليس على هذه الدرجة من البشاعة ، الميت لا ينظر اليك بعينين مدهوشتين مرتعبتين .. [يصحو الكابتن فجأة ، ولكنه يظل على حالته ، متأملا بعينين مسهدتين حركات السجان] الميت ، لماذا المقارنة .؟؟ لماذا ، والاف العيون المختلطة ، الممزوجة الوانها واصباغها .. تطاردني في ثواني الليل ... والتوجعات والانات المضغوطة في صدور اصحابها ... ولكن الموت يلقي ظلا من السلام على الوجه ، وتغلق العينان ... وقد تبردان كقطعتي زجاج ... أو .. وه.. يا صديقتي ماري ، يا كل صديقاتي ..

الكابتن جوزيف ـ بماذا تفكر يا فرنسيس ؟

السجان ـ (وقد فوجيء) نعم سيدي الكابتن ؟

الكابتن جوزيف ـ هيا ، بماذا تفكر ؟

السجان ـ عفوا يا سيدي .. لقد اختلط علي الامر .. ان هذه الساعة من الليل شديدة الروع .. انها تسحر العيون المسهدة ..

الكابتن جوزيف (ينحني خلف الطاولة ويصب لنفسه قدحا من القهوة) ماذا في هذه الساعة ؟

السجان ـ (متهربا) لم يتكلم يا سيدي الكابتن ، لم يتكلم ...

الكابتن ـ هذه الساعة يا فرنسيس .. هيا .. لقد تعبت اشدالتعب يا صديقي .

السجان ـ قسما بدم المسيح .. اني اقاوم .. ولكنها لم تتكلم ..

الكابتن ـ من هي يا فرنسيس ..؟

السجان ـ (يشير بذراعه الى غرفة التعذيب)

الكابتن ـ هل حقنتها بالماء ؟

الكابتن ـ نعم يا سيدي .. وقد غمرت قفاها فوق ذلك ..

الكابتن ـ انتظر .. لماذا تقول هي ؟

السجان ـ يا سيدي ... ماذا اقول اذن ؟

الكابتن ـ ماذا تقول ؟ اعتقد ان الساعة شديدة الروع حقا .

السجان ـ اني اقاوم يا سيدي الكابتن ... ولكن هل تسمح لي ؟.

الكابتن ـ لا ريب يا فرنسيس .. ألم ترافقني عبر اللحظات الدقيقة المذهلة ذاتها ؟ ألم نستخدم نفس السوط ، والالة .. ألم نكن معا في اكثر ساعاتنا امتلاء وحيوية ؟؟ انك صديقي يا فرنسيس ، لا يخامرك شك في ذلك ، هيا ... امسح عن عينيك غبرة النوم ولنتحدث ...

فرنسيس ـ ليتني انسى يا سيدي الكابتن ..

الكابتن ـ كيف يا صديقي ؟ كيف ؟

فرنسيس ـ انها تطاردني يا سيدي الكابتن ، انها مرسومة امام عيني المفتوحتين ، المشدودتين ابدا الى اقصاهما .. لست ادري شيئا ما يا سيدي الكابتن ، ولكن ارادة اقوى مني ، تفتح عيني وتجعلهما تسبحان في بحيرة الذعر ...

الكابتن ـ ماذا ؟..

فرنسيس ـ دعني اوضح لك يا سيدي !

الكابتن ـ انتظر يا فرنسيس ... هل تراك اصبحت ترى رؤى ...

فرنسيس ـ اي رؤى يا سيدي ؟ اني ملاحق .. الشيطان نفسه لا يستطيع ان يبرئني ...

الكابتن ـ وقد اصبحت مجدفا ايضا ؟ لماذا الشيطان ؟

فرنسيس ـ انتظر يا سيدي ، ارجوك ... أليس الشيطان هو الذي يحرك يدي ؟؟ ان ارادتي مقهورة ، مندحرة ، ولكن يدي تتلقيان الاوامر ، فتشرعان بالعمل ... ويوقفهما الامر الخارجي ايضا .. كلا يا سيدي الكابتن اني لا احس اشفاقا نحو هؤلاء المتمردين القذرين ، انهم يطعنون سلامة فرنسا ، أليس كذلك ؟

الكابتن ـ بلى يا صديقي ...

فرنسيس ـ واذن ، فاني لا احس اشفاقا نحوهم ... دعهم يثورون .. ان الاتنا قادرة على ان تحمل اليهم الخرس ! اووه .. الخرس ، ولكنهم لا يعيون عن الكلام هنا فحسب يا سيدي الكابتن .. انهم يضربون مواقعنا دائما .. ولكننا سننتصر ... اتشك في ذلك يا سيدي ؟

الكابتن ـ ولماذا اشك ؟ انك ترى النتائج بنفسك !

فرنسيس ـ نعم يا سيدي .. نعم ... ولكن ماذا أريد ان اقول ؟ الشيطان، انتظر يا سيدي الكابتن ، انه هو الذي يصلب عيني ، ويسمرهما على رؤى الذعر ، مرة يا سيدي الكابتن ، مرة واحدة قدر لي ان اخطيء ، كان ذلك فظيعا ، فظيعا جدا ... (يدور بعينيه محيرا في الغرفة)

الكابتن ـ (يصب له فنجانا من القهوة) تجرع هذا يا فرنسيس ... انه يساعدك ...

فرنسيس (يرفض الفنجان) اتظن ذلك ؟ كلا ، ان الخمرة اقوى تأثيرا ولكنها تنشط خيالاتي ، كأنما تضربها بسوط خفي ، فتروح ترقص ، وتترنح ، وتتمدد حتى تنتشر في كل جانب .. على الجدران ، وفي سقف الغرفة ، وفي ارضها ...

الكابتن ـ (معاتبا) انك محظوظ يا فرنسيس ... اوليس جميلا ان تؤنس الخيالات وحدة الرجل على هذه الارض الملعونة ؟ قسما انك لمحظوظ يا فرنسيس !

فرنسيس ـ اني متوحد دائما يا سيدي ، ومع ذلك افضل الموت على انسها ...

الكابتن ـ هيا .. لننس الموضوع يا صديقي ! سوف ينتهي كل شيء وشيكا ، قل لي ما رأيك في اجازة تقضيها هناك ؟..

فرنسيس ـ اين يا سيدي؟

الكابتن ـ اين ؟ اتراك لا تفكر في فرنسا ؟

فرنسيس ـ (مرتاعا) ـ تريد ان احمل معي هذي الرؤى الى هناك؟!. سوف اقضي رعبا يا سيدي ... كلا ! ارجوك ، اني مشدود الى هذه الارض ، ارض الرعب ، اني لا اطيق فراقها لحظة يا سيدي ! صدقني، ارجوك ... ان بي ميلا آسرا الى ان اغرز نظراتي ، الى ان ادفنها في اعماق العيون المستفهمة ، المملوءة حتى حوافيها رعبا ... انها سراب البحيرات يا سيدي الكابتن ! هنا .. هنا فقط اجد نفسي كما انا .. هنا فقط أبحث عن خلاصي من هذا الاسر.. اني مشدود من كل اطرافي، مقضي علي ان اجوس في داخل هذه البلورات المحززة المنقطة ..

الكابتن ـ الا ترى يا فرنسيس اني لا اقاطعك ؟..

فرنسيس ـ حسنا ... حسنا جدا ... شعرت فجاة ان سلكين من النار ، كلا .. بل من الحديد المحمى النوراني يفرزان في صدري ، كانا خارجين من اعماق عينيه الحلوتين الاخاذتين ، هل تعرف يا سيدي الكابتن .. ان الذعر يكسب عيون العرب جمالا رائعا ، اسطوريا ؟ تصبح العينان قطعتين من الفحم المتألق ، المصقول ، الشفاف ، انهما ساحرتان

يا سيدي ، صافيتان ، مجلوتان ، غارقتان ايضا في بساط من الثلج ..
وماذا ترى يفعل بهما الذعر؟ ان مثل هذه الاشياء لا يمكن التعبير عنها ، كلا يا سيدي الكابتن ، انهما تعتبان عليك ، تقولان : لماذا ؟.. اواه ، اواه (يغطي وجهه بكفيه ، وهو يختلج)

الكابتن ـ (ينهض بتثاقل ويمشي صوب السجان ، فيربت على كتفه مشجعا) لم يكونا اكثر من عينين عاديتين يا صديقي ! انك تتخيل اشياء كثيرة ، دعني اوضح لك ، لقد تطلعت فيها اكثر من مرة ، كلا ، ليستا باكثر من عيني حيوان جريح ، ومع ذلك ترانا نسلخ جلود الحيوانات بعد ان نذبحها .

فرنسيس ـ (يخرج صوته المختلج من خلال كفه) ماذا تعتبان علي يا سيدي ؟ لماذا تسألانني دائما ، لماذا ؟ لماذا ؟

الكابتن ـ دعهما تتخلصان من هذا التساؤل فورا ...

فرنسيس ـ كيف يا سيدي ؟

الكابتن ـ اجعلهما تنفضان دفعة واحدة كل هذا الرعب ، دعهما تموتان ، دعهما تبردان فورا ..

فرنسيس ـ لقد فعلت يا سيدي ... لقد قتلته في غمرة الرعب...

الكابتن ـ وماذا بعد ؟

فرنسيس ـ انهما لا تمحيان ابدا ، من هنا .. من نقطة ثابتة غائرة في صدغي !

الكابتن ـ ولكن ... سوف تجعلني اغضب ... الم يمت ؟

فرنسيس ـ (يتمالك نفسه) عفوا يا سيدي ! لقد فعل فورا ...
(يمضي الى مقعد في ظل من الغرفة ويتهالك عليه)

[ضوء الفجر البرتقالي يغمر الغرفة ، خلال الحديث ، حتى تبهت اضواء الكهرباء ، وتصبح متعبة للنظر ، يتناهى من الخارج اصوات وصدى حركات مختلطة ، وبينما يأخذ الكابتن في التمطي ، وتدليك عضلات رجليه ، تقترب الاصوات حتى تبلغ اعتاب الغرفة]

الكابتن ـ لقد عادوا ! ان الكولونيل على رأس الحملة بنفسه ، اني لاعجب لماذا هو غاضب الى هذا الحد .. هيا يا فرنسيس ! امسح عن عينيك غبرة النوم ، فقد بدأ النهار ...

فرنسيس ـ (في صوت غائر) انهما ممسوحتان يا سيدي ، هذا هو بلسم النهار ، هل تريد ان نبدأ ؟

الكابتن ـ بل انتظر ، احسكأن كوما جديدا في طريقه الينا ... (يذهب الى النافذة ، ويرتفع على رؤوس اصابعه) نعم ، هناك بعض الحرس ، بعض الثوار ، بعض الجنود ، ولكن اين هو الكولونيل (يفتح الباب الخارجي في تلك اللحظة ، ويندفع من خلاله الكولونيل يتبعه بعض الضباط والجنود والاسرى)

الكولونيل ـ اسعدت صباحا (لفرنسيس) فرنسيس ادخل هؤلاء (يدور خلف الطاولة ، ويرتمي في اعياء على المقعد) لا حاجة لي بكم اذهبوا جميعا ... جميعا ...

(يخرج الجميع ، ويظل ضابط برتبة ملازم ثان واقفا عند العتبة)

الكولونيل ـ حسنا ايها الملازم ، انكم تلاحقونني انا لماذا ؟ أثأروا لانفسكم ، دونكم المدن والقرى ، دونكم هذه المخلوقات التي تدب في كل مكان دونما جدوى ، افعلوا شيئا ! شيئا خارقا ، فلا تصدى نفوسكم ... ادري ، ادري، فقد اوقعتم هذه المرة ..

الملازم ـ سيدي الكولونيل ، (ينكس برأسه)

الكولونيل ـ لماذا ؟ هل تعرف لماذا ؟

الملازم ـ كيف يقدر لي يا سيدي ؟

الكولونيل ـ لان عيونكم لا تبصر جيدا ، لانكم تساقون سوقا ، لانكم تصدقون ما تهمس به ضمائركم خلسة .. قل لي ! اليس من واجبكم ان تتلفوا هذه الثورة ، ان تقتلعوا جذورها ، ان تحذفوا ـ من اجل فرنسا ـ وصمة العار ..

الملازم ـ يا سيدي ...

الكولونيل ـ مهلا ، لقد تبعتكم خطوة خطوة ، وانتم في تخيلكم المزري ، ماذا ابقيتم لفرنسا بعد خذلانها ؟ في الهند الصينية ، في سورية ، في مراكش ، في تونس ؟ ماذا ابقيتم لها وانتم تتراجعون ؟..

الملازم ـ يا سيدي الكولونيل ، ان حربنا ..

الكولونيل ـ (يخبط الطاولة) كلا لم تكن هذه حربنا ... نحن هنا مقابل العار تماما ... لقد هزمنا في اوروبا في مواجهة رجال حقيقيين، للدفاع عن قضية حقيقية ولستم ملزمين بتبريرها ، ولكن هذا العبث الضائع هنا ، هذا الموت الثقيل الكثيف ، قل لي اي شيطان يجعلكم تترددون مقابل الوهم ؟ الفاظ .. الفاظ براقة ، مجرد الفاظ ...
(يقفز من وراء الطاولة ويمد اصبعه في مواجهته ، محتدا مرتجفا من الغضب) لماذا لا تعترف ؟ ماذا يدور في خلدكم ... « ان هذه الحرب زائفة ، اننا هنا نضطر لاسكات هذا الصوت النير المنبثق من اعماق تجربتنا ، اننا نحارب ، كيما نبعد عن انفسنا رجفة الذهول والدهشة، اننا نقتل قتلا بدل ان نحارب » اليس كذلك ؟.. لقد سمعتكم تفرقون بين الحرب والقتل ، ايكفي ان تقف مسمرا متطلعا في بعينين مخادعتين ، لماذا لا تؤجلون مناقشاتكم الى حين العودة ، وهناك فقط يستطيع واحدكم ان يختال في بزته العسكرية ، مزهوا بتخلصه من الاثم ببراءته ، انتصروا اولا ، ثم لتفتحوا دونما خشية كل هذه الطاقات الصبيانية في داخلكم ، انتصروا اولا ، ثم ناقشوا فيما بعد حقيقة هذا النصر .... (يلتفت الى الكابتن جوزيف) جوزيف ، الا ترى اليهم كيف ينهارون ؟.. (يهم الكابتن بالرد ، فيوقفه باشارة من اصبعه) اوه ... كفى سخرية ! تعلم انه عبث ...

الكابتن جوزيف ـ ان اي شيء هو عبث يا سيدي ...

الكولونيل ـ (يلوح بذراعه يائسا) ادري .. ادري ... (للملازم) الم تكتشف بعد طريقة تذيب فيها الجمر من الغضب ؟ اتريد ان اذكرك؟

الملازم ـ اعلم يا سيدي ... اتذكرني بالتخريب في التلاغمة ، عين مليلة ، عين سماره ... ناحية عنابة .. التسلية برش الرصاص في الاحياء الحقيرة ، دفن الاسرى وهم أحياء ؟

الكولونيل ـ لماذا اذن .. وانت تعلم ... (في نغمة ساخرة) كل هذه التجارب ؟..

الملازم ـ اردت ان ...

الكولونيل ـ (في صوت متعب) ليكن .. كما تشاء .. واحدة منها.. اختر واحدة ... (يتثاءب ، ويشير بيده الى الملازم)

الملازم ـ سوف افعل يا سيدي ، يقينا ... (يدور في مكانه ويخرج من باب الانطلاق الى اليمين)

(الكولونيل ـ الكابتن جوزيف)

الكولونيل ـ (يأخذ مقعدا موليا ظهره النظارة ، في مواجهة النافذة) جوزيف ! لقد كنت دائما فظا ... (يرفع يده ليمنعه من الرد) اني اعني، على جنودنا الفتيان ، هؤلاء الجنود ، القادمين من فرنسا ... برؤوسهم الصغيرة المحشوة بالوهم .. انهم يصدقون ـ في هذا العصر فقط ـ ان

في وسع الانسان ان يكون سيدا مستبدا بالاخرين وملتزما جانب الشرف، ومع ذلك فان دماءهم النشيطة الحارة التي تلهب اذهانهم ... تنفجر ينابيعها من صلب هذه الارض ... انهم يعيشون بدم الغير ، انهم يأكلون الحصاد المجموع حبة حبة من هنا .. من هنا يا كابتن ...

الكابتن ـ يا سيدي الكولونيل ، اسمح لي مرة ثانية ان اقول ان الفتيان يتخرجون رجالا اشداء من مدرستك فحسب ، لقد كنت غريرا مثلهم ، ولكن صبرك وبسالتك دفعاني دفعا الى ان اعيد تقييم الاشياء في رأسي ..

الكولونيل ـ (ينقر الارض بطرف حذائه) مدرستي ، نعم ، ولكن فرنسا تنهار .. انهم يبعثون الينا بالمتطفلين ، بتلامذة الفلسفة ، ان اردينهم مقلوبة مائلة اللون ، الم ترهم كيف يمشون في بزاتهم العسكرية كأنهم مثقلون بالخزي ؟

الكابتن ـ ولكنك سرعان ما تعجم عودهم !

الكولونيل ـ اسمع الى خبط حذائي الرتيب (يتابع خبط الارض بقدمه) ان الثوار يعتمدون على هذه النغمة المكررة ، الصابرة يدقون بها فوق رؤوسنا . اتحسبهم يمتازون بالبسالة ؟.. كلا يا كابتن ! انهم يدركون فوق ما ندرك قوتنا الجاهزة الراجحة .. ولكن المضغوطة بالزمن .. ان بسالتنا موقوتة وكذلك صبرنا وجلدنا على المحنة ، الم تدرك بعد يا كابتن اننا نهزم كل يوم برغم انتصاراتنا ؟ كلما عاشت الثورة دقيقة ، فقدنا نحن عاما ... انها تكتسب مع الدقائق الايمان والجلد وتتطاول فوق سطح المستقبل ، انها تعيش على حساب قسوتنا واجزاء انتصاراتنا، يجب ان يسحق الحق دفعة واحدة ، انك اذا كسرت مرآة جزءا جزءا ، فسوف تظل بقاياها السليمة ، تعكس الخيالات والشخوص كما هي ، هشمها يا كابتن ! هشمها مرة واحدة (يتردد لحظات ثم يحدق الى الكابتن) اتريد ان نجري تجربة صغيرة يا كابتن ؟ ادع فرنسيس !

الكابتن ـ (يمضي الى باب غرفة التعذيب ويقرعه ، مناديا فرنسيس ـ يخرج هذا على الفور)

الكولونيل ـ فرنسيس .. اخرج واحدا من الوطنيين .. ثم دعه يفضي الينا بشيء.!

السجان ـ ماذا يا سيدي الكولونيل ؟

الكولونيل ـ اي شيء .. امامي .. هنا ...

السجان ـ (متلبثا في مكانه) اي واحد يا سيدي ؟

الكولونيل ـ اي واحد ، افتح الباب ودع اقربهم اليك يأتي هنا .

السجان ـ (ينفذ الامر بآلية ، يسوق امامه الى منتصف الغرفة ، قرويا في ثياب رثة ، معتمر الرأس ، يقف هذا مرتبكا ، ضاما قبضيته في وضع تشنجي)

الكولونيل ـ اجعله يتكلم !

السجان ـ (يقف الى جانب ، ويهز القروي من ردن كمه) انت ، قل شيئا ...

القروي ـ (يلتفت ويتطلع الى فرنسيس بعينين مندهشتين ، دون ان يحير كلاما)

السجان (بآلية) اوه ... تحملق في هذا ـ (يشيح بوجهه)

الكولونيل ـ (يوالي نقر الارض بكعب حذائه)

الكابتن (مغضبا) ـ فرنسيس !

فرنسيس ـ نعم سيدي .. (منتبها) .. (للعربي) ايها الرجل ، تكلم شيئا هيا !..

القروي ـ (يدير نظراته المندهشة ، المحيرة في وجوه المحققين الثلاثة صامتا) ـ

فرنسيس ـ ما اسمك ؟

القروي ـ ...

فرنسيس ـ اسمك ... الا ترى ان حضرة الكولونيل يريد ان تقول له اسمك ؟

القروي ـ (يهز رأسه) اسمي .. عجابي..

فرنسيس ـ ماذا تعمل ؟

عجابي ـ كنت وراء المحراث ، ثم جاءوا بي الى هنا ...

الكابتن ـ انت وطني اذن ؟

عجابي ـ كنت وراء المحراث ..

الكابتن ـ الم تكن في محل اخر ؟ وراء البندقية مثلا ؟

عجابي ـ كنت وراء المحراث ..

الكابتن ـ اسمع يا عجابي ... انت لا شأن لك بالثوار .. كلنا يعلم ذلك .. الم تلاحظ داخل الغرفة هناك شيئا ؟ (يشير الى غرفة التعذيب)

عجابي ـ (يهز رأسه)

الكابتن ـ انك لم تكن وراء المحراث اذن ... لم تكن هناك دائما ... اليس كذلك ؟

عجابي ـ ...

الكابتن ـ تعلم يقينا يا عجابي .. اننا نستطيع ان نجعلك تتكلم .. لماذا لا تبدأ اذن فنعيدك الى .. الى ما وراء المحراث فورا ؟ (يغمز له بعينيه) ... ربما .. ربما جعلنا منك شيئا اخر ..

عجابي ـ (بلهجة قاطعة) لقد كنت وراء المحراث ..

الكابتن ـ (منفجرا) ايها الحيوان (يصفعه على وجهه) سوف تتذكر بعد قليل انك كنت في مكان اخر !!

الكولونيل ـ (يوالي نقر الارض بحذائه) ..

الكابتن ـ انزع عنه هذه الاطمار (يمضي الى الطاولة ، ويأتي بالسوط) انظر الى هذا الجلد في يدي ، سوف يداعب لحمك يا عجابي ، سوف يرسم عليه خطوطا زرقاء محمرة قليلا ، لن تتحدث اذن ... سوف يوجه اليك الجلد سؤالا كل ثلاثة خطوط ، هيا .. اتريد ان نبدأ ؟.

عجابي ـ (يطبق فمه بشدة حتى تبرز عظام فكيه ، ويخفض نظره الى الارض)

الكابتن ـ انظر يا سيدي ، كيف يستعد للضرب ! انظر الى فكيه المتصلبين ، ومع ذلك سوف يرتخيان قليلا يا عجابي، ولدينا يا صديقي وسائل اخرى .. هيا (يشرع في ضرب الرجل على وجهه وصدره وذراعيه وظهره ، موقعا كل ثلاث لسعات متوالية) اما زلت وراء المحراث يا عجابي ؟ ... وراء المحراث يا عجابي ؟

عجابي ـ (يتجمع حول نفسه ، متكورا ، ثم يصالب ذراعيه ، ويرفع رأسه الى اعلى ، وقسمات وجهه تنتفض في تقلصات متوافقة مع كل لسعة)

الكابتن ـ (يهتاج ، فيسارع الضرب) تكلم يا عجابي ، ايها الصديق.. ان لحمك يهترىء تحت لذعة الجلد ، لقد حفرنا خطوطا مقلمة على ظهرك وجنبك .. وسوف نصالبها الان ، دورة اخرى ، دورة اخرى ايها الصديق .. (ينهار القروي فجأة بكل جسمه على الارض ، مثل عمود هدم من قاعدته) ارفعه يا فرنسيس هيا ! بل جره من ثيابه التحتية . هكذا ، اسرع يا فرنسيس ! اسرع يا فرنسيس (يأكل الضابط سعار وحشي من القسوة فيروح يضرب الارض بقدمه ويوقع بالسوط عليها).

فرنسيس ـ (يرفع الرجل العاري .. الذي تحجب جسم الكولونيل نصفه الادنى عن النظارة) .. هذا هو يا سيدي ، هذا هو !

الكابتن ـ اطلقه (ينهال بالضرب عليه ثانية) تماسك قليلا ايها الصديق، لقد ظل اجدادك مصلوبين وراء المحراث ، في لهب الشمس قرونا خلف قرون ، ارني قوة احتمالك يا عجابي ، لقد خلقت لتلعب هذا الدور ، ولكنك استبدلت المحراث بالبندقية ، انهم يعلمونك اشياء خطيرة يا عجابي! اشياء ليست في صالحك ! يقينا انهم يريدون ان يصنعوا منك رجلا ، رجلا سيدا ايها الصديق ! تجلد دورة اخرى ! هل تلذعك هذه الضربات ها.. ها.. ها.. انها تقرصك فحسب ! اسمك عجابي ! وبعد ذلك لا تعرف شيئا ... ماذا يجدينا ان نعرف اسمك يا عجابي ... انك رقم عادي.. مجرد رقم .. ولكن ما اصعب نطق اسمائكم !. نريد ان نتعرف عليك بشكل افضل يا عجابي ... نريد ان نخرج من تحت جلدك المحروق الملاط الشيطاني الذي رصفوه لك رصفا ، نريد ان نحررك يا عجابي من الاوهام ، انها تبهظ كتف فتياننا المثقفين ! فلماذا تريد ان تحذو حذوهم ايها الصديق ؟ (يلهث من التعب) لقد حمي الجلد . والان (يطلق صرخة وحشية غاضبة) هنا .. هنا .. هنا ..

يطلق القروي صرخة حيوانية موجعة ، مرتعبة ، وينقض بنصف جسده الاعلى الى امام ليحمي موضع الضرب الحساس على اعضائه التناسلية .. وتجمد الصرخة البشرية الوجيعة ذراع الضابط ، فيكف عن الضرب ، ويتلوى الرجل مرات ويدور في مكانه ، مختلجا ، معانيا افدح الالم ، ثم ينهار كله

الكولونيل ـ (يسارع نقرات كعبه على الارض ، ويدفع رأسه الى الخلف في حركة تنهد عميقة ، محبوسة ، ثم يعود الى وضعه الاول)

الكابتن ـ اطلقه ، اطلقه يا فرنسيس !

فرنسيس ـ (يهز الرجل عبثا ، ويهرع الى غرفة التعذيب ، فيأتي بدلو من الماء يصبه دفعة واحدة على رأس الضحية) لن يقف ثانية يا سيدي على قدميه ، لقد اوجعته ...

الكابتن ـ (محتدا ، مهتاجا) انه يقف .. محاولة ثانية ... هيا ... اطلقه !.

فرنسيس ـ (يحمل الرجل من تحت ابطيه ويرفعه في مواجهة الكابتن) لقد سقطت ساقاه يا سيدي ، انظر ، انهما رخوتان ، لينتان ... فف يا عجابي ! بحق المسيح لماذا لا تقف ؟ (يخضه وهو محمول على ذراعيه) كلا ...

عجابي ـ (يهز رأسه في محاولة يائسه الى الشمال والى اليمين لاستعادة وعيه ، ثم يثبت رأسه لحظة ، ويتطلع بعينين محمرتين ، زائغتين نحو الضابط ، ويردد في صوت واهن ميت) يا سيدي .. يا سيدي... اني اخجل من وقوفي عاريا امامكم ! ... (يسقط بكل ثقله الى الارض ، جارا معه السجان)

الكولونيل ـ كفى ! (في صوت بعيد ، هادىء جدا) اسحبه يا فرنسيس !.. (يجر السجان الرجل من ذراعيه ، وهو مستلق على ظهره الى غرفة التعذيب ، ثم يختفيان معا)

الكولونيل ـ (يلقي برأسه الى امام ، كمن يحاول النوم)... اتريد ايها الصديق جوزيف تجربة اخيرة ؟ ادخل الى هناك ... (يشير بذراعه الى غرفة التعذيب) ان الضجة تثيرني الان ، افعل ذلك في الداخل ... (ينقر الارض) ان رجلي تقرع الارض في رتابة مؤثرة ... اسمع ايها الصديق ! ان امامكم طريقين : اما ان تفرغ اعصابكم من شحناتها فتتحرك اذرعكم بفعل العادة ، واما ان تسقطوا في اليأس .!! كلمة اخرى ايها العزيز ... كلمة صغيرة اخرى ... انكم تمنون بالهزيمة .. ويلحق بكم العار ، لانكم تعذبون بطريقة بشرية .. هل انتبهت الى حركة ذراعك ايها الصديق ؟ لا تكرر ذلك مرة اخرى ، وتستمر على القول بانك تخرجت من مدرستي ؟؟ انكم لا تحسنون التعذيب .. انكم ـ دعني اصارحك انت بخاصة ايها العزيز جوزيف ـ انكم تعذبون بقلب مثقل بالخطيئة ، انكم تعذبون بقلب بشري (يلوح بذراعه في تثاقل) الان ، دعني اهدأ قليلا ... اني مثقل بالتعب كعلبة ملآنة (يسقط رأسه الى امام ويروح في اغفاءة)

الكابتن جوزيف ـ (يعض على شفته محنقا ... وتنقضي فترة وهو واقف في منتصف الغرفة صامتا محيرا ، فجأة يضرب رجله بالسوط ، ويدور على عقبيه ، متجها الى غرفة التعذيب ، ويسدل ستار المشهد الاول)

* * *

المشهد الثاني

[الحجرة نفسها ، الوقت عصرا ، روجيه ، ريمون ، بيير موزعون في اطراف الغرفة وقد حلوا ازرار ستراتهم تخلصا من وقدة الحر اللاهبة ، السجان قاعد على كرسي واطيء جنب غرفة التعذيب مستندا بظهره الى الجدار ، ناعس مهموم ، شبه نائم]

صف الضابط بيير ـ ماذا عنك ايها العزيز روجيه ؟

« « ريمون ـ دعه ... لقد ورد اخيرا بريد فرنسا ..

« « بيير ـ وماذا في ذلك ؟..

« « ريمون ـ ماذا ؟ يا للحماقة !... انظر قليلا سحنته المقلوبة القائمة .

صف الضابط بيير ـ ها انذا افعل ! انه يبدو لي طبيعيا ...

« « ريمون ـ اليك نظراته الموغلة في الفراغ ، المهمومة ، المتسائلة دائما عن السبب ، اين هو السبب يا روجيه ؟.. لماذا لا توجه سؤالك الى الكولونيل ؟ بل لماذا لا تجعله على شكل كتاب في صدر احدى صحفنا يتوجه عنوان شيق مبتكر على طريقة كتابنا الشباب ؟ كان

يكون هكذا ... « اين هو السبب يا كولونيل ؟ »

صف الضابط روجيه — انت لا تتساءل اذن ؟

ريمون — على العكس يا صديقي ... اليس لي رأس مركب فوق جذعي ؟ واذن علي ان اتساءل !

روجيه — انهم على الاقل — لا يطرحون عليك من فرنسا هذا السؤال !

بيير — ماذا تراهم يقولون يا روجيه ؟

روجيه — (ينظر اليه في حنق) لا شيء ، في الحقيقة لا شيء ... انكم تتسلون بمطاردة الموت ...

بيير — صدقني ايها العزيز ، اني لا اعلم .. لقد انقطعت عن كتابة الرسائل منذ زمن ، ساقص عليك الحادثة ...

روجيه — لا ، لا اريد ان اسمع ، انكما معا متحجران ... مفرغان من هذا القلق .. ماذا ترى يسميه الكولونيل .. هذا القلق السخيف ، الصبياني ؟ (مقلدا الكولونيل) انتم يا تلامذة الفلسفة ...

بيير — اسمع ايها العزيز ، كنت عائدا من غارة ..

روجيه — وما الفرق بين ان تكون عائدا من غارة او ذاهبا اليها ؟ صدقني القول !.. انكم تتحدثون عن هذه الاشياء المرعبة بسهولة ، الا تدركون شيئا ؟ انهذه السهولة ..

ريمون — (متطلعا صوبه في تحد) هذه السهولة ..

روجيه — (غاضبا) نعم .. انه يشبه حديث المائدة ، وحديث السهرة ، ولكنه لا يشبه في شيء حديث المغامرة ، هل تعلم الان الفرق ؟.

ريمون — كلا ...

روجيه — لماذا لا تعلم ، لماذا ؟

بيير — وما الفائدة منغضبكما ؟ ما الفائدة في ان تعلم الفرق ، او تنكره ؟

روجيه — لاني لا اطيق ان يجترح الانسان الاثم وينكره .. ان معرفته تربطنا بانفسنا ، تربطنا بهذا الجلد الادمي ..

ريمون — اني اجر جلدي ، وحدي (الى الحرب ، الى المتعة معا ... ولست راغبا بعد ان ادخل فيه ليقودني هو ...

روجيه — اي جلد ؟ لم يعد من شيء حقيقي ملكنا ، الا هذه ، الا هذه ..

ريمون — وماذا يهم . من هذه .. ارجوك الا تغضب !.

روجيه — (في يأس) هذه الحرب .. انها هي دائما .. هي التي تهبط كتفي .. التي اسمعها تتنقل عادية على شفاهكم ... التي تتناولونها مع الشراب ، وتحلمون من خلالها بالعودة ... انها هي التي تبرئكم في نظر انفسكم .. انها هي الحرب ذاتها ... حرب السجانين ، والجلادين .. الشيء الذي لا اسم له والذي تسمونه بالاف الاسماء.. الشيء الساحر الذي يأتيكم بالمجد والشرف .. هي نفسها التي تحشرنا داخل جلودنا ... وتفتح ابصارنا على الرعب .. انها الخطيئة والفضيلة .. انها بعبارة واحدة .. الضياع ... (يفك الازرار الباقية من سترته ، ثم ينهض مغضبا ويمسح العرق المتعقد على جبينه بباطن كفه) نعم ايها العزيز ريمون ، انه بريد فرنسا ، الذي يسقط علينا كانه آت من ارض اسطورية ، انظر كيف يفكر الناس هناك (يخرج من جيب سترته رسالة مطوية ، بفضها ويدور باصبعه على مقطع معين) هذا هو .. انظر كيف يفكرون هناك ! انها جانيت ... فقد كنا موشكين على الزواج عندما ورد الامر بسوقي .. لا يهم .. جانيت

بيير — (محاولا ان يسترضيه) اهدأ يا روجيه ، بحق المسيح !..

روجيه — ولماذا ، سيان؟ اتظنني مختلفا عن الاخرين ؟ ان هذه انتفاضتي الاخيرة لقد رأيت — دون ريب — حشرة مداسة مسحوقة ، مقلوبة على ظهرها ، تهز — قبل ان تيبس — ارجلها الصغيرة المتألمة في الفضاء، ماذا ترى يعلق بها ؟ انها تبحث عن مستند ، عن ارض ثابتة ، ولكن ارجلها ترقص دائما في الفضاء ، نعم .. نعم .. ان هذه الارض ذاتها ليست حقيقية ، اننا ندوس على سطح مائع الى غير ما درب ، ولهذا فاننا لن نصل ابدا الىمكان ما .. اننا مثل هذه الحشرة ...

بيير — (محذرا) ارجوك يا روجيه ، ان هذا شيء خطر ...

روجيه — خطر ..!! وفي صحبتكما ..

بيير — (يشير الى الحجرات الداخلية الى اليمين) ان احدا ما هنا دائما ...

روجيه — يقينا !.. انهم لا يرعبونني ، فقد فقدت احساسي بالارتياع..

ريمون — دعه ينفض هذا الذي في نفسه ... (ساخرا) ان هذا الحر اللعين يبرر حتى الخيانة ، بل حتى الجنون ...

روجيه — هل اقرأ لكم ؟

ريمون — حسنا ....

روجيه — (يقرأ من الرسالة) «انهم يتحدثون عن حربكم كأنها تجري في ارض غير بشرية ، يتحدثون ايها العزيز عن الرعب ، والوحشية ، والحيوانية ، والقتل ، والخراب ، ان كتابات الطليعة من شبابنا تدفعنا الى ان نحلم احلاما فظيعة ، غير انسانية انهم يثيرون غيظنا واكثر من ذلك ، حرصنا الهدد على ان نعيش حياتنا اليومية ، بكل فضائلها ... لقد بت اخشى تجربتك في الحرب اخشى ان تعود ممتلئا لا بالرغبة في .. وانما بالعجب مني، كيف تكون الارض التي تحاربون فيها غير بشرية اذن ؟ انكم تقاتلون ، ولكن الكتاب يصورون المسألة على خلاف ذلك انهم يقولون : تقتلون ، تسلخون جلود الرجال ... روجيه يا عزيزي ، لتفكر في دائما ، ان رسائلك تطفح بالغرابة ، والدهشة ، والتمزق ، ان كلماتها مرعبة ، بل هي جديدة علي ، كأن كلماتها منتقاة من معجم ... »

(يتوقف ، ويتطلع في حرقة الى صديقيه)

ريمون — (في مدة) معجم ..

روجيه — (يهز رأسه آسفا) نعم ، معجم .. هل رأيت مثل هذا ؟

بيير — لماذا بحق المسيح ، لماذا معجم اللغة ؟.. اتراك اصبحت مصابا بهذه اللعنة اخيرا ...

روجيه — انها تقول معجم اللغة ...

بيير — انت تقرأ بصورة سليمة اليس كذلك ؟

روجيه — ... باه .. باه ... ان الكلمات التي نستعملها غير مفهومة هناك ، منسية ، مهملة .. لا محل لها ..

بيير — ان فرنسا تبعد عنا .. تصبح بعيدة ، (منهولا) بعيدة ..

روجيه — وكالارض القفر ...

فرنسيس — (في استحياء) ... استميحك العذر يا سيدي . يخيل الي ان الشقة تتسع فيما بيننا هنا ، وبينهم.. اعني اننا نفترق ... نعم يا سيدي ، ان ماري خطيبتي تقول لي مثل هذا ... (يكرر العبارة) اتريد ان تشرح لي يا سيدي ؟.

روجيه — (لا يعيره انتباها) ولكن لماذا لا تقرآن هذا بنفسيكما ؟ (يمد لهما الرسالة) .. كلا .. ليس هناك من شيء يبعث في الخجل وحدي ، انها تعنيكما بنفس القدر ، انها تخاطبكما انتما الاثنين ، وهو والاخرين جميعا .. حتى العرب ...

ريمون — كلا .. لا اريد ...

بيير – (مترددا) حسنا ... ولماذا اريد انا بالذات ؟ كلا ، لقد قطعت ما بيني وبينهم .. كنت موشكا ان احدثك بمثل هذا ... والان ، انـي اكتفي ...

روجيه – هل تخجلان منها ؟ انها نفس الاسئلة التي تطرح هنا ..

بيير – اوه ... نعم .. ولكن الامر يختلف ..

روجيه – كيف بحق المسيح ؟ ان شيئا ما يدق في صدغي ، انكمـا مسؤولان عن التبرير ، انكما صديقاي الوحيدان هنا ..

بيير – اني اجر جلدي خلفي ، الم تقل كذلك يا ريمون ؟ نعم ، اني ارهقه ، اعذبه بالتعب والخمر ، والسهر ، والاغتصاب ايضا ، الا تعلم ان اغتصاب امرأة يؤذي الجسد بقدر ما يؤذي ... (يتوقف) مـاذا تسمون تلك ؟ ...

ريمون – (في اعياء)الروح ..

بيير – حسنا ... بقدر ما يؤذيها ، واني بسبب ذلك اجر جسدي الى النوم جرا ؟ وهكذا ..

روجيه – وهكذا ؟؟

بيير – (يلوح بذراعه) وهكذا ينتهي كل شيء..

روجيه – يوميا ؟!

بيير – (في يأس) يوميـا ...

[تمضي فترة صمت قصيرة]

ريمون – لنخرج من هنا ...

بيير – كيف ؟ سوف نرى ما يكلفوننا به ...

ريمون – الم ننتظر كفاية ؟..

بيير – اني مشوق الى ان اعلم السبب الذي حدا بهم لاختيارنا ، نحن بالذات ...

ريمون – اية مهمة ! اني اكره هذا المكان ... (يلتفت الى السجان) ايها الجندي .. ماذا تسمي هذه الغرفة ؟ (يشير الى غرفة التعذيب)

فرنسيس – (مفاجا) هذه ...

ريمون – هي ... هي نفسها ...

السجان – اوه ، لست ادري يا سيدي ... على وجه التحديد ..

ريمون – لماذا .. « على وجه التحديد » ؟

السجان – انها تسمى باشياء مختلفة ، وهم يذكرونها ايماء احيانا ...

ريمون – اتعني انه لا اسم لها ؟

السجان – (متخلصا) هو كذلك يا سيدي ... لا اسم لها ...

ريمون – ماذا يجري في الداخل اذن ؟ هل هي فارغة ؟ هل يعدونها لتصبح مكتبا ؟

السجان – (يغمز بعينيه) على العكس يا سيدي ، انها ملآنة حتـى الطفح ...

ريمون – ملآنـه

السجان – نعم ...

ريمون – بماذا ؟.

السجان – (يغمز بعينه ثانية) اشياء كثيرة يا سيدي ...

ريمون – لماذا تغمز لي بعينيك ؟ هل انت مصاب بالرعشة ؟

السجان – انا ... اوه .. كلا يا سيدي ، اريد ان اقول ان الالات هنـا ...

ريمون – (نافذ الصبر) هيا .. تكلم بسرعة ... اية الات ؟.

السجان – اتسخر مني يا سيدي ؟

ريمون – ولماذا بحق الشيطان ؟ لماذا تظن اني أسخر ؟

السجان – (محيرا) لانها معروفة تماما من قبل ضباطنا وجنودنـا ، بل ان رسمها الخارجي ينزل الهلع في قلوب العرب ، رسمها فحسب ..

ريمون – ان اشياء تجري هناك اذن ..

السجان – (مؤمنا) انه كذلك .. اشياء يا سيدي ...

ريمون – هل انت حارسها ؟

السجان – حارسها ... (مترددا) نعم ...

بيير – أيشركونك فيما يدور هناك ؟

السجان – (حزينا) .. ليتهم يشركوني فحسب ... اني طاف على سطحها ، اني عوامتها ، اني جرس الانذار ..

بيير – الست مشغوفا بمهنتك ؟

السجان – مشغوف ؟ .. لم لا ؟ اني مشغوف بها ..

بيير – ولكنك – كما الاحظ – تكاد تقضي ضجرا ...

السجان – (ينزعج لالحاح الضابط) انك جديد هنا يا سيدي ، سوف تدرك بنفسك اني لا شيء .. لا شيء تماما ، لقد نسيت كيف أحـدث الاخرين عن احوالي اني اغسلها يوميا ، وهكذا فهي موجودة وغيـر حقيقية في وقت واحد ... عندما يدق جرس الانذار ، تصوب عشرات الوجوه اعينها الفجة ، الجافة ، الى وجهي ، ثم الى يدي ، ان وجهي طري يا سيدي ، ما ذنبي ؟ اتظن ان ذلك خطئي ، جرس الانذار ، لقد التقطت اذني هذا النداء مرة ، مفاجاة من داخل الغرفة .. واذن ، فانا جرس الانذار ، عندما ادخل تدور الالات ، وتتوقف بخروجي .. ان وجهي طري تماما ، وهو يعكس برغمي – انفعالاتي – ... (يغمز بعينيه

ويشرع في التمثيل ، في حين يلاحقه الضباط الثلاثة بنظراتهم المؤنسة، المشجعة) كثيرا ما ازور مكانا ما في المدينة ... انتم تقدرون حاجة الرجل انكم شباب ، كالزهرات المنفتحة هذا الصباح بالذات ... ومن اجل ذلك تقدرون حاجات الرجل ... الا تحتاجون بدوركم الى الشمس ، والى الهواء ، والى الحرية ؟ واذن ، ان المرأة تعطيني الحرية ، هنا يختلف الامر ، لست ادري ربما كان الوضع نفسه في الحالتين ، لقد كانت تستعبد في هذه العاطفة ، ولكني اتحرر الان في حضن المرأة ، ولسوف تقدر ماري كل شيء وتغفر لي في النهاية ... ان ماري عطوفة، لقد خطبنا منذ سنتين ، وها انذا ملتصق هنا بهذه الارض التي تفح اسى ...

بيير ـ (مؤكدا) انها عطوفة ، دون ريب ... اليس كذلك يا ريمون ؟ قل له ، شجعه مرة ..

ريمون ـ عطوفة ، يقينا هي كذلك...

السجان ـ ارجوكما ... ارجوكما معا ، لاتسألاني شيئا ، ان الاسئلة تحرجني ، تدوخني تماما ...

بيير ـ لماذا تدوخك الاسئلة ايها الصديق ؟

السجان ـ الم اقل لك .. انك تعود الى نفس الموضوع ، كلا لاسئلة تعود الى النتيجة الواحدة ، كل الاسئلة تنتهي بهذه الكلمة ... لماذا ؟ سواء نظرات العيون المدهوشة ... والكلمات التي تنتقل بين الناس .. لماذا ؟ .. انها محيرة مكهربة ... كل شيء ينطق هنا .. بهذه الـ«لماذا» .. عندما ازور مكانا ما .. فتاة هي صديقتي في المدينة ، ادلف على مهل ، واتوسل اليها ان تكف عن مطاردتي .. ولكنها لا تطاردني... ان عينيها الحلوتين العسليتين تمتلئان بالحنان من اجلي ، من اجلي وحدي، فتحررني ، موقتا فقط ، وعندما نتمدد معا ، وتتشابك اذرعنا ، اعانق الرعب نفسه ، تعود الى ما بين يدي الالات .. وتأسرني ، اقول لها : دعيني امسك ذراعك يا صديقتي اللطيفة ، دعيني اتعلق بشيء ما فيك، ولكنها تجيبني .. انك تمسك بذراعي ..!! واتساءل يا سيدي ... هل هذه ذراعها حقيقة ؟ تخال لي باردة ، متحجرة ، ولكن طيعة ومألوفة ايضا ان هذه الحالات نادرة يا سيدتي.. ولكنها تطبع وجهي بالنفور ، والرغبة في الانفصال ، عن العالم ، وعنها ، وعن كل شيء ، ماذا افعل اذن ؟.. اتكون خطيئتي اذا لم يقدر لي غسله ، ان جرس الانذار يصبح في نظر المأسورين هنا ، ذا وقع مريع ، وكذلك يداي ، فهما مرتبطتان في صميمية مع الالات ... مشتبكتان معها ، صديقتان ، وهما ايضا ليستا صديقتين معي انا نفسي ...

روجيه ـ (كأن صوته خارج من حفرة) من فعل بك هذا ؟.. من فعل بك هذا ؟..

السجان ـ (يرتعد وهو يحكي وينظر الى يديه ، ويمسحهما على صدره وبين حين وآخر) ان تلك الصديقة الانيسة ، التي تنظر صوبي بحنان ، الحنان نادر يا سيدي ، انه يشبه النوم ، ان تلك الصديقة الحنونة تحررني ، فيما عدا ساعات الاشتباك ، انها تأخذني اليها ، تبتلعني تماما ، كما لو ان جسمي يغرق في الماء ، الماء يدخل فيه ، ويجعله ثقيلا ، ثقيلا جدا ، ولكنه فارغ مني ، انا نفسي ،

روجيه ـ (في عطف) تروح في النسيان ؟..

السجان ـ (بآلية) النسيان ... نعم ..

ريمون ـ وبعد ايها الصديق ، كل هذا بسببها ؟... (يشير الى غرفة التعذيب)

السجان ـ (بآلية) بسببها ، بسببها .. (ينتبه) ولكن من هي ياسيدي ؟...

(خلال الحديث تقترب اصوات من الخارج ، يشرع الرجال الثلاثة في الاستعداد ، يومىء ريمون الى السجان بان يلتزم الصمت .

فترة يدخل بعدها من يمين المسرح ، الملازم الثاني جاك ، وضابطان اخران برتبة ملازم ، وصف ضابط ، يدخلون في هرج وامارات الغبطة والانشراح تلوح على محياهم ، يسترعي الانتباه بشكل خاص الملازم جاك ، القصير ، البدين ، ذو الرأس الاصلع الا من شعيرات شائبة منسقة على جانبي رأسه ، يلوح نشيطا ، خفيفا ، مرحا ، قليلا مايواجه احدا بنظراته الجانبية الخبيثة ، التي ترسلها عيناه الضيقتان ، المتمعتان وبالجملة فان مظهره ينبىء عن مهمته بصدق وامانة ، موظف عتيق في قلم المخابرات ، يستدل بسرعة على ان الجمع قد تجرع قدرا طيبا من السكر ..

جاك ـ (وهم يدخلون ، ودون ان يوجه كلامه الى واحد بالذات) كنت قد حملت معك تذكارا ...

الضابط الاول ـ (ضاحكا ، غامزا بعينه) اي تذكار ؟

جاك ـ ولكن ..

الضابط الثاني ـ لقد انبأته ياسيدي بنص الامر ...

جاك ـ (متمهلا) لم يرتدع ، (يحيي الرجال الثلاثة)

الضابط الثالث ـ حتى انتن ياسيدي ...

جاك ـ من ... هو .. .

الضابط الاول ـ اوه ، التذكار طبعا ، انتن في جيبي ، ولكني اتساءل عما اذا كان في الوسع تحنيطه ؟

جاك ـ (صافقا بيديه) ... او تحنط اذنا بشرية ؟

الضابط الاول ـ (يقف ممثلا في منتصف الحجرة) ، اسمع ياسيدي لقد انحنيت فوقه حتى لامست شفتاي اذنه .

جاك ـ انها دعابة ، دعابة كما قلت ...

الضابط الاول ـ بل انتظر قليلا ، لقد انحنيت اذن ، وهمست من خلال اذنه ، « هل جربت مرة ايها الفتى ، ان تلتقط الاصوات الخارجية بدون اذن ، ... اعني من خلال الفتحة الدائرية فحسب ؟. » ثم اضفت.. هل تظنه كان مرتبكا ،... اوه ، ... كلا .. كان يحدق في السماء ويوسع ـ الى اقصى مايستطيع ـ فتحة عينيه ، محاولا التصامم ..

الضابط الثاني ـ هيا ، ماذا اضفت ، لماذا لاتقل ؟. .

الضابط الاول ـ صبرا ، صبرا، اني سكران قليلا ...

الضابط الثالث ـ لقد ابتلعت في جوفي قدرا معادلا ... قل ، ماذا اضفت ؟

الضابط الاول ـ صبرا .. دعني اوضح لك ...

الضابط الثاني ـ لاتصدقه ياسيدي اذن ، لقد اوقعت به ، كان ممسكا اذن الفتى وفي يده السكين ...

الضابط الثالث ـ وعند ذلك .. قطعها ..

الضابط الاول ـ لا يهم، لا يهم ذلك شيئا.كنت منحنيا فوقه،وقدهمست في مودة في قلب اذنه تماما .. « انك لم تجرب يوما سماع الاصوات الخارجية ، بدون هذا الصفق اللحمي ، هيا ، جرب مرة ، ستخال الاصوات حادة ، مصفرة ، واخزة نوعا ، ذلك انها لن ترتطم بشيء وهي في طريقها الى اذنك ، جرب مرة ايها ... وعند ذلك فقط ستسعى خلفي ، لانتزع لك اخرى » ...

الضابط الثالث ـ لم تقل كل هذا . .فقد استغرقت لحظة فقط ؟

الضابط الاول ـ وماذا يهم ؟ ها انذا اقوله الان !..

الضابط الثاني ـ ولماذا لايهم ؟

الضابط الاول ـ اي شيء ..؟

جاك ـ هيه ... اسمعوا الان ... لنر مايفعل هؤلاء الفتيان !

(يتقدم الضباط الثلاثة باسمائهم)

جاك ـ انت روجيه ... .

روجيه ـ نعم ياسيدي .. .

الضابط الاول ـ انظروا الى الفتى ، كم هو خجول ! (يدور خلفه)كل هذا اتيت به من فرنسا ؟ماطيب قلب هذه الام الرائعة التي تدلل ابناءها ! انظروا ، انظروا الى خديه الموردتين بدم الصحة ... انظروا الى الشباب ذاته متقمصا رجلا ، (الى جاك) هؤلاء فتيانك ياسيدي .. انهم مقرؤون ككتاب مفتوح ، نظراتهم البريئة ..

الضابط الثاني ـ طراوة افواههم التي ذاقت لذتين منعشتين معا ، الشراب والتقبيل ...

الضابط الثالث ـ استقامة اجسادهم المزدهية المعدة اعدادا خاصا للرقص .. ها ... ها ... ها ..

جاك ـ (صائحا) كفوا عن هذا ، اني آمركم ...

ريمون ـ (متقدما) اني احتج ياسيدي .. .

جاك ـ (في لهجة متعبة) اوه .. لاتكرر امامي هذه العبارة ، انهم فتيان صالحون (يشير الى رفاقه) انهم فرنسيون تماما ، ولكن (يغمز له بعينيه) ولكنك تدرك الموقف ...

ريمون ـ هذه الاهانة غير ..

جاك ـ (يلتفت في حركة مسرحية) لقد اقترفتم حماقة اخرى ، اذن الم انبهكم مرة اثر مرة ، اثر مرة ، بان تقلعوا عن خبثكم ؟ (يعود الى حالته الطبيعية الاولى) اذن . هنا .. لقد جعلتم من حصتي ؟

ريمون ـ (يهم بالاجابة فلا يمهله الملازم)

جاك ـ (يفرك كفيه) فوج جديد . (يرفع رأسه الى سقف الغرفة) ياالهي الن تمسك عني عطاياك ؟ (الى الفتيان) دعوني اتعرف اليكم تماما . ..اتجدون تعبا في الخدمة ؟

ريمون ـ اننا نؤدي واجبنا الوطني ياسيدي ...

بيير ـ في خدمة وطننا الام ...

جاك ـ ياللروعة ! ياللفخامة ! (الى رجاله) لقد كنتم تمجنون على غير حق ... هاهم اولاء هنا ايضا ، كما هو حالكم بسبب فرنسا ، (الى الفتيان ثانية) في الجبال ...

ريمون ـ نعم ....

جاك ـ (صارخا فجأة) نعم .. بكل بساطة .. .ولكني لست على يقين من ذلك ...؟؟ ان العائدين من الجبال لايسودون الرسائل ، لايحقنون قلب فرنسا بالغضب ، ان العائدين من الجبال يتملكهم شعور ما مختلف ، اتدري كيف هو ؟..

ريمون ـ لست ادري ياسيدي ...

جاك ـ صبرا ، صبرا ايها الصديق ، لماذا انت في عجلة ؟ (يلتفت الى رفاقه الضباط) أرأيتم الى هذا الغضب الذي يلهج به لسانه انه يائس من الحرب..

الضابط الاول ـ يائس من الحرب ...

الضابط الثاني ـ يائس ..

جاك ـ (صارخا ، غاضبا) كفى ... (يستعيد صوته رنته المتعبة) لست افهمكم ايها الاصدقاء لست افهمكم ابدا .. يزجون بكم في صميم هذا القتال الوحشي دون انذار ، دونما تحضير ، ان فرنسا الان حديقة ازهار وعرائش ، انها تنبت الزهور ، وتصدرها ، فرنسا البستاني ، (يلوح بذراعيه معا) اية مهزلة ، اية فاجعة ، ولكن الكروم هنا ايها الاصدقاء ، كروم الرجال الحقيقية ، المثقلة بالعناقيد ، الملوحة حباتها بشعاع الشمس .. .اية مهزلة !!

روجيه ـ (متقدما وفي نظراته تصميم مفاجيء) ياسيدي الملازم ، ارجو ان تاذن لي ..

جاك (يصفعه بنظرة مثقلة ، غضبى) لقد كتبت اشياء جميلة جدا ايها الصديق ، انها منقوشة على صفحة قلبي ..

روجيه ـ اني مسؤول عن كل كلمة ياسيدي ...

جاك ـ ايها الصديق . .اني اريد شجاعتك كلها .. ترى هل ابدها بسبب بعض الكلمات الطائشة ؟

روجيه ـ اني مقتنع بها .. .تماما .. .

جاك ـ ادري .. ادري .. تكاد هذه الكلمات تتلفني .. ولماذا ؟ اليس ذلك لانها مقنعة ؟

روجيه ـ اذا كنت تسخر ....

جاك ـ (يرفع يده في وجهه) اسخر ولماذا ؟ ان كلماتك حقيقية ، مخلصة ، مبرئة ... لقد فتنتني ... بل لنقل انها قلبت تفكيري ، كما لو انها محراث يشق ارضا مشققة السطح ، وينبش قلبها الطري ... ولكن كلمات صديقتك الطف وقعا ، خيل الي وانا اتصفحها مرة ، تلو مرة ، انها تقطف تعبيرات الاخرين ، كما يقطف بستاني حاذق ثماره الناضجة ... ولكن صديقتك الجميلة (يغمز بعينه) لقد كانت جميلة دون ريب في ذلك الثوب البحري ، واي ثوب !... يالفرنسا الرائعة ! (ترق لهجته المصطنعة) فرنسا اللطيفة ، ذات الايماءات الدقيقة المليحة فرنسا المفتونة باصطناع تعابير جديدة كلما شاع تعبير وابتذله السوقة ..

روجيه ـ اني لاافهم ياسيدي ، هذه الطريقة التي تتحدث بها عن خطيبتي ....

جاك ـ ايها اكثر ايلاما لك ؟ صديقتك ام فرنسا ؟

روجيه ـ ان فرنسا ملك لنا ، ملك للكل ، اما صديقتي ...

جاك ـ اتظن ذلك ... اتظن حقيقة ، اننا نملك فرنسا ؟.. واذا كنا كذلك ، فما هي حظوظنا منها ؟ ماهو نصيبك انت مثلا ؟

روجيه ـ اني مواطن مثلك تماما .

جاك ـ هـراء ؟!..

روجيه ـ ياسيدي ... .

جاك ـ (يتسمر في منتصف الغرفة) يا سيدي ، انتم ، انتم الثلاثة لتنسوا قليلا الان مواقفكم وتبريراتكم، لتنسوا ما تركتم من مباهج،لتفرغوا جعبكم من الحلوى المجانية ، انهم يطعموننا هنا العسل المر ، لقد كتبت عن القتل ، عن التخريب ، عن اتلاف النفس البشرية ، ان احدا يجب ان يكون مسؤولا عن هذه الحرب اللعينة ... تقول انها ازمة ضمير ؟ وقد تقول انه الله ! ماذا يهم ! ولكنك يجب ان تكف عن فضح اللعبة ، يجب ان تكف عن الكتابة، يمكنك هنا ان تقتل ، فذلك هو واجبك ... نعم .. لدينا عدة طرق للقتل ..ولكن هل يصبح القتل مع الشرف ذا طعم خاص ؟ يمكن لنا ان نتحدث ، ويمكن لنا ان نتجرع الخمر ، ويمكن لنا ان نقتل ، انه اتلافللنفس البشرية ، سواء في ذلك الحديث ، والخمر

والقتل ، هنا فقط ، هنا فقط ، ان فرنسا لن تستمر في اوربا اذا لم تنتصر هنا !

(فترة ، تنكس رؤوس الاصدقاء الثلاثة ، ويتحرك الملازم جاك كأنما يهم بالخروج ، ثم يتوقف)

جاك ـ لقد استدعيتم هنا ، لتواجهوا الحرب عارية ، انكم فرنسيون حقيقيون ، سوف تغمسون ايديكم في نفس الوعاء ، لتستشعروا لزوجة الحرب ، وتتنشقوا رائحة الدم الساخن ، اتنتظرون التحقيق او السجن؟ ان الخونة فقط يمنحون هذا الامتياز ، ان يعاملوا كاعداء ، اما انتم الثرثارين تلامذة الكتب المسمومة ، والمقالات العارية ، فاننا نضعكم امام الفاجعة ذاتها ، سوف تكتشفون السبب الذي يجعل جنودنا ، ملونين مغموسين بالخطيئة (يتردد لحظة ، ويجيل طرفه في وجوه الفتيان ، المتطلعة ، المكدرة)

اتريدون ما هو خلف التبرير ؟ ماهو وراء الشر ، والوحشية ، ماهو وراء التعذيب ؟... ما هو خلف الجدران البشرية الصامتة ، التي لاتشف عما في داخلها ، ماهو خلف هذا الخداع والتمويه ، والزيف ما هو خلف الشرف ، ما هي فرنسا الحقيقية الان ؟ عندما تلمسون بأيديكم الناعمة جسد الجبن في مقابل الشجاعة ، وقتها ندعوكم للاختيار ، فاما ان تمنحوا امتيازات الخونة واما .. واما ان تظلوا فرنسيين مع كل هذا العار ... (يمشي نحو الباب الخارجي ، يتبعه زملاؤه في حركة آلية ، يستدير فجاة وبحركة مسرحية) انتظروا .. منذ الساعة ... اوامري (يتنهد) لنمض الان اخيرا ..

يخرجون

ريمون ـ (يتحرك فجاة) واذن ؟

بيير ـ واذن ! (يلوح بذراعه) اننا مقذوفون هنا ، على سطح المجتلد .

روجيه ـ هم ، ونحن ، لننطلق ، ارجوكم ، اني اختنق هنا !

ريمون ـ (ساخرا) لننطلق في اولى اماسي عيشنا الجديد ...!

روجيه ـ (يثب فجاة صوب غرفة التعذيب . ويقرع الباب بكلتا يديه) هم ، ونحن ، هنا ، هنا ، هنا ، هنا في مواجهة العار ، في مواجهة فرنسا ...

السجان ـ (مجفلا) ماذا تفعل ؟ ياسيدي ، ياسيدي ، انك تؤذيهم .. سوف يصابون بالذعر ... هذه اوقات الراحة ... ياسيدي ...رجاء ..

روجيه ـ (يكف عن خبط الباب ، ويحملق صوب السجان) اوقات الراحة ؟.

السجان ـ (مؤكدا) ان هذا يزعجهم يا سيدي ، سوف يبدلون فورا مواقفهم ، في انتظار .. اووه ...

روجيه ـ (صارخا) ماذا ، ماذا ايها الغبي ؟

السجان (يمد ذراعيه) ... ان يدي موثقتان الان .. .اني اطفو ، ان خبطاتك تروعهم ...

روجيه ـ (في حالة تشبه الهذيان) منظمون ، اذن ، تماما !! ايها القتلة ، ايها السفاحون ،ايها الاغبياء ، هذه هي مرآتكم . هذه هي ..

(يجره صديقاه ـ فيستسلم دونما مقاومة ـ الى الخارج)

السجان ـ (وحيدا) دعوني اطمئنكم ... لم يكن ذلك الا خطأ ، خطأ فادحا ... (يقترب من باب غرفة التعذيب ويتسمع) .. عودوا الى جلدكم ثانية ايها الاعزاء ، ماذا في يدي انا .. (ينظر الى يديه ثم يخفيهما بسرعة خلف ظهره) لقد كان تصرفا خاطئا ، ان يخرجكم دونما عذر ، من اوكار راحتكم ، من تحت جلدكم المهمل ... (يهز رأسه في اسف) ... ان يسارع انفاسكم ... عودوا ثانية .. ماذا في يدي !؟.. (تتملكه حيرة هستيرية ، وهو يحاول ان يخفي يديه في غير ما مكان .. ويتلفت كالمأخوذ .. في حين يسدل ستار الفصل الاول)

* * *

الفصل الثاني

المشهد الاول

(الكابتن جوزف خلف الطاولة ، مسند الرأس الى الجدار ، ورجلاه محمولتان على المكتب ، الى اليمين يقف الملازم جاك ، وفي اقصى الزاوية صف الضابط روجيه ، باب غرفة التعذيب موارب ، تسمع بين الفينة والفينة ـ ما ظل الباب مفتوحا ـ انات المعذبين دون ان تطغي على الحوار ... الوقت نهارا)

جوزيف ـ واذن ايها الصديق ؟

جاك ـ (يمط شفتيه) ـ ينبغي لنا ان ننجز بعض التبديلات .

جوزيف ـ (متثائبا) ولماذا ؟

جاك ـ نعم ، لماذا ؟

جوزيف ـ (يلتفت برأسه جميعا دون ان يرفعه عن الجدار) الا تروق



لك ... كل هذه الالات ؟ (يضحك) اعني .. الم تعد الاصوات التي تطلقها تصدي في اذنيك كالعادة ؟

جاك ـ (يهز راسه) كلا ، انها تصدي في كفاية الم يكن ذلك تعبيري؟

جوزيف ـ (ضاحكا) بالضبط ..

جاك ـ (كأنما يهمس لنفسه) انه ظمأ قتال ، جاف ، انه ظمأ صحراوي.

جوزيف ـ لم اكد اسمع ...

جاك ـ نعم ، ونعم .. اريد ان اسألك ..

جوزيف ـ ماذا ؟

جاك ـ الى متى تطيق الاحتمال ؟

جوزيف ـ اي شيء هذا الاحتمال ؟

جاك ـ ساعات اخرى ، ام سنين ، حتى تشيب اعصابك ... لماذا لاتشيب الاعصاب ؟ انها تنسلخ فحسب (يومىء الى الغرفة) .. غالبا ما تجعلهم هذه الالات ينحصرون فوق شفاههم ... يدق كل شيء ويتناهى، تصطدم النفس في جدران الاوعية وتخرج الى الحاق، ولكن لماذا ينتهي الصراع فجأة ؟

جوزيف ـ اي صراع ؟

جاك ـ (في صوت خفيض) بين النفس ، والنطق ...

جوزيف ـ عندما لا يطيق الانسان بعد ان يستمر ...

جاك ـ واذن ، واذن اريد آلة اخرى جديدة ، انسانية فوق الظن (مؤكدا في تلهف مسعور) الة ، تفصل بين النفس والنطق ... ترجيء الاولى ، تردها الى ما تحت الحلق ، تمددها خلال الاوعية الداخلية المتشنجة ، وعندئذ ...

جوزيف ـ (متابعا في فضول) وعندئذ ..

جاك ـ وعندئذ ، يخرج النطق وحده !.

جوزيف ـ (ضاربا المكتب بعقب حذائه) اي شيء شيطاني هذا ؟..

جاك ـ وما الفرق بين ان يكون شيطانيا ، او انسانيا ؟ المهم هو ان نصنعها ...

جوزيف ـ (ينزل رجليه من على المكتب ويصالب ذراعيه في مواجهة الملازم) جاك !..

جاك ـ نعم ... نعم ..

جوزيف ـ اتدري ؟ اني لم اعد اتذوق هذه المتعة !

جاك ـ (متعبا) ارجوك ، ارجوك ان تكف .. هو .. (يومىء الى روجيه)

جوزيف ـ وما شانه ؟ لقد كسبناه ...

جاك ـ حقا ؟

(يلتفت جوزيف صوب روجيه ، ولكن هذا لا يحير قولا)

جاك ـ لم يعد يكتب ... لقد انقطعت المناقشات ، ولكنه لا يتحدث في شيء ، ولا يختلط مع الزملاء .. ايها العزيز روجيه ! ما رايك في اقتراحي الشيطاني (يصر على الكلمة الاخيرة في خبث) .

روجيه ـ (جامدا) انه ليس شيطانيا ...

جاك ـ آه ...

روجيه ـ في قاع العار ، ليس هناك من قياس ... لا فرق في اي شيء ...

جاك ـ قد غمستُ الان ...

روجيه ـ .. غمست ...

جاك ـ كفرنسي ..

روجيه ـ كفرنسي تماما !

جاك ـ (يصفق في حركة تظاهرية ساخرة) دونما خجل ؟

روجيه ـ دونما خجل...

جاك ـ حتى ...

روجيه ـ في (حدة) حتى لا استشعر الندم او الحياء ، او القرف .. لم يعد شيء معرضا للتلف .. انها عمليات صداقة .. اننا نعطف على العرب ، اننا ندللهم .. اتريد ان نستمع معا الى هذا النشيد الجماعي المتصاعد من عشرات الحناجر المتقلصة ؟ اتريد ان نبدأ بالماء ، او الكهرباء ، او الكي ، او القرص ، او ننتش الاجساد ... اتريد ان نستخدم المقصات او الكلاليب ، او البطاريات المتقطعة ، او التيار التليفوني، اتريد ... كلا ... كلا .. دعني . اتريد ان نشغل الالات ام نعيد من تجاربنا التحليلية الناعمة ... من هم ... ان الحيوانات لا تعرف النطق ، ولكن الله خصهم بالميزتين ، ان يكونوا حيوانات ، وان ينطقوا في الوقت نفسه ... (يرتجف من التأثر ولكنه يظل متماسكا ، ساكن التقاطيع)

جاك ـ (يمد اصبعه في وجهه ويريد ان يتكلم ، ثم يعدل فجأة ، وينزل يده)

جوزيف ـ .. هيا .. هيا .. لنر ماذا يجري هنا ، حقيقة (يصرخ)، فرنسيس !

فرنسيس ـ (من الداخل) على الفور يا سيدي .. (يدخل المسرح من غرفة التعذيب في صوت مبتهج) نعم يا سيدي ؟!

جوزيف ـ الم تستطع شيئا ؟

فرنسيس ـ صبرا ، صبرا ... ان دلو الماء مدلى في مواجهته تماما ان عينيه تحترقان ظمأ .. تحترقان ..

جوزيف ـ ماذا بعد ؟ .

فرنسيس ـ اننا لم نكد نبدأ يا سيدي ؟!

جوزيف ـ ادع بوعلاق ...

فرنسيس ـ اين ؟

جوزيف ـ اين ؟ .. في الخارج ايها الغبي !

(ينطلق فرنسيس)

جوزيف ـ لنر ما سوف يفيد هذا الوغد .. يخيل الي انه يخدعنا ..

جاك ـ (في صرامة) كلا ...

جوزيف ـ الم تلحظ حركة اصبعه جنب فمه ...

جاك ـ وماذا تعني ؟...

جوزيف ـ وما يدريني ؟ ... ولكنه يفكر ويلعب باصبعه قبل ان يشرع في الادلاء بشيء !!

روجيه ـ يريد ان يتمالك يا سيدي .. ان افشاء السر يتطلب في كل مرة شجاعة جديدة ...

جوزيف ـ نعم ، نعم .. ولكني لست على يقين من صدق اسراره .

جاك ـ (محتدا) قلت كلا .

جوزيف ـ حسنا ... فهو في خدمتك انت .. ولكن [يدخل في اللحظة فرنسيس ومن ورائه بوعلاق .. وطني في رداء شعبي ، يحيي الضباط في حركات مستحيية]

جاك ـ بوعلاق ...

بوعلاق ـ (يتقدم)

جاك ـ بوعلاق ... اتحسب انك مفشوش ؟

ـ التتمة على الصفحة ٤٥ ـ

بقية اللحن

اسم المغني حسن :
فتى نحيل شاحب قوامه ممطوط ..
لكن جذوة في عينه تحببه
تعرفه بأسرها كل قرى اسيوط ..
وكلما تطوف عندها ليالي الانس
يدعوه داعي القوم للطرب ..
وحين يشرب المساء حفنة الضياء
يرى فتى في شاله الموشى بالقصب
يخطو كنسمة المساء ..

••✶••

اتى حسن :
شهرين كان رهن الفرش والسقم ..
لكنه برغم ماعليه من هزال
جاء محبا وابتسم ...
وبعدما ابتدا وردد اللیال ،
ارتجل الموال عن فتى رقيق الحال
صياد غزلان يهيم في الجبال ..
ذات صباح جثا امامه غزال
ينزف منه جرحه السيال
فشق ثوبه وشد جرحه داواه
ونحو بيته دعاه
غذاه من حنانه سقاه ..
.. ويذكر الموال ،
ان الفتى الصياد صاده الغزال ..
.. كان الربيع مشرفا على الحياه
فجن في هـــواه..!

••✶••

قال حسن :
تعاهدا على الكمال ،
تساقيا كأس الوداد والوصال ..
ماأجمل الوفاء لو يدوم ..!!
كان المغني يستوي على المجال
بنبرة تثير صبوة الخيال
وتفتح الكوى على الخدور ..
.. قال : ومر حول بعد حول
قال : ودارت الايام والليال ..
وفجأة سكت
كأن روحه في صوته انتهت !
عادت اليه علته
فلم يفه بغير كلمة اعتذار
قد طيَّر الكرى وطار ...

••✶••

بقية الموال
رددها لنفسه الفتى النحيل
وهو يميت في كفيه وردة حمراء
القت بها عذراء من شباكها عليه ...
خان حبيبه الغزال ،
مشى وراء عاشق اغراه بالال
زف اليه من شهرين ..

••✶••

المبتلون يحملون سرهم ياليل
ويسهرون وحدهم ياليل
فارفق بهم ياليل !!

القاهرة

كامل ايوب

رواية "الخندق الغميق"

العمامة تاج العرب!

بقلم غالي شكري

تطور القصة العربية ، لا يمضي في خط مواز لتطور الفن الروائي على الصعيد العالمي . ذلك ان تاريخنا وثقافتنا ، لا يتناسبان طرديا مع التاريخ الاوروبي او الامريكي ، وثقافتهما ..

غاية ما يمكن ان نفيده من الاداب الاجنبية ، هو ان نضع ايدينا على نواميس تطورها ، وقوانين تقدم المجتمعات التي عبرت عنها .

والرواية العربية الحديثة حلقة جديدة في سلسلة طويلة من الاشكال الفنية المتباينة ، التي صورت تاريخنا على مدى العصور . سواء قيس هذا التاريخ على نحو « طولي » ، ام سبرت اغواره في لحظة زمنية قصيرة .

وقد تحررت القصة الاوروبية من عبء التاريخ منذ بداية هذا القرن. اي اننا لا نلحظ في الخمسين عاما الماضية، ميلا غالبا عند الكتاب الاوروبيين لكتابة الرواية التاريخية . في الوقت الذي كان فيه ادباؤنا يولون تاريخنا جل عنايتهم ، احساسا صادقا منهم ، بان هذا التاريخ يجب ان يخلد في قوالب مرنة تختلف عن كتب التاريخ . وتعبيرا مخلصا عن ازمتنا التاريخية في لنصف قرن الاخير ، حين لم نجد الا في ماضينا امجادا يعتد بها ، وتجسيدا لفراغ وجداننا من رابطة روحية وثيقة بارضنا الاجتماعية،حيث اغمضت عيوننا عدة ظروف مريرة قاسية ، عن ان ترى في وجودنا الانساني الراهن خامة غنية لادبنا . ومن ثم اصبح المفهوم السائد للرواية التاريخية هو ان نبحث في بطون الكتب عن حادثة شيقة ، او فضيحة مثيرة ، او نبأ غريب . فحين قلت ان اوروبا تخلصت من التاريخ قصدت انها القت بذلك المفهوم التقليدي وراء ظهرها، واخذت تنسج اياتها الفنية من حاضرها ومشكلاتها المعاصرة . غير ان هذا لا يعد سبقا فنيا ، الا اذا عددناه سبقا تاريخيا زمنيا .

وقد تقلصت محاولات الادب العربي الحديث في اجترار حوادث التاريخ القديم ، اي انها بدأت تتحرر من المعنى الكلاسي للرواية التاريخية. وبدأت في نفس الوقت عنايتها بتاريخنا الحديث .. اما بتصوير مراحل تطوره عبر الزمن ، واما بالتعبير عن قطاعات عريضة وجوانب معمقة ، في مجرى زمني قصير .

على اية حال ، اذا اردنا ان نميز بين الفنان الذي يؤرخ لمجتمعه احدى مراحل تاريخه ، والفنان الذي يقتصر في تعبيره عن المجتمع على لحظته الحضارية الموقوتة ، بموقف انساني خاص ... يجب ان نعي ان ادبنا في حاجة ماسة الى كليهما معا ..

وفي الادب العربي الحديث ، محاولات ناجحة من كلا الجانبين . واحدى هذه المحاولات هي رواية « الخندق الغميق » للدكتور سهيل ادريس .. قدمها نموذجا جديدا للفن الذي يؤرخ مراحل التطور الاجتماعي في قطاع بشري خاص .

ورغم ان المجتمع شيء موضوعي تماما ، الا ان انعكاس قيمه ومثله وتطوره ، على وحدة اجتماعية صغيرة ـ اسرة مثلا ـ هو ما يستهدفه الفنان الصادق ، اذا اراد ان يعرض مفهومه الخاص عن الحياة .

ومن هنا قيمة التجربة الذاتية حين تصبح تجسيدا واعيا ، لكافة الظروف المحيطة بالواقع النابعة منه ، والذي هو بدوره نتاج طبيعي للواقع الاشمل ... اي المجتمع الانساني باسره .

و « الخندق الغميق » هو حي في لبنان اختلف الناس في تبرير تسميته ـ وفيه تسكن اسرة يعمل رب البيت فيها بالتجارة . ولذا كانت « ندوة البساط » الشهرية للمشايخ ، من اقدس واجباته ، لتزداد تجارته عمرانا ، ثم لكونه هو ايضا ... شيخا ـ شيخا يمثل جيلا كاملا، تبلورت في جبته وعمامته كافة القيم والمثل التي كانت ـ فيما مضى ـ افرازا حتميا لمرحلة تاريخية سابقة ، والتي تحاول ان تكون « تتويجا » لكافة القيم الانسانية ، بان تعترض كل ما يحاوله الجيل الجديد من خطوات جديدة .

والجيل الجديد اذن ، هو ابناء الشيخ ، الذين نشأوا في احضان الاسرة حقا ، ولكنهم عايشوا ـ في نفس الوقت ـ خلخلة في القيم الجامدة التي يتشبث بها عاهل الاسرة ، والتي هي تعبير عن خلخلة النظام الاجتماعي القديم ، الذي تكون في ظروف مرحلة تاريخية مضت .

والقصة هي تصوير الصراع بين هذين الجيلين ، لينتهي بانتصار حاسم للجيل الجديد الناشيء ، وقيمه ، ومثله .

٭

وهكذا نعثر في بداية جولتنا مع الفنان على « الحدث الروائي » الذي تنمو به الاحداث نموا حيا متطورا ، من شأنه ان يساعد على خلق بناء درامي متكامل . وهذا ما انتقدته عند سهيل ادريس في روايته « الحي اللاتيني » . فقد خلت من نقطة الانطلاق هذه . اعني « الحدث الروائي Novel-action » رغم تزاحمها بالاحداث Events وهذا ما حال بينها وبين تكامل البناء الدرامي على النحو الفني الصحيح .

اما في « الخندق الغميق » فاننا نرافق هذا الحدث منذ تأبطنا الفنان في رحلة الصبي الصغير « سامي » الذي تجسدت فيه الام جيل واحلامه، هزائمه وانتصاراته ... منذ كان يصر على الجلوس بين المشايخ وهم يرتلون الذكر ، ليأكل « على راحته » ، وليدندن بصوته الجميل الذي يذوب بين اصواتهم العالية الخشنة فلا يبدو ما في كلامه من اخطاء.

كانت الظروف المحيطة بـ « سامي » كلها ، تهيئه لان يصبح شيخا . واريد ان اقف عند هذه النقطة ، لاننا كثيرا ما نهمل التامل في الاحداث الواقعية التي ربما كانت رموزا لواقع اكثر عمقا .

فانني ارى ـ مثلا ـ ان الشيخ « ابا سامي » الذي يمثل جيلا كاملا ،

يريد ان تتجمد كافة القيم والفكريات التي يعبر عنها ، بان يصبح ابنه - اي الجيل الذي يليه - امتدادا جامدا لنفس القيم والمثليات بمعنى ان الجيل القديم يحصن مستقبله ، بان يستودع مثالياته قلوب الجيل السابق ، وانما يبقى « شكلا » حديثا لمضمون « الجيل القديم » . ومن هنا « ينشب الامس اظافره في يومنا نحن » (١) وليست عملية «التحصين المستقبلي» هذه ، الا دفاعا واعيا عن بقاء النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي افرز الشيخ « ابا سامي » وجبته ، وعمامته . وقد كانت مقومات النظام ودعائمه في خدمة هذا الدفاع . فحين دخل « سامي » المعهد الديني ، ولبس الجبة والعمامة - فاصبح تعبيرا مؤقتا عن سلطة الجيل القديم - فانه ذات يوم ص ٣٩ « وكان لم يتجاوز الزقاق المؤدي الى بيتهم حين رآته جارة لهم ، كانوا يدخلون حديقتها ، هو ورفاقه ، كلما عطشوا ، فيشربون من انبوب يصب في برميل هناك . وكانت الجارة واقفة على الباب الخارجي حين مر بها ، فاذا هي تطلق صرخة استغراب صغيرة، ولكنها ، ما تلبث ان تقول :

- اسم الله عليك يا سامي! لقد اصبحت شيخا ؟ انظروا : ان نور الجنة مسطر على جبينه !

فابتسم ، ولم يلتفت اليها . وحين ابتعد قليلا ، وضع يده على جبينه ، يتحسس هذا النور »

اما قريبه الثرى ، حين سمعه يرتل القرآن ، فقد اهداه ، قلما مذهبا ثمينا. وهكذا، فالظروف جميعها تدفع الطفل الى ادخال جسمه في الجبة، ورأسه في العمامة .

ولا شك ان هذه الظروف جميعها التي اوردها الفنان « رمزية » بمعنى انها تعبير فقط عن الظروف الموضوعية الكبيرة المحيطة بالجيل كله . وما « الطفل » نفسه ، وجبته وعمامته ، الا رموز » صغيرة .

ولكن هذه الظروف ليست « متجانسة » ، وانما تحتوي في صميمها على « تناقضات » خفية . تبدو اول الامر ، وكانها « ظواهر » طارئة ، ولكن تفاعل الاحداث يومىء باهمية هذه الظواهر ، وخطورتها في المستقبل.

واذا عدنا الى الشيخ سامي ، يوم ان امره رئيس المعهد - هو وزملاؤه - بحلاقة رؤوسهم وارخاء ذقونهم ، فاننا نكتشف ان اثنين فقط ، اطاعا الامر ، بينما عصى الجميع امر رئيسهم بشأن حلاقة الرأس . وان كل بعضهم قد ارخى ذقنه ... الا ان سامي - وشعر ذقنه لم يظهر في وجهه الطفل بعد - اخذ عقابه مضاعفا ، وتساءل ص ٣٧ « لماذا نال كل زميل من زملائه عصا واحدة ، وهو عصوين ؟ وهل يكون الذنب ذنبه ، اذا لم تظهر ذقنه بعد . ثم تأخذه الثورة فجأة ، فيتحسس موضع الضربة من رأسه ، ولا تهدأ نفسه قليلا الا بعد ان يشتم لحية الرئيس».

واذا توغلنا الى مضمون الجبة والعمامة ، فانا نزداد وعيا بهذه الظواهر المتناقضة . فدرس « الحديث » ص ٤٤ « كان يقذفهم في حيرة وتململ شديدين . ذلك ان المدرس ابلغهم اول الامر ان هناك ما يزيد على ثلثمائة الف حديث منسوبة الى النبي وهي زائفة ، وانه لن يدرسهم الا الاحاديث الصحيحة ، ولكنه مع ذلك كان يأتيهم كثيرا بما يشبه الخرافات على انها من صحيح الحديث ، وكان يشرحها لهم شرحا غريبا ، لا يطمئنون أليه ، ولا يثقون به . وقد شك احد الطلاب يوما بحديث اورده لهم هذا المدرس الشيخ،وعبر عن شكه امامه، فاذا به يغضب،ويثور، ثم يروي لهم، ان رجلا شك في حديث ينوي يقول (اذ قام احدكم من النوم فليغسل يده ، فانه لا يدري اين باتت يده) ، واضاف المدرس ، ان هذا الرجل الذي شك بهذا الحديث سخر من مضمونه واخذ يتساءل : (اين يمكن ان تبيت يدي ؟ انها الى جانبي!). قال الاستاذ الشيخ : وحين نهض الرجل في اليوم التالي ، وجد يده داخلة حتى المرفق في استه .. واضطر الطبيب الى قطع يده ! وعلق مدرس الحديث على ذلك بقوله : فلا تشكو يا ابنائي باقوال الرسول ... »

وقد برع المؤلف في ألتوفيق بين « تناقض » هذه الظاهر ، والنتيجة الحتمية - المتناقضة - لهذا التكوين النفسي والاجتماعي .

فالشيخ سامي ، يؤدي الفرائض الدينية في اوقاتها . ولا ينسى أن يزور السينما مع رفاقه الذين يتمادون في غيهم حين ينحرفون الى زقاق معتم مجاور السينما ، لا يعرف هو تماما : ماذا يوجد او يحدث هناك (ص ٥٤)

واذا كان ألمضمون الانساني لاعمالنا اليومية يفرض شكله المناسب ، فان الجبة والعمامة لا مكان لهما في السينما (ص ٥٣) . والصلاة والصوم لا يمنعانه من «الكذب» عند اللزوم. فاذا سأله ابوه الى اين هوذاهب،كان الجواب انه مدعو الى سهرة مع زملائه لتلاوة القرآن .

هذه التناقضات الثانوية ألصغيرة التي اسهمت في بناء الصبي ، كانت في تفتح دائم الحدة والوضوح . الاب في البيت يحدثه بلهجة جافة ص ٧٨ :

- انني امنعك على كل حال من مجادلتي .. لقد اصبحت وقحا بالفعل !

نفس الكلمات التي سمعها من رئيس المعهد .. وهكذا فالبيت والمعهد، كلاهما في وفاق ... اي ان رسالتهما واحدة : تجميد القيم الهرمة ، بكظم اية انطلاقة من الصدور الجديدة النامية .

ولكن هذا كله ، لا يسد على الانطلاقة الوافدة طريقها ، اذ سرعان ما يجيب سامي (ص ٧٨) :

- لا .. لست بالوقح .. كل ما هنالك انني اخالفك بالرأي !

ومن هذا الموقف يتضح الصراع جليا واضحا ، فبعدما كانت نقائض الحياة والمجتمع تصطرع بين اضلع سامي في خفوت هامس ، اصبح مضطرا ، لان يفصح عن حقيقة ما يمور بداخله .. هذا الذي اوشك على ان يبدو معركة سافرة بين جيلين .

وقد كان « الحب » هو الثقاب الذي اشعل المعركة . ذلك الحب الذي يلتهب في وقدة الكبت والحرمان ... فاذأ هو تعبير عن « نار الجنس » التي اخفت لهبها جدران التقاليد ، دون ان تطفئها .

والجيل ألذي مثله « سامي » واخوته ، هو جيل « ضحية » . فالعواطف البشرية لا تنمو في وجدانه صحيحة صادقة ، لانها لا تجد ظروفا نقية طبيعية تسمح بالنمو الطبيعي غير المنحرف . فسامي لم « يصادق » سميا ، لم يقربها قربا حقيقيا ... ونما « ابنة الجيران » ألتي فوجيء جسده بقربها . واذا العاطفة النامية بينهما هي تحرق الجسد الظامىء الى الجنس ، وليست تحرق العقل التواق الى المعرفة الحميمة ، بالصديق ألاخر .

والقيم المعبأة في العمامة ، تحول دون هذا الحب ... و « سميا » تقولها صريحة مخلصة (ص ٧١) :

- ارجوك ... لا تذهب معي ... انت شيخ

اما ابوه ، فقد احس زلزالا يخلع اساس البيت حين سمع الخبر ، ومن ثم يزجره بعنف (ص ٧٧)

- بلى ! انه لا يليق بك ، انت الشيخ ابن الشيخ ، ان تتبادل الرسائل

(١) محيي الدين محمد - الاداب - يوليو ١٩٥٩

حتى تشرق الشمس

« الى الشاعر احمد عبد المعطي حجازي »

هي بضع ساعاتٍ
ـ ملعونة كالدمً ـ ساعات ـ
سودٍ كمأساة
وتطل من خلف القصور كئيبة
صفرا كفاتنتي
كعظام اموات ...
فأهدأ هنـا
في صدريَ العاري
ياايها الضاري
اهدأ هنا ... في صدري العاري
ستظل باردة كمقبرة ،
كرماد اجنحتي
وتجف أطماري ..
آه لنـا
مانفعه هذا الهوى المشبوب كالنار

كالضوء في اجفان مغوار
ونشيد جزار ،
مانفعه .. .ورياح موعدنا
تجثو هناك ... وراء اسوار
عرجاء باكية
كالنجم في افق من العار
في قلب احجار
ما نفعه وانا
اتشرب الساعات والصمتا ،
اتشرب الموتـا ،
ارنو لاطماري ...
مانفعه ...
والشمس لم تشرق على داري ؟...

قطر — **حسن النجمي**

الغرامية مع ابنة الجيران !

وناظر المعهد الديني ايضا ، له رأي في القصة (ص ٩٨) :

ـ ان الطلاب هنا للدراسة ، لحفظ القرآن والحديث والفقه ، لا للخفة والطيش والحب !

ولكن سامي لم يعد ذلك « الغر » الذي ينهكه الصراع الداخلي المر، دون ان يملك « بوصلة » موجهة لهذا الصراع . فهو يدرس اللغة الفرنسية ، ويقول لحبيبته انه « شيخ مودرن » ص ٧٤ ، ويتحدى اباه صارخا (ص ٧٧) :

ـ ان الله لم يخلق المشايخ بلا قلوب !

وينكب على الدراسة المدنية في المنزل ، ثم ينال « البكالوريا » ... وتتبلور معالمه الايجابية حين ينزع الجبة والعمامة !!

فاذا اعتلت وجه ابيه سمات الجزع والمفاجاة ، قابله في شجاعة ص ١١٩ :

ـ ان هذا امر لا يعنيك !!

فيكون نصيبه صفعتان لاهبتان ، وتروى لنا الابنة «هدى » ان اباها امسك بعمة ابنه ص ١٢٢ « .. وحاول ان يضعها على رأس سامي كرها وقسرا . وكان وجه أخي قد احتقن بالدم من اثر الصفعتين ، ومن غضب وحشي كان قد استبد برأسه لحظة، ولكن هاتين اليدين الكبيرتين الضخمتين تغلبانه على امره ، ثم ترتفعان بصفعتين اخريين اعنف واقسى .. واذ ذاك سمعنا صرخة توجع واستنكار تند من فم سامي ، ورأيناه يتراجع الى خلف ، ثم يتناول العمة التي كانت قد استقرت على راسه ، ويقذف بها ارضا ، بكل ما ملكت قواه ، ثم لا يكتفي بذلك ، بل ينحني فيأخذها عن الارض ، ويحل المنديل عن الطربوش بسرعة فائقة ، ويحاول ان يمزق المنديل بيديه ، فيعجزه ذلك ، فاذا هو يتناوله بين اسنانه ويعمل فيه تمزيقا وتقطيعا ، وقد احمرت عيناه ، وانبعث منهما شرر حيواني غريب » .

وهذه قمة الصراع الحادة في الحدث الدرامي .. ورغم ان « الرمز » يلعب هنا دورا كبيرا ، فانه لا يتعالى فوق المستوى الادراكي للقاريء.

وازمة اللقاء الحاسم بين النقيضين ، تولد دائما تلك الشرارة الجديدة، التي تصهر الشكل الاجتماعي للتجربة الانسانية . فبينما ينتصر النقيض الجديد النامي ، نكتشف نقيضا جديدا ـ في نفس اللحظة ـ يتولد على الخط الرئيسي للحدث ، وتتوالد نقائض ثانوية صغيرة .... ويتمدد الصراع من جديد .

وحين خلع سامي عمامته ، فانه كان على وعي تام ، بان القيم الفكرية التي يتضمنها نسيج العمامة ، لم تعد بقادرة على ان تساير المجتمع الجديد البازغ . فقول ابيه «العمامة تاج العرب» هي كلمات صادقة في تعبيرها عن مرحلة متخلفة من تاريخ العرب .

ونقطة التحول في حياة هذه الاسرة ، هي انعكاس امين لنقطة التحول التي اجتازها المجتمع العربي في لبنان ، بعد الحرب العالمية الاخيرة .

وآثار هذه المرحلة العصيبة على الاسرة ترمز الى آثارها على طبقة اجتماعية معينة في القطاع العربي ، بصفة عامة ، فرغم ان دخلها يتقلص شهرا بعد شهر ، الا ان ربها « يرفض ان يعترف بان عهد الرخاء قد

زال ، وانه يوشك انيؤول الى الفقر . ان الله يرزق ، ما دام هـــذا البساط يعقب دائما ليلة ذكر فيها اسم الله كثيرا » ص ١٢٥

اما «سميا» فقد نزحت الى القاهرة ، حيث تزوجت ابن عمها ص ١٣٠ « ودخلت المجتمع الارستقراطي ، واصبح لها فيه مركز مرموق » ـ وحين تلتقي بسامي ـ بعد سنوات ثلاث ـ تقول له « تذكرتك ، وانا اقـرأ اسمك في احدى الصحف في برنامج اذاعة اليوم ، فقلت لا بد ان اراك.. انك على الاقل صديق قديم » .

ولا تقتله المفاجأة ، وانما تزود فراغه العاطفي بطاقة ضخمة من العمل، والكد ، والمثابرة ، انه يعبر مرة اخرى ـ عن هذا الجيل « الضحية » الذي تمزقت حناياه تحت وطأة الفصل الحاد ، او النقلة التاريخيـة من المجتمع المنتفخ المغلق ، الى مجتمع الرشد .

ولا تلبث هذه الايجابية الرائعة ، ان تتجسد في العلاقة الجديدة بين رفيق ـ زميل سامي ـ وهدى . فقد تحول سامي ، ذلك الشيخ المعمم ، الى شاب يعي في عمق ، مدى ما يعتلج في صدر شقيقته نحو صديقه « رفيق » ، ومن ثم يقف حائلا بين اظافر الجيل القديم متمثلا في سلطان الاب ، وبين مستقبل هذه العاطفة الوليدة . وهكذا يفسح لهما فرصة التجاوب الصادق الحر ، حتى يتأكد من عاطفتهما ، ويبدأ في ثقة واخلاص، بناء عش الاحلام . حتى اذا اعتاقت سبيلهما العوائق ، كانا على موعد جاد مع الزحف السريع الى الغد الافضل .

وكان لا بد من هذه المعوقات ، فالاب ـ والاب دائما ـ يقف سـدا منيعا في وجه هذا الغد حين يقول ص ١٤٦ « ... ولهذا فقد قررت ان تنقطعي عـن المدرسة التي تعلمك الفساد ، وأنا امنعك منذ اليوم عن ارتياد هذه المدرسة ، ولن ادفع لك الاقساط بعد الان »

ولكن الجيل الصاعد لن يقف ... لن يتردد سامي في ان يقول : « انك تستطيع الا تدفع الاقساط .. ولكني اؤكد لك انها لن تنقطع عنالمدرسة».

لقد افلت الزمام نهائيا من مركز القيادة ، ولا بد ان تحدث «الخلخلة» التاريخية ، بين تداعي الاساس القديم ، وقيام البناء الجديد . وبدت هذه الخلخلة واضحة، عندما اهتزت المعايير الاخلاقية في الاسرة ، فالاب الشيخ يعادي سامي وهدى ، لانه « ليس هناك من صالح الا فوزي ، رضى الله عنه ... انه على الاقل يساعدني في الانفاق على البيت ، ويتحمل نصيبه من المصروف » ص ١٥٦ . بينما هو الابن الصالح ، قال اشياء كثيرة اثناء نومه ، الليلة الماضية ، وكان فمه يفوح برائحة الخمر .. قال ص ١٥٨ « اسمعي يا حبيبتي ... انت امرأة داعرة ... جانيـت خير منك .. انها ترقص رقصا رائعا .. وجسدها حار ... وعفاف خير منكما ، انها اكبر داعرة في الدنيا .. هاتي شفتيك اينها ... لا .. اسمعي .. اعطيني الكأس ... خذه ! هذه عشر ليرات .. ساعطيك كثيرا غيـرها ...! اغلقي الان فمك .»

وبدا هذا الاختلال ايضا في العلاقات بين افراد العائلة . فقد صاح سامي بامه يقول ص ٨٠ « دعوني وشأني ... فانه لا علاقة لاحد باموري الخاصة » ... وفوزي اجابها مرة أخرى ص ١٥٧ « ان هذه امور لا تعنيك ... وخير لك ان تعودي الى مكانك الطبيعي : المطبخ ! » . والاب الشيخ نفسه ، حين اعلن زواجه الثاني ، اخذ يهددها بقبضة يده ، وهو يكز على اسنانه قائلا ١٦٧ « آن لك ان تخرسي. لقد قلت لك انـه لا دخل للاولاد .. لا دخل للاولاد بذلك !! ان هذه قضية تعنيني ... تعنيني وحدي » .. فهذه الفردية الحاسمة التي تفشت بين الجميـع فجأة هي المظهر الانحلالي للاسرة ... او الانفصال الروحي بين افرادها ..

وهو الانفصال التاريخي بين جيلين ، تأثرت بهزته الاسس البنائية للمجتمع الجديد . اذ كان لا بد لهذه الوحدة ان تنفصم لتستعيد صياغتها على نحو مغاير للمجتمع القديم .

وعندما تقف هدى عند باب قاعة الامتحان ، يصافحها سامي بحرارة قائلا ص ١٧٩ « لا تتراجعي يا هدى .. انك بحاجة الى ان تنظري امامك جليا واضحا ... وينبغي الا تكون على عينيك غشاوة » . وفهمت سريعا ما كان يرمي اليه ، فمدت يدها ، ونزعت عن راسها ووجهها الحجاب ، ثم سلمته اياه .. فتناوله على مهل ، واخذ يطويه ، ثم نظر اليها مبتسمـا وقال : اتعرفين عمامتي ؟... انه يذكرني بها !

وسقطت القامة الاخيرة ... ورفع رب البيت يده الى السماء مستنجدا ص ١٧٧ « اللهم غفرانك ورحمتك .. انني اعوذ بك من هذا الجيل ، وابرأ من هذه الاسرة الفاسدة » .

ويبدو ان السماء ، فهمت دعاءه بشكل مختلف ، فما لبث ان اصيب بالشلل ومات . بينما خطبت هدى الى حبيبها رفيق ، وتوجه سـامي شطر باريس ليكمل دراسته . وانشد الجيل المتوثب اغنية النصر ، فليس موت الشيخ ، الا جنازة حقيقية شيعت بها قيما ادت دورها ومضت.

★

وليس شك ان الدكتور سهيل ادريس ، قدم لنا عرضا فنيا دقيقـا لعملية « المخاض » الاجتماعية ، التي عاناها ابناء جيله .. وقد استغل تجربته الذاتية استغلالا موضوعيا .. بمعنى انه كان يرى الاحداث النابعة من دائرته الخاصة بعدسة موضوعية . ومن ثم رأينا شخوصه جميعـا من خلال ذواتهم الحقيقية ، لا من وراء نظارته الشخصية ، وربما جـاء التركيز الدقيق في عرض التجربة ، نتيجة طبيعية لابراز المحتوى الانساني للقصة ، دون اللجوء الى هوامش الحدث الروائي . ومن هنا بـرزت العلاقة الطبيعية بين الشخوص في جو سيكلوجي ناجح، وتناسقت الابعاد الزمانية والمكانية لدرجة اوحت ـ على الدوام ـ بصـدق التصوير وطبيعية السير الدرامي للحوادث . وقد صور المحتوى الفكري للرواية ـ منذ البدء ـ اطاره العام ، فاذا طريقة العرض والتناول لا تعتمـد اسلوبا هلاميا ضبابيا في تغليف المواقف الانسانية .. وانماغلفت بلغة سليمة واضحة .

غير أن هذا البنيان الناجح قد تأثر ـ وتصدع ـ حين عزل الكاتب البناء الاقتصادي والاجتماعي للاسرة ، عن « الفرشة » الاجتماعيـة الاقتصادية ، للمجتمع اللبناني. ولذا لم احس في حي «الخندقالغميق»، والجبل ، والمعهد الديني ، وبيوت الاصدقاء ، بالرائحة المميزة لهـذا المجتمع . ذلك ان المؤلف قد اهمل همزات الوصل الحية بـين طبقـات المجتمع ، واغفل ـ بالتالي ـ ما بينها من تشابك عضوي ، لا ريب انـه قائم بالفعل ، خلال الحركة الدينامية في داخل هذا المجتمع .

ولست اطلب من سهيل ادريس موقفا فلسفيا خاصا في نظرته للحياة. لانه ـ لا شك ـ صاحب موقف ما ، سيطر على عمله الفني بوعي او دون وعي. وربما كان هذا الموقف ـ او المنهج ـ هو السبب في عزلته عـن الواقع الانساني المحيط به . فالاحداث الاوليةفي القصة وقعت فـي الفترة ما بين الحربين .. وهي فترةخصبة مليئة بالتغيرات الجسام ، التي كان لها انعكاس واضح على المنطقة العربية . ولكنا لم نشهد لهـذا الانعكاس اية اثار على الارض الاجتماعية في البناء الروائي « للخنـدق الغميق » . وهكذا بدت بعض المواقف الانسانية باردة من حرارة التلوين التاريخي للتجربة . فعندما اراد القصاص ان يؤرخ لمرحلة معينة في

الرواية ، اكتفى بان يحيطنا علما بان الحرب العالمية الثانية كانت قد اعلنت منذ ثلاثة ايام (ص ٩٤) وتلت ذلك احداث كثيرة ، لم تنعكس اثارها على الاسرة الا في اضيق نطاق . وقد تخلف عن هذا المنهج غير المتكامل ان تعرض التصوير الموضوعي لخيوط التجربة ، لعدة اهتزازات. فالتحرر الذي اصاب سامي يتطرف به في وساطته بين رفيق وهدى الى حدود غير معقولة . ثم ان التجسيد الفكري لبعض الشخوص - كرفيق مثلا - لم يكن واضحا ، حتى يمكننا ان نقتنع بسلوكهم الخاص ، وربما كان ذلك نتيجة طبيعية لمنهج المؤلف في التحليل النفسي. حيث انه لم ير في التشريح السيكلوجي من خلال التفاعل الدرامي ، منهجا سليما في تسليط الضوء على شخوصه من الداخل والخارج . ومن ثم بدا بعضهم باهتا تكاد ملامحه لا تبين .

وعندما اراد المؤلف ان ينفذ بقارئه الى موقف ما ، وارتأى ان الراوي بضمير الغائب لن يتمكن من هذا النفاذ .. اسند دفة الرواية الى لسان « هدى » لانها اقرب الشخوص الى تبيان ذلك الموقف .

واعتقد ان الكتاب الاوروبيين ، والذين كانوا ينهجون في كتابة رواياتهم هذا النهج ، بان يروى القصة القصيرة الطويلة ، اكثر من شخصية في العمل الفني ... اعتقد ان الامر عندهم لم يكن مجرد « تغيير وجوه » في طريقة تناول الحدث .. وانما كانت الضرورة الفنية ، هي التي تحدد ذلك الشكل ، بما يتناسب مع المحتوي الانساني للعمل الفني . ولم ار في « الخندق الغميق » ما يبرر هذه الوسيلة ، بل انها في بعض الاحيان، تحولت الى « عائق » سيكلوجي عند المتلقي .

✶

غير ان كل ما يعترض طريقنا من عوائق ، ذاب تماما في حرارة النبضات القوية التي خفقت بها صدور سامي وهدى ورفيق .. والقراء ايضا ، لان انتصار هؤلاء الثلاثة ، لم يكن انتصارا شخصيا ، وانما كان انتصارا موضوعيا لجيل كامل .

هذا الجيل الذي عبر عنه - بغير وعي - تعبيرا سلبيا ، احد شيوخ المعهد الديني ، حين اقبل اليوم الذي سيرتدي فيه سامي ، الجبة والعمامة ص ٢٩ « وتقدم بخطى ثقيلة نحو الخياط الذي وجد له جبته بسرعة ، فالبسه اياها ، ولكنه لم يقل له ، كما قال للذين سبقوه « مبروك يا مولانا » بل قال له « اسم الله عليك » فابتسم له بسذاجة ، وتقدم من مدرس التفسير وبسط له طربوشه ، فاخذ يلف عليه العمامة . ولكنه لم يكد يفرغ من لفها ، حتى انفرطت بين يديه ، فتأفف قليلا ، وعاد الى ادارتها على الطربوش من جديد . غير انها ما لبثت ان انفرطت مرة اخرى لسبب لم يفهمه هو ، ولم يفهمه المدرس الذي التفت اليه ، وقال له بهدوء :

- انت منحوس ... ستكون شيخا منحوسا .

فلم يدرك كيف يكون الشيخ المنحوس ، ولم يهتم كثيرا بهذا القول ، فقد كان نافد الصبر يود ان يفرغ المدرس من لف العمامة »

ولو رأى مدرس التفسير « سامي » هذه الايام ، لضحك كثيرا وهو يرى رأسه عاريا ، فقد صدقت نظرته ، و « نحس الولد » .. ولكن هذه الضحكة ستموت ، حين يرى في وجه سامي شيئا يقول : كلا .. ان العمامة ليست تاج العرب ... وانما هو التطور ... تاج العرب .. والبشر جميعا .

القاهرة — غالي شكري

مأساة

على ارجوحة النجوى تلاقى الليل والوتر
جناحين من الشوق
تمنى الشعر لونهما
وحار العطر بينهما
وغاصا في جراحاتي
اكانت غصة الشكوى سوى ما تمتم القدر
نشيدا غائم المعنى
غريب اللفظ والمبنى
على الاوهام ينساب
ويغفو بين آهاتي ؟

* * *

سألت الليل عن احلامي النديباء فاضطربا
الم انثر ذوائبها على شطآنه ذهبا
الم اطلق لوافحها على غدرانه لهبا
لم يضحك لها الزهر
الم يرقص لها النهر
الم يتناقل الفجر
اهازيجي واناتي ؟

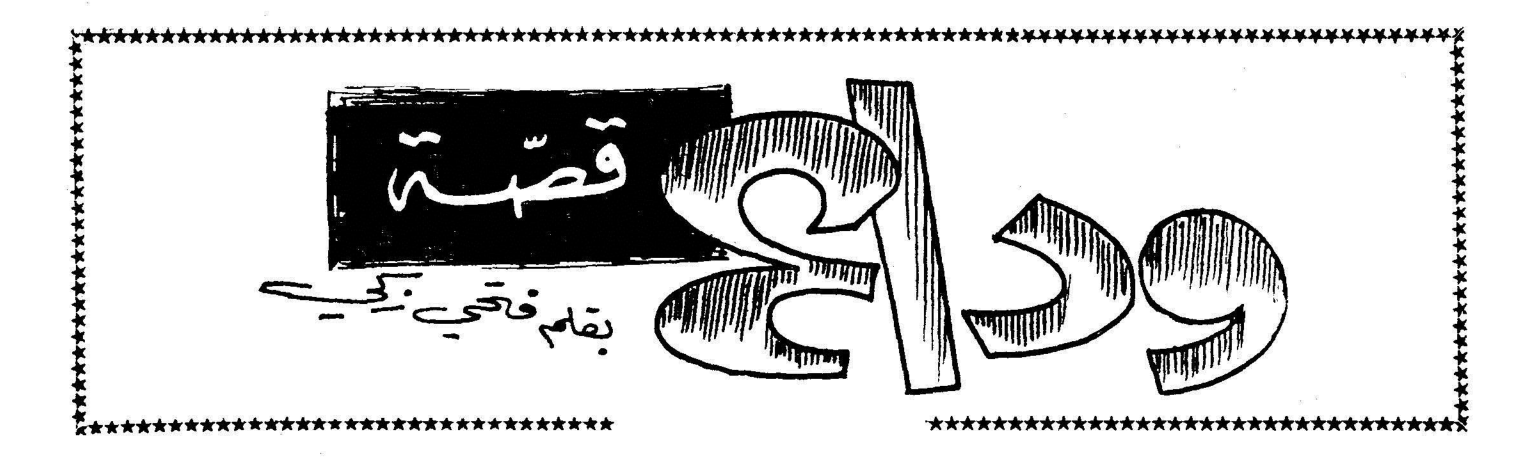
* * *

ليعف الحب عما فات من غيّي ومن ذنبي
انا اطعمته قلبي انا وسّدته هدبي
معاذ الوجد انكره
اذا ما انساب في دربي
عيون الله تخفره
واغسله بدمعاتي

* * *

طريقي شائك بالنار والاعصار سيجته
ولم اشفق على جفني وقلبي حين ضرّجته
طريقي نيط بالازلِ
ومد يديه للابد
انا بالشعر ارّجته
وشدت عليه مأساتي

الارجنتين — **زكي قنصل**



واقتربنا اخيرا من الميدان .

لم يكن الطريق طويلا ولكنا تعبنا . كنا نحس اننا نكتب بخطواتنا القصيرة البخيلة فقرات حزينة من قصة لم تمر بحياة اسرتنا الصغيرة من قبل .

وكانت قلوبنا ترتشف قطرات من أسى طفيف ... كانت تزداد وتنهمر كلما اقتربنا خطوة اخرى من الميدان .

فقد كنا ذاهبين لتوديع اخي.

أخيرا آن الاوان . منذ سنوات وابي العجوز يتطلع الى مثل هـذا اليوم عندما يستطيع ان يزيح من فوق كاهله مسئولية واحد منا . فكم كان الحمل ثقيلا عليه .

ومنذ شهر اعلنت نتيجة امتحان اخي وحدثت المعجزة . لقد نجح حسين واصبح مهندسا . وفي ذلك اليوم جاء بعض الجيران وقد علموا بالنبأ ليهنئوا امي.. وسمعت كلمات ثرثارة تتردد في البيت تفيض بالامل والتمني ... ورجاء الحظ السعيد .

وعاش بيتنا الصغير يوم اعلان النتيجة ساعات سعيدة . كم سمعت ابي يرفع يده الى السماء شاكرا لانها حققت له اجمل امل بالنسبة لابنائه .. وكم شاركته امي بنظراتها الورعة في صلاة تفيض بالامتنان لله .

وعندما اغلقت امي الباب تلك الليلة وراء آخر المهنئين من الاقارب والجيران تنفست الصعداء .. وتعجبنا عندما رأينا دموعا صامتة تشرق في عينيها . ولكنها اسرعت وتداركت الموقف ومسحت دموعها... وجلست الى ابي تبحث معه امورا تتعلق بالمستقبل ... وعرفت من لهجتها المتحمسة ان الصبر الذي طلى وجهها في السنوات الاخيرة قد افرج الان في اعماقها رغبة متقدة ... تفور وتغلي بالامنيات المشرقة لابنائها ... امنيات تمحو صدأ تلك الايام التي ذاقت فيها قافلتنا الصغيرة كثيرا من المتاعب والوان الحرمان .

كانت تنفعل بحماس وهي تحدث ابي بشأن الوظيفة التي يجب ان يشغلها ابنها المهندس وكان ابي اكثر منها اتزانا في احلامه وهو يخبرها انه سيتصل منذ الغد بكل معارفه القدماء في المصلحة ... ومن بينهم منصور وعبد الرازق افندي .. وانه سيعمل كل ما يستطيع ليجد لاخي وظيفة مناسبة في القاهرة . وان ليس هناك داع لحمل الهم ... فهناك ازمة مهندسين في البلدان ... ولا بد ان سيحصل على الوظيفة المطلوبة .

اما امي فكانت ترى انه من الافضل ان تذهب هي في الصباح الى زوج اختها رفعت بك وهو قادر على حل هذه المشكلة التي لا شك سيلوص فيها رغم بساطتها كل معارف ابي وزملائه « اللي على قد حالهم » .

ولم ير ابي حكمة في ان يعارضها ... ويقول لها ان توفر مجهودها... لانه يعرف مقدما ان رفعت بك لن يحرك ساكنا كعادته ... وخاصة اذا كانت المشكلة تتعلق بأخي حسين فان لرفعت بك ابنا في مثل سنه ... ولكنه لم يفلح في الدراسة .. بل انحرف وضل السبيل ..

ورأيت ابي تلك الليلة ينظر الى سقف الحجرة في سهوم بعد ان انهى حديثه مع امي وهو يكثر من تنهداته المبتلة بدموع ذكريات الطريق الشاق الذي قاد فيه اسرته بلا عون من مال او صديق او قريب ... الا حماسه الذي يتفجر من ينابيع اعماقه نحو ابنائه ... ووظيفة بسيطة تعجز كل نظريات علم الاقتصاد على ان تجعل مرتبه منها يسد النفقات الطائلة لاربعة ابناء ... يريد ان يعلمهم جميعا احسن تعليم ... ليكونوا احسن الخلق ... وليجنبهم ما عاناه هو من اضطهاد الوظيفة الصغيرة واصنافها الجائرة .

ماذا كان يقرأ في سقف الحجرة تلك الليلة الا الخاتمة السعيدة لقصة صراع طويل .. قصة تحد وحرب مع اهل زوجته ... وخاصة رفعت بك؟ فقد كان رفعت بك هو النجم المتلالىء في سماء عائلتنا ... ولا عجب ان يخطف نوره البراق ابصار الاقارب جميعا ... فقد كان موظفا كبيرا بوزارة المعارف .. وكان ابي يلجأ اليه احيانا مضطرا ليساعده في مشكلة ما من مشاكلنا الكثيرة .

وكانت اخر مشكلة لجأ فيها اليه عندما التحق اخي بكلية الهندسة.. فذهب اليه ابي كي يساعده ليحصل اخي على المجانية.

في ذلك اليوم عاد ابي ثائرا يلعن ... وسر غضبه ونقمته ان رفعت بك لم يبد عدم رغبته في مساعدته فقط .. بل نظر اليه في تعال يقرب حد الاحتقار وقال له :

- أنا من رأيي يا عبد الحق انك تشوف له شغله ... اهو على الاقل يساعدك في تربية اخواته . ومتآخذنيش في دي الكلمة ... انت حتكفيهم من اين ... ومن ناحية تانية الشهادات الجامعية اليومين دول مبقالهاش قيمة ...

ولكن ابي اصر على ان يمضي في طريقه الشاق . كان يحرم نفسه من كل شيء كي لا يشمت لانهزامه رفعت بك المتعجرف .

ومنذ تلك الليلة وامي تنظر الى ابنها البكري الذي ذاقت في تربيته المر نظرة فخمة وقد اصبح في نظرها عظيما .. نعم فقد كان حسين من دوننا صعب العلاج عنيدا ... مسرفا في طلباته ... يأخذ ما يريد

عندما يريد حتى لو كان ذلك عسيرا على اب لاربعة ابناء يعمل موظفا بسيطا بمصلحة السكك الحديدية .

ومنذ ان اعلنت نتيجة الامتحان واسرتنا تعيش في دوامة من الافراح المختلطة بالاسى فقد ادركنا ان من المستحيل ان يجد اخي وظيفة في القاهرة ... وغاية ما كنا نحلم به ان يجد تلك الوظيفة في بلدة قريبة من القاهرة تمكنه من ان يأتي لزيارتنا ولو مرة كل شهر . ولكن حتى هذا الحلم البسيط ضاع عندما جاء اخي منذ ايام ليزف الينا والفرح يعصف به انه قد عين مهندسا في شركة للمقاولات ... وسيتسلم وظيفته اول الشهر القادم .

ومنذ ذلك اليوم ... ونحن نعد له الترتيبات ... والمح في عيني امي كيف يمكن ان تنقلب الافراح فجأة في قلبها الى مزيج من الاسى الخجول والحيرة الهادئة .

لم يكن هناك بد من ان يقبل ابي تلك الوظيفة .. فان العرض كان مغريا . واخيرا مرت السبعة الايام الباقية على حلول الشهر الجديد سريعة هازئة بدعوات امي الساذجة للتريث والبقاء ...

وها نحن نندفع رغم ارادتنا الى محطة السكة الحديد .. كقافلة مسلوبة الارادة ـ تدفعها من وراء ريح عاتية نحو باب الحديد .

وكان كل منا يحمل في يده قطعة من العفش ... اختي الصغيرة كانت تحمل حقيبة صغيرة فيها بعض الكتب والاوراق ... وانا تطوعت لحمل الحقيبة الكبيرة التي كادت ان تنفجر من الملابس التي بداخلها.. والتي لم نستطع ان نضع فيها البطانية الصوفية فلففناها حولها بحبل كبير . وابي المتعب كان مسرورا بحمل السلة الصغيرة التي وضعت فيها امي كل ما استطاعت ان تجهزه من زاد لعشاء اخي في القطار . فانه سيبيت الليلة فوق عجلاته ولن يصل كوم امبو قبل ست عشرة ساعة على الاقل ... كما قال ابي العليم باحوال القاطرات .

اما امي فكانت تحمل في قلبها هما مبهما كان يتجلى في كلماتها الحنون التي كانت تهمس بها في اذن اخي وهي توصيه ان يعتني بنفسه في غربته ... وان يسلك بما يرضى الله .. وان يحذر العقارب والثعابين التي سمعت ان بلاد الصعيد تحفل بها كثيرا . كان حسين في تلك اللحظة قد انقلب في نظرها الى طفلها البكري الذي حملته فوق صدرها وارضعته منذ اربعة وعشرين عاما ... ولم يكن شاربه الكث ولا ملامحه الخشنة تشفع له عندها وتطمئنها بانه قد اصبح رجلا.

وضمنا بعد لحظة سور المحطة ... واندفعت مجموعتنا الصغيرة بلا رغبة الى الداخل ... لم يكن هناك مفر من ان نواصل السير ... رغم ما كانت تحسه امي من رغبة مكنونة في العودة من حيث اتينا.

اما ابي فقد احسست وهو يسير مندفعا بلا ارادة ... ورأسه يرتفع الى اعلا كالمئذنة .... انه يدخل لاول مرة محطة باب الحديد مرفوع الرأس ... فقد امضى بين جدرانها ثلاثين عاما من عمره موظفا بسيطا .. اما الليلة فانه يدخلها في موكب نصره .. فهو ذاهب لتوديع ابنه الباشمهندس .

واحسست من خطواته المضطربة المتلعثمة ونظراته الفضولية التي كان يصوبها في كل اتجاه انه يريد ـ لولا الملامة ـ ان ينادي على كل من يعرفه ليقول للجميع ان ابنه البكري قد اصبح مهندسا .

وعند باب الدخول واتت ابي الفرصة .. فقد سمعته وانا غارق في تأمل المكان يحيي احد المودعين بحرارة لا اعهدها فيه :

ـ اهلا يا مبروك افندي ... اتفضل ..

ـ أيـــن ؟!

ومع ذلك فان مبروك افندي رد السلام في سرعة وذهب لحاله . وفقد ابي فرصة اطلاع واحد من الذين يعرفهم عن سر فرحه الكبير وكبريائه. وظلت عيناه تمسحان المكان وتفحصان وجوه الناس بعظمة غامضة ... حتى قاربنا باب الرصيف .

بعد دقائق سيركب اخي القطار ... وسنظل نحن واقفين على رصيف المحطة ننظر اليه نظرات الوداع .

وكما توقعت لم يسألنا عامل الباب عن التذاكر .. فان لابي بقية من النفوذ ... ولو بحكم الثلاثين عاما التي افناها هنا . ثم اخذنا نشق طريقنا بين افواج التحيات العابرة التي لم تعط فرصة لابي كي يشفي غليله.

وكان ينتظرنا على الرصيف بعض اصدقاء اخي. لطفي.. وعبد السميع .. ومحمود وبعض الذين كانوا يترددون على اخي في البيت دون ان اعرفهم . كم كان اصدقاؤه كثيرين ، لن يجيئوا بعد الان الى بيتنا ويسهروا معه حتى قرب الفجر .. دون ان تفلح تهديدات امي الطيبة.. ولن يسببوا القلق لابي المتعب بكلامهم ومناقشاتهم وضحكاتهم القاقة الظامئة .

واخذوا يتحدثون معه بصخب وهم معنا على الرصيف حتى اختنقت كلمات امي وهمسات امي . قالوا له الكثير . نظر اليه لطفي في محبة وزمالة وقال :

ـ ابقى اكتبلنا يا حسين اول ما توصل.

فلاحقه محمود :

ـ عشان تشجعنا نكتبلك احنا كمان .

واخذوا يثرثرون ويضحكون ... وانتهز ابي فرصة هدوئهم لحظة

فقال بابتسامة واثقة نقرأها دائما على شفتيه عندما يتكلم عن شيء يعرفه جيدا :

ـ اعمل حسابك انك مش حتوصل قبل الساعة ١١ بكرة الصبح .... اذا ربنا ستر ومحصلش حاجة تعطله في السكة ... اصل الخط من بعد اسيوط مفرد .

وتدخل محمود مع ابي في الحديث فسأله :

ـ وعلى كدة يوصل اسيوط الساعة كام ؟!

ـ والله لو مشى على الميعاد ... يوصل الساعة ٣ صباحا .

وعلقت امي على كل هذا الخليط بدعواتها المشفقة وتنهداتها المألوفة.. وفمها الكريم لا يكف عن الدعوات .

ثم لمحت في الشباك المجاور من العربة شابا يركب مع زوجته الجميلة والاهل يودعونهما .. ولكنه كان وداعا لحسين .. وتعلقت عيناي لحظة بوجه الزوجة النضير وبسماتها التي كانت تتسع وتتلألأ بالسعادة . يبدو انهما عريسان ... وهي مسافرة مع زوجها الى عمله بالصعيد. وتمنيت في تلك اللحظة لو كانت لاخي زوجة مثلها تؤنس وحدة لياليه الفارغة التي تنتظره هناك في البلدة البعيدة المقفرة .

ثم انتهز ابي فرصة انشغال اصدقاء اخي بالحديث مع بعضهم في مسألة ما ... فوضع في يده خلسة ورقة مالية من ذات العشرة جنيهات. واحسست من ملامح وجه ابي الداكنة وهو يعطيه النقود انه يريد ان يقول له الكثير . كم تعب حتى حصل ابي على هذه الجنيهات العشرة. كم اعيته الحيل الشريفة .. وكم لجأ الى الاصدقاء ومن بينهم عبد الرزاق افندي واخيرا اضطر ان يقبل ذهاب امي الى رفعت بك لتستدين المبلغ منه بعد ان اخذ في مقابله كمبيالة للسداد في وقت محدد ... وهو يعتذر اعتذارا ـ قبلته المرأة الطيبة ـ لان كثيرين من الاقارب قد خدعوه ولم يردوا ما اقترضوه ... فاقسم الا يعطي احدا الا بضمان .. ولا ترضي امي بحال ان يسقط يمينه .

كان لا بد ان ندبر المبلغ لاخي بأي ثمن حتى لو كان ذلك على حساب كرامة ابي ونظرة العائلة الينا جميعا . فان اخي لن يقبض مرتبه الا بعد شهر . ولكن ابي لم يقل شيئا ... بل نظر اليه نظرة طويلة عميقة ... تعبر عن الكثير من تلك الكبرياء المختنقة التي كان يعانيها . وفهم اخي ما لم يرد ابي ان يقوله .. واجاب بنظرة شكر طويلة عميقة ... ولمحت على تضاريس وجهه الصارم وعدا خشنا اكيدا انه سيجنب اسرتنا مثل هذه المواقف المحرجة . سيتكفل من الشهر القادم بكل العجز الذي تعانيه ميزانية اسرتنا الصغيرة . بل قرأت على وجهه الجاد تأكيدا حارا بانه سيرتقي بهذه الاسرة .. وسينقلنا من الشقة البسيطة التي ضمت متاعبنا والامنا هذه الاعوام الماضية الى شقة اخرى كبيرة تدخلها الشمس ... فتطيب رجل اختي المريضة بلبن العظام .. ويفرح فيها الصباح بالبسمات والنور .

وسرح خاطري في الماضي القريب وما حفل من متاعب مرت بها اسرتنا منذ ان احيل ابي الى المعاش وزادت نفقات اخي بالجامعة .. ونفقاتي انا ... ومحاولات امي اليائسة لتدبير شئون هذا العالم الصغير المثقل بمصروفات الجامعة ... وأثمان الكتب واللوحات الهندسية والملابس.. والسهر طول الليل . ومرض ابي العضال

وتوقفت خواطري لحظة وانا اتذكر مرضه الطويل الذي ارقده الفراش عامين كاملين لم ينم فيهما ليلة واحدة من الالم المجرم . لقد اسر الى الطبيب الذي كان يعالجه بمخاوفه من ان يكون ابي مريضا مرض الموت .. وانه ليس هناك فائدة ... يقول هذا بعد ان يكون قد حصل على اجرة الكشف. وقال لي ايضا ضمن ما قال ان المرض اللئيم قد تأصل في جسده منذ خمسة اعوام ... وانه كان من الممكن في بدايته ان ينتصر عليه بحقنة واحدة .. ولكن ابي كعادته ... كابر وعاند الالم .. كي يوفر قروشا من اجلنا ..

كم كنت اسمعه يتمتم وهو يتأوه بالليل ناظرا الي وانا اعطيه الحقنة التي تخفف الالم :

ـ مش عاوز اموت قبل ما اشوفكم كويسين .

وعبثا كانت كلماتنا التي تفوح برائحة اليأس تطمئنه انه سيعيش .

ايام سوداء .. كنت اراها وانا اقف على رصيف المحطة صامتا كالجماد تترى امام ناظري كشريط سينمائي لشفاء يولى ظهره منكسرا ... ارى من خلال كآبته افراح الفجر المنتظر .

وانتهيت من خواطري المتخمة بالاحزان على نظرة متفائلة من حسين وهو ينظر الى ابي المتعب وكأنه يطمئنه باصرار :

ـ لن تعود هذه الايام يا ابي .. لن تعود .

وانقضت اللحظات الباقية دون ان احس وانا غارق في صمتي تمتصني تلك الذكريات الاكلة . كان لا بد ان تنقضي .. وان ينتزعني من اخر فقرة منها صوت جرس المحطة وهو يعلن في نغمة كئيبة قرب قيام القطار . النذير .. لقد اوشك على الرحيل في ظلام الليل. ورن صداه في الجو حاملا تيارا من الاحاسيس تجيش في اعماقنا ... ويذيب بقايا صور الماضي التعس من خاطري.

وكانت اختي الصغيرة اسرعنا في الاستجابة لتأثير هذا النذير . فقد سمعت صدرها يجهش ببكاء مر بعد ان احست ان القطار على وشك الرحيل وانه سيأخذ حسين معه في جوف الليل . انها لا تريده ان يسافر . كان يحبها ويداعبها اكثر من اي فرد منا . انها تحس انها ستفقد بذهابه شيئا غاليا . وحاولنا ان نسكتها ... وانشغلت امي بتهدئتها بعض اللحظات عن رغبتها هي ايضا في البكاء .. واخيرا قال لها حسين :

ـ متعيطيش بقى يا نوسة ... انتي صغيرة واللا ايه ؟ .. انا حاسافر واجيلك بعد شهر ومعاي هدية كبيرة .

اما ابي فقد شعرت ان زهوه قد تطور الى دوار ... كأن مطرقة الجرس قد هوت على راسه .. وظل صامتا ينظر الى ابنه نظرات غامضة تفيض بالاستسلام .

واخيرا ... بكت امي . فاض بصمتها الكيل . كانت تريد ان تنفس عما بقلبها من جمر فلم تجد خيرا من دموعها الصريحة. ولاول مرة رأيت اخي ينحني من شباك القطار ليطبع فوق رأسها الذي بدأ يشوبه البياض قبلة تتوج بها شقاءها المخلص معه لمدى اربعة وعشرين عاما .

وفجأة دوى رنين الجرس الثاني... كان الصدى قويا .. اكثر اصرارا من ذي قبل . وبعد لحظة انطلقت صفارة ولكن رنينها ضل واخترق نسيج قلبي . وتابعها صوت وش البخار وهو ينصرف من محبسه بالقاطرة . كأن القاطرة كانت تنفس هي الاخرى عما باعماقها من ضغط محتبس ... مثل صهر العواطف التي كنا نكتوي بها عندئذ .

واخذ القطار يتحرك .. كأن يدا مجهولة عاتية اخذت تشده الى الامام رغم نظراتنا التي كانت تتشبث وتمسك باصرار يائس بوجه اخي وهو يغيب معه في زحام المودعين .. ونحن نلوح له بايدينا ... ونسمعه من حناجرنا المجروحة كلمات وداع.. وامنيات بسلامة الوصول.

وسرنا وراء القطار نجر اذيالنا في خيبة حتى باب الرصيف . وعند الفناء الخارجي ودعنا لطفي ومحمود وعبد السميع وذهبوا لحالهم ... وسرت بجوار امي وابي صامتا . ولكن ابي مزق الصمت ونحن نصعد كوبري شبرا في اتجاهنا الى المنزل وقال لي وهو يربت على كتفي بخشونة جمعت بين الاستياء والحنان :

ـ شد حيلك انت كمان ... عشان تتخرج زي اخوك .

كانت كلماته تفوح برائحة الامل المرهق وهو يطلب مني ان اريحه انا ايضا من متاعبي وان اجتهد في دراستي هذا العام ... ووجدتني لا اعرف كيف اجيب بل ظللت انقل معه الخطى في غير تردد وانا اشعر ان احاسيس الليلة وامنياتها كلها قد انعقدت علي وحدي.

ودخلنا المنزل . كان ضوء المصباح الخافت في الردهة يهمس في ملل ... المكان كله كان يبدو شاحبا تنقصه الحيوية .... لم اعهده من قبل بمثل هذه الكآبة والصمت ... فكم سمعت هذه الجدران صراخه العالي وكلماته التي كانت لا تخلو احيانا من الوقاحة عندما كان يشتط في طلب شيء ولا تستطيع امي ان تلبيه .. اما الان ..

ودخلت حجرتي .. كانت هي الاخرى فارغة ... واحسست انني اشم رائحته في كل قطعة من اثاثها ... وانا اتجه في تخاذل لاجلس على المكتب .. كنت اراه امامي ... فكم شاركني في الماضي الجلوس هنا ليالي طويلة .. هي سجل شبابنا المتخم باحلام ظامئة ... ثم اخذت كلمات ابي ترن في اذني وتهيب بي ان اجتهد ورغم اننا كنا لا زلنا في بداية العام الدراسي.. الا انني شعرت انني يجب ان اذاكر .. ان انجح هذا العام .. واحقق امنية ابي.. يجب .. يجب .

وانقضى اغلب الليل . لم اعهد في نفسي حماسا مثل هذا من قبل ... كنت لا احس باللحظات وهي تمضي منطلقة بي الى الغد ... وانا غارق في دروسي .. كنت اقاوم التعب والرغبة في النوم كمن يصارع غريما وهو يشتغل بالارادة والعزم .

واقتربت الساعة من الثالثة صباحا ... فاحسست ان قواي تضمحل ... فقمت من حجرتي وانا اشعر بشيء من الرضا . يجب ان اداوم على هذا كل ليلة .. لن اذهب غدا مع صديقي احمد الى سينما مترو كما وعدته .. وكما تعودنا مساء كل خميس ... ولن التحق هذا العام بفريق التمثيل بالكلية .. ولن .. ولن .

ودخلت حجرة النوم .. وسمعت انفاسهم تتردد في رتابة .. ورأيت ابتسامة تطلى وجه ابي وهو غارق في النوم .. ابتسامة تنسى بانه قد اسلم ابنه حسين لعناية الله واطمأن .. اما اختي فكانت هي الاخرى تبتسم وكأنها تحلم بالهدية التي ستأتيها بعد شهر كما وعدها حسين فتزهو بها على اطفال الجيران .

واذ كنت على وشك ان اصعد الى فراشي واطفيء النور ... وجدت امي تتقلب على ظهرها، واذ احست انني ما زلت يقظا قامت من رقدتها وسألتني وهي تفرك عينيها :

ـ أنت لسه صاحي يا ابني ؟!.

ـ أيوه يا ماما ..

ـ هي الساعة بقت كام دلوقتي ؟!..

ـ ثلاثة وزيادة ..

ـ يعني تفتكر وصل اسيوط ؟!

القاهرة — فتحي زكي

من مفكرة رجل مضيع

١ /٧ لماذا ؟
٢ /٧ اما من جواب
يبرر بطشك ؟
٣ /٧ قميء وجودك .. فاختنـق
خيوط السؤال
٣ /٧ لماذا ؟
٤ /٧ سأهدم عرشك
٥ /٧ انا عنكبوت ، ولي الف رجل
أصيد الذباب
أزجج للسادرين شباكي
على كتفيَّ جراب
وملء جرابي سباب
امج السباب بوجه السحاب
مشانق للعابرين نصبتُ
علكت الحديد
واعلك حقدي
ويجتر حقدي عروقي
٦ /٧ كجرذ يطارده الصبية الاشقياء
فيقبع بين المجاري
أنا هكذا يا صديقي
دمائي صديد
اسير ، وملء طريقي
حراب
عيون السعاة كهوف عميقه
يموت الضياء بموتي ..
تقيأت حتى حقيقة نفسي
ظلام طويل نهاري
وحقدي قباب
٧ /٧ ... وعشرا ونهدي اله
افرخ شيئا صغيرا ضريرا
اقول : يصير بصيرا .. كبيرا
واشفق الا يصير
لاني — وطين انا —
اخاف الجحود
ففي الطين طبع جحود
٨ /٧ لحقدي نحتُ القيود
وها انذا كالرزين الوديع
اطامن حقدي المريرا
اكوّره في صميمي
جبالا من الصمت — يا شفتي
اشهدا لي —
عقدت لاحبسه في دمائي
فحقدي غشوم
وحقدي لا يستبين التخوم
اخاف اذا ثار يوما
وافلت ان يستقر بوجه الوجود
٩ /٧ ظلام يشق بقلبي طريقه
زؤان ولا شيء غير الزؤان
دمائي غريقه
هنا في بحار الهوان
أنا من زمان
حرائق صدري تنث الدخان
وتذرو الرماد
وشيء كحقدي اسود
يسيل ، يزيد اتقاد
وهذا انا في طريقي
تمزقني دهشة عاريه
أموء
تموت رؤاي
ادير — غريبا هنا — نظراتي
وشيء بلون الزؤان
يهز دماي
يقيء بقلبي الدجان
ظلام كثيف يشق الي طريقه
٧/١٠ واستقبل الشارع المستطيل
كساقي عجوز تموت
انا عنكبوت
نسجت شباكي
تربصت فيها
وعشرا تقوقعت بين المجاري
وعشرا تنفست ريح الصديد
وعشر نحتُ القيود
وعشرا كرهت نهاري ..
.. وهذا انا من جديد
اجرر عمري البليد
واستقبل الشارع المستطيل
وارمي الى ما خدعته
وخنته
واشعر ان عصورا ترامت
علي بجبسي
٧/١٢ يهز الدوار دمائي
والهث ، كلبا عدا الف ميل
تساقت تلا
والهث لصا يطارده (العادلون)
واضحك كالابله اللامبالي
وتعصر قلبي الحقيقه
وابصق : مات ورائي
ومالي أمام ، لان الأمام ضرير
وما للأمام عيون
واشهق ، هذا الهواء الجديد
انا منذ جيل عرفته
شممته
تفيأت دنياه طفلا
وبغد الطفوله
الفت هواء المجاري
نسيت الوداعه
عرفت الضواري
حببت الظلام
كرهت الضياء
وهذا انا من جديد
اجوس خلال الدروب العتيقه
كأني وليد جديد
تدغدغني فرحة عاتيه
وتجرحني نسمة صافيه
ولكن هذا الدوار اللعين
يهز دمائي
٧/١٤ وامشي وامشي
وتمتد ملء الدروب
صحارى جليد
واقبية من لغوب
٧/١٦ تساقت — لي الف رجل —
جدارا
تخذت حبيبه
سلخت السنين الجميله
افرخ شيئا ، اكونه بمزاجي
أزوقه ، استثير بعينيه نارا

لاحرق جدبي عليها
وهذا انا بعد عشر
اعانق ليل الضياع
فما لي شراع
سنيَّ الجميلة ماتت
امانيَّ تذوي
شراعي تكسر بين الفجاج
وعيني زجاج
بوجه الذي قد خلقت، رأيت

٧/١٧ واعبر هذي الطريق
ثلاثين مره
مسيحا : صليبي حديد
تقهقه في وجهي الجلجله
اعب عذابيَ حتى الثماله
وتهوي يد فوق راسي
تمط شفاهي
لاكرع سؤر الحثاله
واشعر اني ذباله
تؤرجحها العاصفه
وعين مضللة واجفه
تغذ بقلب المتاه
بلا عاصم او اله
ولا مرفأ او مظله

٧/١٨ تعزت وقالت :
نحبك انت الطريد
نمد عيونا تظلك عند الوداع
نمد قلوبا لتلقاك حين تعود
والثم فاها
واقضم ثم شفاها
وارشف مقله
واخنق دمعه
واجثو على ركبتيا
واخذ طفلي بين يديا
وارنو الى ستة تائهين
تراموا علىعتبة البيت: اعرف اني مضاع
صغاري جياع
وتفتأ تقرع سمعي : طريد .. طريد .

٧/٢٠ هنا ستة كل عين حكايه
هنا ستة كل ظن ينام
على حلم ان سوف يأتي الطعام
هنا ستة كل ثغر يموء :
« عليك ابانا السلام »
واعرف انهم للرغيف الوضيء
يرشون هذا السلام
صغاري جياع
أأطعمهم من حناني وحبي ؟ .

٧/٢١ وخالد يا ام خالد بعد وليد
انا قد سلخت السنين اجود
بنضرة عمري الودود
لافرش هذي الخدود
بلون الورود
لاطعم خالد والاخرين
واعرف أنك نفس كريمه
ولكنني بت اخشى عليك
اذا مد ثغره
ليعصر نبعا سخيا
وكان تعود ان تمنحيه غذاء شهيا
فألفى الينابيع في صدرك البكر غاضت
ولم يلق في النهد ريا
اخاف ... اخاف
اذا خال نهدك شيا
وصوَّره الجوع لحما طريا
وعجت به الف ثوره
فأهوى يمزق فيه الامومه
انا بت أخشى عليك
واخشى عليه ، فخالد بعد صغير

٧/٢٣ عرفت الضياع
بلوت عواء الذئاب
وحوش كثيره
ترامت بأعماق قلبي
واخشى عليه سعير الذئاب
اذا ما استفاقت بصدره

٧/٢٥ اسير هنا في مجاري المدينه
كضفدعة ليس تملك غير النقيق
ولكن صوتي غريق
وتزكم انفي العفونه
وعيناي كهف تأسَّن ماؤه

٧/٢٦ يداي بجيبي
عيون المشاة حزينه
عيوني حزينه
وجودي ابله
يقعر جوعيَ انسان عيني !

٧/٢٧ لسوف امزق رقمي
فما عدت آله
تدور ، تجعجع ، تنسل
تفرخ شيئا ضريرا
وتزعم ان سوف يغدو بصيرا
لدغت ،
ولا يلدغ المرء الا اذا كان عيا غريرا
وهذي الوجوه التي تتوالى بدربي
نسيت معالمها من زمان
واشعر اني شيء مقيت
يسيل ليونة

٧/٢٨ انا عنكبوت
وبالوعة ينتن الماء فيها
ومدخنة تنثر السم عبر الفضاء

٧/٢٩ ليأكلني جوعي
انا لا أبيع بمجد الرغيف
بمجد الالوهة ذاتي
لتنحر حياتي
ليهرأ دمي
انا لا ابالي
وان كان لي ستة جائعون
تراموا على عتبة البيت كالضائعين

٧/٣٠ كما يأكل الهر جوعا صغاره
سآكل يوما صغاري

٧/٣١ ايا ام خالد هل تفجعين
اذا انت ابصرتني ذات ليله
اكب أمزق هذي الوجوه الوضيئه
والعق من دمها المستكين ؟

٨/ ١ سآكلها مثلما يأكل الهر جوعا صغاره
انا كي أمزق جدبي
على نار اعينها . قد تكور نهدي آله
وفرخت هذي الثغور البريئه
سأخنقها في الظلام
ولن ادع الاخرين
يرون الى صفرة الموت فوق الخدود
كتبت الجريمة
وسوف اكفِّر عنها

٨/ ٢ احب الوجود
٨/ ٣ كرهت الوجود
٨/ ٤ انا عنكبوت
وشيء مقيت
٨/ ٥ وجودي خطيئة

دمشق — **خليل الخوري**
من جمعية الادباء العرب



كان موسى بن نصير اول حاكم عربي دانت له اسبانيا ، وفي الوقت ذاته اول وال من قبل الخلافة الاموية في دمشق . الا ان ولايته لم تطل اكثر من ثلاثة اعوام طلب اليه الخليفة على اثرها ان يتوجه اليه في دمشق مصطحبا معه طارقا بن زياد . وعين موسى واليا على اسبانيا قبل رحيله ابن عبد العزيز بن موسى الذي حكم البلاد بين ٩٥ - ٩٧ هـ (٧١٥ - ٧١٦ م) اذ قتل في هذا التاريخ واحتل مكان وال جديد هو ايوب بن حبيب اللخمي ..

وهكذا اخذ الولاة يتعاقبون على حكم الاندلس اما بتعيين من الخليفة مباشرة او بتعيين من والي شمالي افريقيا حتى قدم عبد الرحمن الداخل الاموي الى الاندلس فاحتلها واسس لنفسه ولعقبه فيها ملكا ثابتا . ولذلك فالفترة التي سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل تسمى « بفترة الولاة » لان حكامها كانوا نوابا عن الخليفة الاموي في دمشق . ولكن منذ ان وضع صقر قريش يده على العاصمة قرطبة اصبحت حكومة الاندلس تدعى « بحكومة الخلافة الاموية » ولو ان عبد الرحمن الناصر سيكون اول من يجرؤ على اتخاذ لقب الخلافة اذ اكتفى اسلافه باتخاذ لقب « أمير » .

وصلت الدولة العربية في الاندلس كما نعلم الى اوج ازدهارها ومجدها في عهد الخلافة الاموية ، فعصر عبد الرحمن الناصر هو عهد القوة والرخاء والعظمة والامن اذ ازدهرت فيه الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والاداب والفنون ، وخطب ود الناصر معظم ملوك العالم فارسلوا اليه بسفاراتهم ينشدون صداقته وتأييده وكانت اولى تلك السفارات من قبل قسطنطين السابع قيصر بيزنطا . وتفيض الروايات في ذكر تفاصيلها الشيقة ووصف الهدايا التي قدمتها للخليفة الناصر ، والاستقبال الرائع الذي قوبلت به في بلاط قرطبه .. ثم اعقبتها سفارات متعددة من قبل ملك الصقالبة بطرس وملك فرنسا لويس الرابع وخاصة سفارة امبراطور المانيا اوتو الاكبر الذي كان يومئذ زعيم النصرانية في العالم . هذا كله عدا عن السفارات الدائمة التي يتلقاها الناصر من الدول النصرانية الاسبانية في الشمال ...

ولم يكن عهد الخليفة الحكم الثاني عهد ضعف وتأخر على الرغم من اهتمامه الشديد بالمطالعة والكتب ، حتى ان مكتبته الخاصة كانت تحوي ستمائة الف (٦٠٠ الف) مجلد قرأها وعلق عليها جميعا حتى دعاه الناس بدودة الكتب .

اما عهد الخليفة هشام الثاني وحاجبه المنصور محمد بن ابي عامر فلم يكن ليقل عظمة وجلالا وقوة عن عهد الناصر اذ استطاع الحاجب المنصور ان يرمي هيبة الحكم في قلوب الجميع وان ينشر الامن والعدل في جميع انحاء شبه الجزيرة الايبرية من اقصاها الى اقصاها ، كما استطاع ان يلقي الرعب والهول في قلوب اعدائه فأتى اليه ملوكهم صاغرين طائعين لانه غزا بلادهم سبعا وخمسين غزوة في ظرف ستة وعشرين عاما فقط.

حدثت وفاة الحاجب المنصور في سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) تاركا بعده دولة قوية عزيزة الجانب موطدة الاركان . بيد انه ما مضى على ذلك ثلاثون عاما فقط حتى تداعت تلك الدولة وانهارت واعلن وجهاء الناس في قرطبة الغاء الخلافة الاموية نهائيا في سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) واعلان حكومة جديدة ليس فيها شيء من مظاهر الخلافة وضعوا على رأسها عميد الجماعة ابا الحزم جهور بن محمد بن جهور.

وهنا ربما يستغرب الانسان كيف حدث هذا الانقلاب السريع وانحدرت الدولة الاموية في الاندلس من اوج عزها الى اسفل الحضيض في مدة لا تتجاوز الثلاثين عاما؟

ان الجواب على ذلك يكمن في صميم تاريخ الخلافة الاموية خلال القرون الثلاثة التي حكمت فيها الاندلس ، ويكمن خاصة في تاريخ هذه الاعوام الثلاثين التي اعقبت وفاة المنصور ابن ابي عامر .

لو اردت ان ابحث في مجموعة الاسباب التي ساعدت على انهيار الخلافة الاموية لطال بي الحديث ولخرجت عن الموضوع الذي عينته لنفسي في هذه المقالة ، اذ انني اود ان اتناول بالحديث هنا تلك الحكومة التي اسست في قرطبة بعد انهيار الخلافة الاموية والتي تدل كل مظاهرها على انها كانت حكومة « جمهورية » بحتة قريبة في نظامها كل القرب من انظمة الحكم الجمهوري التي تسود معظم دول العالم الان ..

اما البحث في عوامل انهيار الخلافة الاموية وسقوطها على الرغم من المجد الذي بلغته يام الناصر والمنصور فيستحق ان يكون اساسا لمقال جديد هام يعالجه احد المهتمين بالدراسات الاندلسية . ولعل الظروف تتيح لي في وقت قريب ان اتولى بنفسي الاجابة عن السؤال الذي طرحته منذ قليل .

بدأ الضعف والانحلال يتسربان الى الخلافة الاموية في قرطبه منذ عهد عبد الرحمن بن ابي عامر الذي ورث الحجابة للخليفة هشام الثاني عن اخيه الحاجب المظفر عبد الملك . فقد كان عبد الرحمن هذا طائشا ، مغرورا ، خليعا ، فاسقا لم يستطع اهل قرطبه تحمله فثار عليه احد احفاد الناصر وقتله واعلن خلع الخليفة هشام الثاني وتنصيب نفسه مكانه . ولكن هذا الخليفة الاموي الجديد ومن اتى بعده من الخلفاء الامويين بين سنة ٤٠٠ - سنة ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ - ١٠٣١ م) اثبتوا ضعف شخصيتهم في كل المناسبات التي مرت بهم فرأى الناس ان يبدلوا العائلة

الحاكمة وسمحوا لال حمود ان يتربعوا على عرش الخلافة في قرطبة بين سنة ٤٠٧ – سنة ٤١٤هـ (١٠١٦ – ١٠٢٣ م) ، بيد ان هؤلاء لم يكونوا عند حسن ظن القرطبيين بهم فابعدوا عن الحكم وعاد الناس الى اسناد الخلافة لاحد الامويين : المستظهر بالله .

دامت هذه التجربة الجديدة ستة اعوام اخرى تأكد أهل الاندلس على اثرها ان بني امية لم يعودوا اهلا لتسلم زمام الحكم ، فأجمعوا رأيهم على تسليمه لجهور بن محمد بن جهور الملقب بابي الحزم والذي لعب الدور الاكبر في تطورات الموقف في الفترة الاخيرة .

لكنهم عندما عرضوا عليه ذلك رفض تسلم المسؤولية فألحوا عليه ليقينهم بعدم وجود رجل اصلح منه لتسلم ادارة البلاد انذاك ، فما كان منه تجاه الحاحهم الا ان قبل طلبهم ولكن بشروط معينة .

فان ابا الحزم ابن جهور ذلك الرجل المسن العاقل الذي رأى ما جره الحكم من ويلات ومن مآس على الخلفاء السابقين حين عزلهم وما رآه من تقلب اهل قرطبة وحبهم للفوضى وسرعة مللهم من السلطان ووجود الكثيرين من الطامحين في الحكم ، لم يكن ليرضى بعد ذلك كله ان توضع مسؤولية الحكم في قرطبه على عاتقه وحده. فلما قبل تسلم الحكم شرط عليهم :

١ – الا يتسلم الحكم وحده بل يشاركه في ذلك وزيران اخران

٢ – الا يتخذ اي لقب من الالقاب الخلافية والملكية بل يحكم بصفته وزيرا للجماعة وممثلا لها .

٣ – الا يتخذ قصر الخليفة مقرا له بل يبقى في نفس المنزل الذي كان يسكنه

٤ – ان يتسلم الامر موقتا ريثما يحل محله شخص يتفق الناس على امارته .

وقد قبل الجميع مطاليبه هذه ووافقوا عليها ، وتشكلت بذلك حكومة قرطبة الجديدة التي نستطيع ان نقول عنها بان نظامها اقرب ما يمكن الى النظام الجمهوري .

هذا وقد حاول بعض المؤرخين ايضا وعلى رأسهم المستشرق الهولاندي دوزي Dozy تشبيه حكومة بني جهور بحكومة القنصلية التي انشأها نابليون بونابرت في فرنسا . فحكومة القنصلية كانت تتألف ايضا من ثلاثة اشخاص والحكم الفعلي فيها بيد نابليون كما كان الحكم الفعلي في قرطبة بيد ابي الحزم ابن جهور .

وقد قال المستشرق الاسباني المعروف «اميليو جارسيا جومث» E. Garcia Gomez عن النظام الذي اوجده ابو الحزم في قرطبة انه نوع من النظام الجمهوري البورجوازي .

على اي حال ، نرى من خلال الشروط التي فرضها ابو الحزم على مواطنيه لقبول الحكم ومن تعليق بعض كبار المؤرخين على نظام الحكم الذي اقامه في دولته بقرطبة انه نظام جديد من نوعه بعيد عن النظام الملكي او الخلافي السائد انذاك في الاندلس والمشرق الاسلامي.

ومما يؤيد قولنا في طبيعة الحكم الذي اقامه ابن جهور في قرطبه لاول مرة في تاريخ الاندلس اعماله وتصرفاته التي كانت تتميز بصورة جلية واضحة عن تصرفات باقي ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون الاندلس ..

حكم ابو الحزم وفقا للنظم الجمهورية الديمقراطية ، فلم يكن يريد ان يستبد في رأي او يقرر شيئا بمفرده او يبت بقضية دون عرضها على الوزراء الاخرين . فاذا طلب منه ان يمنح اي شيء لاحد اجاب بان ذلك ليس من صلاحيته وانما من صلاحية المجلس الحاكم وانه ليس سوى منفذ لاحكام ذلك المجلس . واذا وجهت اليه رسالة رسمية تتعلق بشأن من شؤون الدولة رفض ان يطلع عليها بمفرده ، بل حملها الى المجلس لكي يفضها امام الجميع قائلا بان الرسائل لا يجب ان توجه اليه وحده بل يجب ان توجه الى مجلس الوزراء عامة . وكان يعتبر ان كلا من الوزراء يحمل على عاتقه قسطا من تبعية الحكم ، فلا يتخذ اي قرار دون ان يكون قد نال موافقة الجميع .

لم يتخذ ابو الحزم ابن جهور خلال حكمه اية سمة من سمات الملوك . فلم يترفع عن القوم بل ظل يخالطهم ، فيعود المرضى ويحضر الافراح ويشهد الجنائز على سابق عادته . وذكر ابن خلدون ان ابا الحزم ابن جهور كثيرا ما كان يؤذن في الناس في مسجد قرطبه بالربض الشرقي. ولم يغير لباسه فيتشح بالطراز الذي كان يستعمله الخلفاء عادة بل ظل بلباسه العادي على بساطته . وعوضا عن ان يتخذ لنفسه احد قصور الخلافة مسكنا له ولعائلته اكتفى بترتيب البوابين والحشم على ابوابها دون ان ينتقل الى احدها وتابع حياته في نفس مسكنه المتواضع يدير منه امور العاصمة بجد وعزم وعدل .

لم يكن ابو الحزم رغم براعته في الحكم ورفعة قدره ، متكبرا ولا صلفا ، بل كان من اشد الناس تواضعا وعفة ، ظاهره كباطنه، لم تتغير اخلاقه وعاداته بتوليد الحكم ، ولم يختلف له حال من الفتاء الى الكهوله .

وكان من اشهر ما اتاه لاصلاح الحال في قرطبه ، امره بمنع شرب الخمور ، فقد كان يرى ما يؤدي اليه الافراط في شرب الخمرة من تدهور خلقي وصحي ، فمنع تعاطي ذلك وكسردنان الخمرة في جميع انحاء مملكته . وقد مدح الشاعر ابن زيدون ابا الحزم لقيامه بهذا العمل فقال فيه ..

اباح حمى الخمر الخبيثة حائطا	حمى الدين من ان يستباح له حد
فطوق باستئصالها المصر منة	يكاد يؤدي شكرها الحجر الصلد

كما ان من اهم اصلاحاته الداخلية طرده من قرطبة عددا كبيرا من النمامين الثرثارين الذين كانوا يعيشون من الوشاية واثارة المشاكل ، وقد عين للاحقتهم عددا من الموظفين كانوا يتقاضون رواتب كالقضاة . كما انه اخرج من قرطبة الاطباء المزيفين الجهلة ، الذين كانوا يسمون انفسهم اطباء دون ان يكون لديهم شيء من التجربة او العلم، وامر بتأليف لجنة من اشهر الاطباء لفحص الذين يدعون معرفة الطب ويرغبون في ممارسته في المستشفيات .

وزيادة في الحرص على السلامة العامة ، فان ابا الحزم ابن جهور كان يعهد الى اقرب وزرائه واوثقهم لديه بحراسة المدينة والسهر على الامن فيها بواسطة رجالهم واعوانهم ليلا نهارا . وكان يوجد في كل حي من الاحياء عدد من الرجال المسلحين المكلفين بالتجوال في الشوارع لتامين راحة الجميع . اما الاحياء التجارية التي تضم المخازن والبضاعة فكان لكل منها بابها الذي يغلق في ساعة معينة . كما ان باقي الاحياء كلها كان لها ابواب تغلق عند اللزوم ، اي في حالة حدوث اضطرابات ليلية لكي يستطاع منع الاشقياء من التنقل بسهولة بين حي واخر ..

وكانت نوبة كل حارس تدوم يوما كاملا ، ثم حين تنتهي مهمته يسلم سلاحه لمن ياتي بعده كما ينبئه بما حدث خلال نوبته اذا كان هناك شيء يذكر .

وقد خفف ابو الحزم خلال حكمه من تطبيق العقوبات الصارمة على

المذنبين واتبع سياسة اللين والحكمة فمنع انزال الحدود ما وجد الى ذلك سبيلا ، واجتهد في منع الكي بالحديد لعدم اجماع المجتهدين على ضرورة ذلك ولانه رأى ان اللين والاعتدال ربما ساعدا على القضاء على الفوضى المنتشرة حينذاك في البلاد . وفعلا فقد اعجب الناس بسياسة ابي الحزم وكفوا عن التظالم والتسافك بخلاف ما كانوا عليه تحت الضغط الشديد حين كان جبابرة اصحاب الشرطة يسومون الناس سوء العذاب واصبح لا يسمع في قرطبة من حوادث الشر الا الشيء النادر الفـذ .

اما من الناحية الاقتصادية فقد اشتهر ابو الحزم خاصة بنزاهته فالخلفاء الامويون قبله ،كانوا يعتبرون بيت المال ملكا خاصا لـهم يتصرفون به كما يشاؤون وينفقون منه دون حساب ، اما هو فكان يعتبر ان بيت المال للامة ولذلك رفض رفضا باتا ان يوضع تحت تصرفه ، وعهد به الى جماعة من الثقاة في المدينة سلمهم اياه بعد ان احصاه عليهم وكلفهم بتنظيم حساباته تنظيما دقيقا لمعرفة الوارد والخارج لكي لا يضيع على الشعب قرش واحد من بيت المال . وكان اذا سئل شيئا من المال اجاب « ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة وانا امينهم » .

وقد جعل ابو الحزم لنفسه وللوزراء مبلغا معينا يتقاضونه في كل شهر من بيت المال لا حق لهم في تخطيه ابـدا .

ورغم ما عرف عن حب ابن جهور لجمع المال وانماء ثروته الخاصة ، فان ذلك لم يكن ليدفعه في يوم من الايام الى خيانة امانة الشـعب والحصول على المال بالطرق غير المشروعة . ولكن مع ذلك فان الخطة الاقتصادية التي اتبعها في معيشته اثناء وجوده في الحكم ادت الى مضاعفة الثروة التي يملكها حتى اصبح اغنى رجل في قرطبه . وحين يتحدث ابن عذاري المراكشي عن ابي الحزم ابن جهور ينعته بالتقتير على نفسه وبالامتناع عن بذل المال للمساعدة ويقول انه لولا وجود هاتين الصفتين فيه لكمل لو ان بشرا يكمل .

ولكن حرص ابن جهور على جمع المال لم يكن ليمنعه من بذل الجهود الجبارة لاعادة الازدهار الاقتصادي الى المدينة ، فقد عمل ما بوسعه لاقامة العلاقات الودية مع جيرانه من ملوك الطوائف واستطاع ان يقيم نوعا من السلم مع البرابره، فساد الامن والطمأنينة واخذ الناس يمارسون تجارتهم بحرية تامة فامتلأت الاسواق بالبضائع المختلفة ، ورخصت اسعار الحاجيات ، وعم الرخاء في قرطبة ، وصار الناس يؤمون المدينة افواجا حتى زاد عدد السكان زيادة كبيرة واخذوا في شراء الاراضي وبناء الدور وخاصة في الاحياء المتهدمة ايام الفتنة ، فارتفعت لذلك اسعار العقارات والدور واستعادت قرطبة بذلك قسما كبيرا من مجدها السالف .

ويذكر صاحب كتاب المعجب ان من جملة النظم التي اتبعها ابو الحزم لتحسين المستوى الاقتصادي للمدينة ، هو انه احصى على كل تاجر رأسماله ولم يسمح له بالتفريط بشيء منه بل اضطر ، ان يعيش بالارباح رأسماله ، وجعله عرضة للمحاسبة والتفتيش في كل حين .

هذه الاصلاحات المتنوعة كلهاالتي قام بها رئيس دولة قرطبة من بني جهور ، والتي شملت مختلف النواحي الادارية والسياسية والاقتصادية والعمرانية جعلت قرطبة تجني اجل الفوائد واعظمها ، وعلى الرغم من ان القرطبيين لم يكونوا قد اعتادوا على رؤية ذلك النوع من الحكم ، الا انهم كانوا لا يفترون عن ترديد اسم ابي الحزم والدعاء له بل لقبوه بابي الشعب وحامي الدولة .

اعتبر جهور بن محمد بن جهور نفسه وارث الخلافة الاموية في اسبانيا لتسلمه الحكم في قرطبه مباشرة بعد انهيار تلك الخلافة ، ولذلك فكر منذ وصوله الى الحكم بالسيطرة على الاندلس كلها ، فكتب عدة رسائل الى مختلف ملوك الطوائف يدعوهم فيها بالقدوم الى قرطبه والاعتراف بسلطانه ، ولكن اغلبيتهم اعتذروا عن المجيء بتقديم حجج مصطنعة ، مدعين ان لديهم في ممالكهم امورا في غاية الخطورة لا تسمح لهم بمغادرتها في ذلك الحين . وقد لمح بعض اولئك الملوك خضوعهم – ولو اسميا – لابي الحزم وتمنوا له العز والسؤدد والسعادة والنجاح. ولكن اهم اولئك الملوك في الاندلس اظهروا عدم اهتمامهم به واكدوا استقلالهم ببلادهم وهم ملوك طليطله وسرقسطه ومالقه واشبيليه وغرناطه وبطليوس .

ولكن ابن جهور تجاهل استخفافهم به ومساعدتهم على زيادة الانقسام في اسبانيا واجابهم مهنئا اياهم بالغيرة التي ظهرت منهم في الحرص على المصلحة العامة ، وفي تأمين سلامة المقاطعات التي عهد اليهم بادارتها مذكرا اياهم بان اطراد تقدم الدولة وقوتها لا يكونان الا باتحاد مختلف اجزائها .

اذن على الرغم من الاجوبة الجافة التي قوبل بها ابو الحزم ابن جهور من قبل ملوك الطوائف فان علاقته لم تسؤ معهم ، وكثيرا ما كانوا يلجأون اليه لفض المنازعات فيما بينهم ، فيتوسط لدى بعضهم من اجل البعض الاخر ، وحين يتعذر عليه ذلك كان يفتح ابواب مدينته لايواء الملك او الامير المغلوب فيحيطه بانواع عنايته ويسبغ عليه عطفه وكرمه حتى ذاع صيته في الافاق وصار الناس يتحدثون عن صلاح حكمه وعن الفوائد التي جنتها دولتهم في ظل ذلك النظام الجمهوري.

هذا ومن المؤكد انه لو تخلى ملوك الطوائف عن انانيتهم لدى انهيار الخلافة الاموية واستجابوا لدعوة ابي الحزم ابن جهور حين اهاب بهم ان يعترفوا بسلطته ويبقوا على اعتبارهم قرطبه كعاصمة للاندلس ، وتناسوا بعض الخلافات السياسية والمطامح الشخصية التي كانت تفرق فيما بينهم ، لاستطاع الجهاورة بالصفات التي كانوا يتمتعون بها ان يوحدوا قوى العرب في اسبانيا من جديد ولحالوا دون زوال الحكم العربي في ذلك الجزء الهام من القارة الاوروبية .

خالد الصوفي

الغضب

- تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ -

بوعلاق - (يهز رأسه نفيا)

جاك - بوعلاق .. لقد استخدمنا - تقريبا - كل الطرق .. ولكنه يصر على الرفض ..

بوعلاق - نعم ...

جاك - (صارخا) ماذا تعني بنعم هذه ؟

بوعلاق - اعني ، اعني.. انه يرفض ..

جاك - ولكني ادري .. انا اخبرك بهذا .

بوعلاق - (في برودة) اني اعلم يا سيدي حتى من قبل ان تخبرني..

جاك - ولماذا ؟

بوعلاق - انه من اكثر ضباط جيش التحرير افتتانا بنفسه، انهم يسمونه هناك (يشير الى الخارج) الصقر ...

جاك - هو .. ابن حمود ؟

بوعلاق - (في صوت مستسلم ، مسترخ) هو .. ابن حمود ..

جوزيف - واذن ايها الصديق بوعلاق ...

بوعلاق - (ينظر اليه دون ان يستطيع اخفاء تشفيه تماما) .. واذن لقد يئستم ؟

جوزيف - اوه ، كلا .. بوعلاق .. انك خبيث .. ماكر .. انك كلب حقيقي !!

بوعلاق - شكرا يا سيدي ، حتى اخون شعبي ، يجب ان اتمتع بقدر وافر من الضعة وكذلك من اجل ان اتشبه بكم !

جوزيف - (يضرب المكتبة محنقا .. ويرده جاك بنظرة عما يوشك ان ينفجر فيه من غضب)

جاك - حسنا ، يا بوعلاق ، لقد يئسنا ..

بوعلاق - (مبتهجا) وعندئذ ، يأتي بوعلاق

جاك - (متظاهرا بالاستسلام) كما ترى ..

بوعلاق - (يمضي محاذرا الى باب غرفة التعذيب ، فيدفعه كل جسمه حتى يوصد تماما) الان ، الان .. اليك طريقتي ايها السيد الملازم .. اليك طريقتي كما هي (يتنهد) ان لابن حمود اختا هنا ، هنا نعم ، في قلب المدينة ، ايتوني بها ، وهي وحدها قادرة على ان تحل لسانه ... ان ابن حمود شغوف بها حتى الوله ، ذلك انها بقية اهله ... وهي معقودة اللسان ايضا .. اتدري ايها السيد الملازم بسبب ماذا ؟ لقد سفك دم اشقائها الثلاثة معا امام بصرها ... حملت حملا على ان ترى ... لقد كان ذلك من صنع احدكم ... واحد من اكفأ الضباط واكثرهم نذالة ... (يتماسك الفرنسيون بصعوبة من لسعة الغضب) انها البقية الباقية لابن حمود ، يتغذى منها بهذا الحقد اللاهب.. ومن اجل هذا تراه مفتتنا بنفسه .. بطلا .. وغير انساني (يهز رأسه) اني ادري .. لقد كان ابن حمود وديعا .. حييا .. من انصار ثقافتكم ايها السيد الملازم ... وعندما خرج الى الجبل تغير كل شيء ...

جوزيف - (يقترب من بوعلاق) بوعلاق .. بوعلاق ..

بوعلاق - نعم يا سيدي ؟

جوزيف - بوعلاق ... الا تريد ان تفضي الي بشيء ... بشيء صغير؟

بوعلاق - (ينكس رأسه)

جوزيف - كأن تصدقني مثلا .. ما هو السبب ؟ ..

بوعلاق - لست افهم يا سيدي ..

جوزيف - انك تفهم ... انك تفهم بالتأكيد ...

بوعلاق - (الى جاك) هل انا مضطر الى مثل هذا ايها السيد الملازم ؟.

جاك - (يهز رأسه) كلا ...

بوعلاق - ولكنك تدري يا سيدي ... (يلتفت الى الكابتن) .. اليس في انا النذل دليل على بطولة شعبي ايها السيد الكابتن ؟..

جوزيف - ليكن ... ليكن ...

بوعلاق - اليس في ، انا العربي اسما ، دليل على ان الخيانة التي تخرج منا ، تبدو غريبة ، مضحكة .. فريدة تماما ؟..

جوزيف - (يضبط ثورته) ليكن ...

بوعلاق - واذن ؟ اليس يرضيك ان يقع تحت يدك ... في مواجهتك تماما خائن عربي .. الا يغنيك هذا ، ويزيد في بسالتك ايضا في مواجهة العار ..

جوزيف - (يندفع صوب الرجل ، ويصفعه على وجهه بجمع كفه ..) ايها الكلب ايها الكلب ...

بوعلاق - (في رنة يائسة) هذا هو السبب ايها السيد الكابتن ... لقد كنت دائما كلبا وجبانا ... ان الفرصة وحيدة ايها السيد الكابتن ، فرصة العربي وحيدة ... يمكنه ان يسقط ، فيستمر الى الابد في سقطته ... (يتوقف ليمر بكفه على جانب وجهه حيث صفع) ما هذه انها لا تترك الا اثرا حسيا ... ذلك اني ذليل ... لقد ادخلت الى هنا مرة ... (يشير الى غرفة التعذيب) .. فلم استطع ان اتوقف ... صرعني الرعب .. فانحل لساني ، لقد اسفت .. حتى اني تمنيت الموت ... ولكنهم انذروني بهذا الشيء .. « لن تموت يا بوعلاق ، لن تموت يا بوعلاق ، لن تموت يا بوعلاق »..

روجيه - .. (في لهفة) ولماذا ؟ هيا قل لماذا ؟.. (ينتبه فجأة الى نفسه فيحمر قليلا)

بوعلاق - لماذا ؟ انك جديد هنا .. (يبتسم في خبث) تريد ان تكتشفهم ايها السيد الملازم ؟ دعهم يخبروك عن انفسهم ... اعطهم الفرصة ايها السيد الملازم .. لماذا ؟ ولكن في أي شيء يفيدهم قتلي؟ لقد اعلنت اني على استعداد للموت ... وكنت ذاهبا اليهم سعيا اليه .. ولكنهم انذروني « لن تموت يا بوعلاق » .. لن تموت يا بوعلاق .. »

روجيه - (مندفعا دون وعي كرة اخرى) واذن ؟

(جوزيف وجاك ينظران اليه في استنكار)

بوعلاق - واذن .. (ينفض ذراعيه معا) .. ان لساني يدور في فمي ، دائما ، دائما .. حتى .. حتى لا يقطع ايها السيد الملازم ..

جاك - (ساخرا) انه يدور اذن ؟ يدور دونما عذر ، دونما مكافأة ..

بوعلاق - اتظن يا سيدي ؟

جاك - انت نفسك تظن ..

بوعلاق - سوف يدور بسرعة متزايدة ... حتى يفعمهم غضبا ... وعند ذلك ..

جاك - لن يقدروا على هذا يا بوعلاق ! .. انك مخفي تماما .. دعني اصارحك بشيء الان ... سوف نحفظك دائما ، حتى من غضبنا ..

بوعلاق ـ نعم.. نعم.. بسبب من هم على شاكلتي، اولئك المقصوصون من قماشتي أنا .. ولكن ايها الملازم ... اتراني مهملا بليدا ؟

جاك ـ (في سخرية ناعمة) كيف يا بوعلاق ؟.

بوعلاق ـ واذن ؟ فسوف استهلك عما قريب ايها السيد الملازم ... عندما تستنفدوني، عندما تصبح خبراتي قديمة ، معفيا عليها ، عندما لا استطيع ان اتجدد ... عندما اعيش بينكم فما ادري فوق ما يدري صفار جنودكم .. عندها ، الن تتخـلـوا عني ايها السيد المـلازم ؟ ان نفع امثالي مرجو عندما اكون بين شعبي .. نعم .. نعم ... ايهـا السيد الملازم سوف استنفد يوما ، اني أدري ، ولكني لست في حزن ..

جوزيف ـ ولماذا تكون في حزن .. ما دمت حيا ؟..

بوعلاق ـ لماذا ؟ (يتلمس اثر الصفعة مجددا) لن يقـدر لك ان تـدرك ايها السيد الكابتن ... معنى ان اكون حيا ، فذلك هو العبء الحقيقي ... ان العربي الخائن يجب ان يموت .. دائما ، دائما ..

روجيه ـ ولماذا لا تقتل نفسك ؟.

بوعلاق ـ آه .. نسيت شيئا .. يا سيدي الشاب .. اني جبان ...

روجيه ـ لن يفيدك شيء ،سواء شجاعتك ، او جبنك ...

بوعلاق ـ كلا يا سيدي ، لن يفيدني شيء ، ان لساني يـدور بسرعة حتى يعجل نهايتي (كانما يحدث نفسه) سوف يغضبون كفاية ، ان ابـن حمود غال جدا ، ليتهم يفقدون الصبر ، ليتهم يفعلون ، ليتهم يفعلون...

جاك ـ هيـا .. تمنَّ شيئا اخر .. لنفرغ اولا من ابن حمود ... (يفرك كفيه ارتياحا) روجيه !!

روجيه ـ نعم يا سيدي ...

جاك ـ سوف يرشدك بوعلاق .. وعليك ان تأتي بها حية .. حية برغم لسانهـا المعقـود ... روجيه .. انها مهمة ممتازة ...

روجيه ـ نعم يا سيدي ..

جاك ـ (في رنة خاصة) روجيه ! ان هذه المهمة منقذة ..

روجيه ـ ادري يا سيدي الملازم ... سوف انجزها ...

جاك ـ حسنا ، حسنا ... والان هذه هي طريقتك يا بوعلاق، خارجا ... ليكن ذلك في الخارج يا بوعلاق .. [يخرجان]

جاك ـ (يدور في الغرفة قلقا متوترا) لنـر الان ، لنـر الان ... (يتوقف) هل ندعو الكولونيل ... (لا يمكن الكابتن من الرد) .. ولكن كلا ... انه حصتنا ... الن يكون منظرا عجبا .. هذه طريقة ممتازة ... وفوق ذلك فهي شائعة تماما ، ايها الصغير بوعلاق ، ايهـا الصغير بوعـلاق ...

جوزيف ـ (متأنيا) لا تعتمد على ذلك ...

جاك ـ على ماذا ؟ ان بوعلاق لا يكذب ، فهو يشي بهم بدافع مـن العبث، انه مصروع بفكرة الموت ... (يغمز بعينه) سوف نريحه ايها الكابتن ... العربي الخائن يجب ان يموت .. والفرنسي كذلك ، اوه ، الكل بدون استثناء ... انها جائحة الموت .. في كل مكان يضج الموت في الصدور ، والحلق ، على الموائد ، في ساعات الصحو ، والموت ، اننا في سباق معه ، يجب ان يموت الناس ، والا كف كل شيء عـن الدوران ...

جوزيف ـ جاك ، جاك ...

جاك ـ (في لهجة متعبة) لماذا نتوقف يا سيدي .. لماذا ؟ اخبرني..

جوزيف ـ انهم يضجون حولنا ... لن نترك على هذا النحو ...

جاك ـ من ؟ (ملحا) اخبرني ..

جوزيف ـ آه ، انك تدري

جاك ـ أدري ... ولكن من يستطيع ان يقف في وجه المجزرة ؟ لجان التحقيق ؟ سحقا لها ! ان عيونهم تحمر غيظا ، ثم تبرد وهـي تخـلـف وراءها اخر ثنية لارض الجزائر ، عندما يغيب كل شيء حقيقي هنـا وتبقى الذكريات .. في الطريق الى الوطن يختلط كل شيء مجددا الحقيقي والزائف ... يعودون فيشربون خمورنا .. ويذكرون لباس الميدان .. واللهجة الفرنسية المتعبة ، ومع ذلك يكتبونشيئا دونمـا حرارة ... يجهضون رواية الفاجعة عبر الكلمات .. والمسؤولون يقرأون فيموت السقط تماما .. سحقا لهم ! سحقا لهم .. جوزيف ـ جاك، اني من صفك ، ولكن الاباء .. العائدين !!

جاك ـ الآباء .. ايهم ؟ هذا الحارس للفضيلة الذي يتعقبني ؟

جوزيف ـ الاب جولي ...

جاك ـ هو.. سوف يأتي هنا .. لقد انذرني بانه سوف يأتي (يتطلع في ساعته) آه .. انه ينتظر منذ ساعة تقريبا .. اين المهرب ؟

جوزيف ـ دعه ينتظر ..

جاك ـ انظن ، كلا ، لن ييأس .. انه يؤنسني حقا .. يقول ان الله اختاره للحراسة .. يقول ان الله لا يعرف التعب ... ولكني متعـب فـي الحقيقة ...

جوزيف ـ لماذا لا يبشرون في مكان اخر ؟

جاك ـ اين ؟ في فرنسا ؟ ان تعب فرنسا اقل انهاكا ، وهنا يرتسم طريق خلاصهم . ان النفوس المهجورة ، لا تبغي الهداية .. الا انها صيدهم الحقيقي وهي لذلك نادرة مرغوبة ...

جوزيف ـ (هازئا) هكذا ... هكذا .. الن يمكنك ترويضه ؟

جاك ـ لقد فعلت ... يقينا .. ولكني احفر عناده في الحقيقة ... دعه الان ! ما هذه الضجة ؟ (يتناهى من الخارج صدى اصوات) الـن يمسكوا عن مطاردتنا ؟ [يرن جرس الهاتف]

جوزيف ـ (يأخذ الالة ويتسمع) كلا ... لا اريد احدا .. قلت كلا من .. ليذهبوا الى الشيطان .. انتظر (يبعد الالة عن اذنـه) ... المستوطنون ...

جاك ـ (مترددا لحظة ثمصمما فجأة) ولماذا لا ؟ دعهم ! الا تـرى كم انا تائق الى الحديث ؟ لنر ابن حمود !.. فيما بعد ... عندما يأتي دور الصبية ...

[فترة ، يقرع الباب ، ثم يدخل ثلاثة من المستوطنين ، وامرأة نصف وفتاتان صغيرتان وصبي.. وخلفهم الاب جولي ..]

السيدة وواحد من الرجال معا ـ اين القائد ؟ اين القائد ؟

جوزيف ـ صبرا ... فيم الصخب ، صبرا يا سيدتي !

السيدة ـ (تتقدم) ـ كيف ؟ الا تعلمني ، الا تعلمني كيف يكون الصبر؟

جوزيف ـ بعض الهدوء يا سيدتي ، استريحي قليلا ، [يهرع فرنسيس ويقدم لها مقعدا]

السيدة ـ (ترفض القعود) اني لا اطيق القعود ، لم اعد احتمل ، انها اعصابي ايها السيد ، ماذا تفعلون ؟ لماذا انتم خلف مكاتبكم (تمرغ وجهها بين كفيها) يا الهي ! لماذا لا تتحركون بحق المسيح ؟؟

جوزيف ـ سيدتي !

السيدة ـ (متضرعة اليه) اطفالي ايها الكابتن انظر .. انظر اليهم جيدا (تشير لى الفتاتين والصبي)

جوزيف ـ ولكن ماذا يجري ؟ ان ابناءك اصحاء موردون ، يتفجرون

عافيـــة !!..

الرجل الاول ـ (في حوالي الخامسة والاربعين) اني عمهم يا سيدي ... ولكنهم يعيشون في رعب قاتل ...

السيدة ـ (للرجل) لماذا تقاطعني دائما ؟ انك تقعد خلف النافـــذة وبجانبك بندقيتك ، وذلك الشيء الصغير، ذلك الكأس الذي لا يفرغ ابدا ... وتشير علي بالصبر .. انك سكير ليس غير ..

الرجل ـ اواه (متضرعا اليها) لا تقولي هذا يا مادلين ، ارجوك ...

السيدة ـ .. انظر اطفالي الان ، تفحصهم جيدا ، انظر انهم اطفالك تماما ، كما لو كنت ابا حقيقيا لهم ... ولكنك تقعد مجترا نشـــوة الخمر .. انظر اليهم ! (تمسك الصبي ، وتجسه بكفيها المرتجفتين ، ثم تنحني فجأة وتحتضنه) اليس ولدا صالحا ؟ الا ترى كيف يعمر العزيز الراحل خلاله ؟

الرجل ـ (يشيح بوجهه) ولكنه كذلك ، تماما (يتنهد في يأس)

السيدة ـ واذن .. لماذا لا تفعل شيئا ؟

الرجل ـ مادلين .. (في ضراعة) الم نتذاكر معا في العودة؟

السيدة ـ الى اين .. يا الهي ؟ العودة ! العودة ! ما امر الكلمة !

الرجل ـ ولماذا ترفضين يا مادلين ؟ من اجل الله ؟

السيدة ـ لماذا ؟ .. ولكن ، هل انت على يقين من رغبتك في العودة؟ تكلم .. لماذا تنكس رأسك ؟

جوزيف ـ (متدخلا) لست افهم يا سيدتي .. عفوا !

الرجل ـ سوف تفهم يا سيدي.. انها ترفض ان تعود .. هذه هـي الحقيـقة .

جوزيف (نافد الصبر) ولكن لماذا ؟ .. لماذا تريد العودة ... ولماذا ترفضهـا ؟

جاك ـ يا سيدتي اهدئي قليلا ! (الى الصبي) تعال هنا .. الـى جنبي (يبسط له يده)

السيدة ـ (تهرع في جنون فتمسك الصبي قبل ان ينطلق) كلا ... اواه .. كلا

الاب جولي ـ دعيني اساعدك قليلا .. تشجعي اينها السـيدة ...

السيدة ـ (تنظر اليه في رعب) لا اريدك انت.. كلا .. كلا .. ان الله لا يستطيع شيئا هنا ...

جوزيف ـ صبرا .. ولكن لماذا تنوئين بهذا الرعب؟

السيدة ـ (للصبي) قل لهم يا ولدي .. تكلم ! .. ماذا رأيت ؟ ماذا حملت الي امس ..مساء ؟ هل نسيت يا ولدي ؟..

الرجل ـ تكلم يا ميشو !.. هيا ..

السيدة ـ لقد امسكوه عند طرف المزرعة .. وحملوه رقعة صغيرة، كلمة واحدة .. كلمة واحدة.. الفريضة .. يجب ان ادفع .. ولكنهم اوشكوا على اختطافه .. اليس كذلك ؟ اليس كذلك يا طفلي ؟ لقد كاد ان ينطفيءرعبا ..

جاك ـ (الى الصبي) حدثني يا ميشو ... ماذا اجرى بالامس ؟..

الصبي ـ (مستغربا بعض الشيء) .. اقترب رجل مني وحياني

جاك ـ ثـــم ؟..

ثم فرك رأسي برؤوس اصابعه .. وكان يبتسم لي .. ثم ..

الصبي ـ ثم اعطاني ورقة .. الى ماما ..

جاك ـ (في لهجة رقيقة) الم تكن خائفا يا ميشو ..؟

الصبي ـ (متطلعا صوب امه) ماما .. لقد قلت لك .. لم اكن خائفا.

السيدة ـ يا صغيري المسكين .. ولكنك لا تدرك الخوف .. لقد كادوا ان يختطفونك ...

الاب جولي ـ يا ابنتي .. سوف تخلصين .. ولكن الطفل ...

العـم ـ مادلين، مادلين، ارجوك ... ان السيد الكابتن

السيدة ـ دعني ، (الى الاب) يا ابي .. اني لم اعد اطيق ... انهم يدورون حول المزرعة ، وهو قاعد ، متصبر خلف النافذة .. اواه

العم ـ الم اخرج للحراسة ؟

السيدة ـ أه ، أه .. لقد فعلت ..

الكابتن ـ يا سيدتي ، قدمي شكواك ، وسوف نجعلك في مأمن ..

السيدة ـ شكواي .. ولكن القضية مختلفة ، اية شكوى يا سـيد الكابتن ؟

الكابتن ـ سوف نحرسك في ايما مكان ..

السيدة ـ لماذا ؟.. اوه ... لماذا ؟

الكابتن ـ ولكن ماذا في وسعي ان اصنع من اجلك ؟

السيدة ـ (مندفعة) تستطيع بالتأكيد .. عليك ان تحررني .. عليك ان تعيد الي أمني .. ان هؤلاء الاطفال (تشير الى ابنائها) مروعون .. ان ابنتي لا تذوقان طعم النوم وكذلك أنا .. ماذا تريدون ان نفعل ؟ عليكم ان تتدبروا القضية ؟. فورا ، فورا ايها السيد ..

الكابتن ـ سوف نفعل !

السيدة ـ انهوا كل شيء .. اعيدوا الى هذه الارض امنها ... لقد وجدت هنا منذ البداية .. وماذا ترى في وسعي ان اعمل ؟ لقد افسدتم كل شيء . الحرائق .. ان النار تتوقد طيلة الليل فيكل مكان .. النار ثم تسود الاشجار وتصبح فحمية .. وتطل علينا في الدروب هياكـــل البيوت المتداعية ، المخربة .. ان اجراس الكنائس تقرع مؤذنة بالرعب.. ويتدفق الخائفون من كل صوب .. هل سمعت قرع الاجراس ؟ اجراس الانذار (الى الكاهن) ان مهمتكم غريبة يا ابي.. ان مهمتكم ان تحـلوا السلام وليس الرعب ...

الاب جولي ـ نحـن نلم الخائفين في بيت الله ...

السيدة ـ ولكن لماذا الخوف يا ابي ؟ من صنع الخوف هنا ؟

الاب جولي ـ (محيرا) ادري يا ابنتي ..

السيدة ـ ماذا ؟.. هيا قل شيئا ..

الاب جولي ـ سوف ينتشر السلام من جديد .. سوف ينتشر السلام باسم الاب ، يقينا ..

السيدة ـ (الى الكابتن) اننا مذعورون ... اطفالي وانا .. ولكن هل ترسلون لي حرسا فينتشرون حول البيت ..؟ لماذا اذن تفتون الرعب لماذا لا تنهون كل شيء ؟

جاك ـ (في شيء من نفاد الصبر) اليس ذلك مضيعة للوقت يا سيدتي .. سوف نحرس اطفالك ..

السيدة ـ اتسمى استهلاك النفس البشرية مضيعة للوقت ، انظـر الى هذا الرجل (تشير الى العم) انه ليس اكثر امنا منا ... وفـي حضنه بندقيته ... يثمل ، ويتحفز للمقاومة .. ولكنه يلقي بنظراته المنطفئة، المستسلمة ، الذاهلة في ارجاء البيت ، ويسقطها في قلبي وفي قلوبهم (تشير الى الاطفال) هل تسمي هذا امنا ؟..

جاك ـ ولكنه ليس اكثر من مزارع .. ان جنودنا ...

السيدة ـ ... كلا آه .. يا سيدي .. ان جنودكم يسمرون الرعب حول البيت وفي منافذه ، وفي صدورنا .. كلا .. سوف ادفع ...

ولكني منتهية تماما

جاك ـ واذن ... عندما تدفعين ينتهي دورنا .. ان ذلك من حقك، رغم ان شرفك كفرنسية ....

السيدة ـ لست اهتم .. سوف ادفع .. ولكن اطفالي يجب ان يستمروا ..

جاك ـ اذا كنت قد قررت ... فسوف يستمرون بعد اداء الفريضة !

السيدة ـ (محتدة) اواه ... لماذا لا تريد ان تفهم .. ليست القضية هي في ان ادفع او امتنع .. الكل يدفعون ... كلا ، .. اقتلوا هذا الرعب الذي يجتاح الصدور ! اننا نقرأ عن الفظائع ، انكم تتدافعون معا لتسويد القلب البشري ... الاطفال ، اه ياسيدي .. انهم يبصرون في صدور الصحف وفي صورها الافواه المقتلعة من مكمنها في الوجه .. الاذان المشرومة ... الرؤوس المفصولة عن اجسادها.. الرجال المدفونين وهم احياء .. سوف يختطفون اطفالي يوما .. اننا نعيش في ترقب ذلك الذعر الزاحف الاتي رغم كل شيء...

جاك ـ ولكن يا سيدتي .. الن تكفي ؟ من هو الذي يختطف اطفالك؟ ان الناس في امن هنا ، تحت رعاية الجيش ..

السيدة ـ (مبهورة النفس) هم ... وربما انتم .. سوف تختطفون الصغار يوما .. [يتدخل واحد من الرجال ، وهو في سن الشيخوخة].

الرجل ـ استميحك العذر يا سيدتي .. اني اقدر عواطفك تماما ... ولكن مسألة الاختطاف .. دعيني اعبر لك .. (الى الملازم) ايها السيد الملازم .. الا ترى هذا اليأس المشين الذي يعمر قلوب مواطنينا ؟ ان اليأس ينتشر دائما ، بدون توقف ... انه يكتسح اعتى القلوب واشدها اعتدادا بأرومتها .. خذ حالتي مثلا ايها السيد الكابتن .. انني املك مصنعا للخمور .. وماذا تبقى لدي الان ؟ انكم تطاردون عمالي ، وهم ليسوا من المتعصبين باية حال ، ولكن باية طريقة يمكنك ان تتفاهم مع ضابط باسل مملوء شجاعة ، ومقتنع في نفس الوقت ان اجرائي المساكين هم من غلاة الثوار ، ومن اكثرهم ولعا بسفك الدم..

ولنقل يا سيدي انهم في صف الثورة ، جبنا ، او شجاعة ، او كرما .. ولكنهم يعملون في تقطير الخمر ... اني اصدرها الى الوطن .. ان رئيس الوزراء نفسه ، وضباط الجيش في باريز يتجرعون خموري.. ماذا افعل اذن ... واذا انقطعت فاني اموت يأسا ... وكذلك سأموت اذا استمر ضباطكم الشجعان في مطاردة صناعي . اني ميت لا محالة! ولسوف يجتاحني هذا الدمار ... سوف يجتاحني يقينا ... خذ قضية الاطفال مثلا .. انها واحدة ، المسألة ليست في ان ادفع ، واوفر نفسي ..ولكن الشعور بالمطاردة هو في صميمي .. كانه جذور كرمة مسنة.. اني مطارد ، مثل ورقة بائسة ، جافة ، مطروحة في وجه تيار محصور مدفوع دائما في كل اتجاه ... ماذا تريدني ان افعل ؟ ... ان اجرائي ولكن يا الهي .. الست اكرر القول .. خذ قضية اخرى ..

الرجل الثالث ـ (يقاطعه) لتكن قضيتي انا ..

جاك ـ (منتفضا من الضجر) كفوا ، كفوا جميعا ... ولكن من ساقكم الينا ، بحق الشيطان ؟ اليستهناك دوائر مدنية البوليس . والجيش؟

العم ـ لقد قلبوا شفاههم في وجوهنا ..

الرجل الثاني ـ اوصانا احدهم بالصبر .. لقد قال .. الستم فرنسيين تماما ... واذن عليكم ان تستمروا ...

الرجل الثالث ـ اعذرني ايها السيد الملازم ... لقد اسروا في اذني ... ان قوة الجيش الحقيقية هي هنا ...

جاك ـ (متعبا) كلا .. كلا ... ان عملنا من نوع اخر ... اتريد ان اوضح لك ؟

المستوطن الثالث (يهز رأسه) اذا شئت يا سيدي ...

جاك ـ حسنا .. نحن نتعامل مع العرب ، والخونة ..

السيدة ـ واذن .. ماذا تريد ان تصنع باطفالي ؟

جاك ـ دعيهم كما هم تماما ...

العم ـ مادلين ، مادلين ، ارجوك .. لنعد بهم سريعا ..

السيدة ـ الى فرنسا ... كلا ... سوف اتلف سريعا ..

العم ـ (في صوت متذلل يائس) مادلين .. لنعد سريعا ، لنغادر أرض الرعب .. يجب ان ينقذ الاطفال ...

السيدة ـ (في اهتياج) قلت كلا ... (تتطلع صوب اطفالها ، وتلين قسمات وجهها المتعبة فجأة) ربما ، ربما ... يا اعزائي .. يجب ان تفتحوا عيونكم في الصباح على نور الشمس الحقيقية .. ويجب ان تهرعوا الى الحديقة ، وتقتطفوا زهور الصباح.. وتغردوا كالعصافير.. يا الهي .. لنمض .. لنمض من هنا (الى العم) الن نكون في مأمن على الدرب ؟

العم ـ (يمد اليها ذراعيه) يقينا .. دعيني اساعدك .. سوف نمتطي عربة مقفلة ..

(يحتاط البنتين بذراعيه ، ويمضي بهما نحو الخارج ، تتبعه الام منحنية بحيث تلف ذراعها حول الصبي)

(فترة)

جاك ـ (منفجرا) ماذا تبقى لديكما ؟

المستوطن الثاني ـ سوف نستمر ايها السيد الملازم .. سوف نستمر ... ان حلوقنا تغص حقدا عليهم (يتمهل) ولكن الن تتدبر الامر ؟ (متوسلا) الان .. قضيتي ايها السيد الكابتن .. مرهم ان يدعوا اجرائي في حالهم .. ان خموري ..

جاك ــ (صارخا) لتذهب بها الى الجحيم ... هيا .. سوف نجلد العرب حيثما وقعنا عليهم .. سوف نسوطهم كالحيوانات .. سوف نجعلهم ينفضون اسرارهم لمجرد رؤيتنا ... ولكن انتم ؟.. اية مذلة ؟. خارجا ... خارجا ... سحقا لكم ..

(يتدافع الرجلان في طريقهما الى الخارج)

المستوطن الثالث ــ ايها الكابتن .. ولكني قضيتي..

جاك ــ (يتعقبه هادرا) الى الشيطان .. اشك أمرك الى دوائرالامن..

المستوطن الثالث ــ (يائسا) ولكنها لا تحير قولا ... ان قوة الجيش الحقيقية ..

جاك ــ انها قادمة اليكم ، انتم ايها الجبناء ، سوف تطاردكم قوة الجيش حتى تقتلع بذور المذلة ، والرعب من اعماقكم.. هيا ... خارجا خارجا (الى الاب جولي في صوت ارق) في وقت اخر يا ابي ، في وقت اخر (يجر احدهما الاخر ، ومن خلفهما الاب مودعين بنظرات الغضب، وتلويحات الملازم العصبية)

جاك ــ (ما يزال في ذروة اهتياجه) لنبدأ الان ... هنا .. هنا ، (يدق الارض) هنا قوة فرنسا الحقيقية ... لقد ماتت فرنسا في قلوبهم ... يجب ان نطارد الكل ... الفرنسيين والعرب .. يجب ان تجز هذه الحشائش الطفيلية ... هنا مقصها الصلب (فترة) دورك يا ابن حمود ... دورك لتمثل بكل عظمتك امام الحد المسنون المرهف .. اسفا ... اسفا ... اننا نضطر الى معاندتك ، ان عينيك المبلولتين بدم العذاب تؤرثان حقدي. انهما عينان مرفوعتان .. حقيقيتان تغريان باللمس .. كما تغري بحيرة من الماء البللوري .. اسفا ، اسفا ان نضطر من اجل هذا السقط من الناس ، ان نوغل فيهما الموت .. فتنشفا تماما ثم يجففهما العدم (في لهجة ضارعة ، متوقدة) ابن حمود ! ابن حمود ، انها معركتنا الوحيدة ، معركة الرجال ، والفرق انك مأسور ايها الصديق .. الفرق انك مقعد بكل عظمتك .. وان في يدي جلادك سوط الغضب .. انه يحس، ابن حمود ، حتى قبل ان يبدأ رجفة الهزيمة ..

[يسقط الستار تدريجيا مع كلمات الملازم ، وما يكاد ينطق بالعبارة الاخيرة ، حتى يسدل تماما .. يدوم ذلك دقائق ، ثم يرتفع عن المشهد الثاني ، في نفس النهار وذات الاشخاص]

المشهد الثاني

الكابتن ، جاك ، فرنسيس ..

الكابتن ــ (من خلف المكتب) هذه المقابلة ...

جاك ــ (ينهض من على المقعد ويقف قبالته) اريد واحدا يا كابتن ... واحدا فينهار الصف مرة واحدة ، كما لو ان حجرة الثقل قد تداعت في جدار قائم ...

(فتـــــرة)

الكابتن ــ جاك ...

جاك ــ نعم ...

الكابتن ــ اتظن ان ابن حمود ...

جاك ــ ما يدريني ؟ ان هؤلاء الرجال قساة حقيقيون ...

الكابتن ــ (مرجعا في صوت حزين) هؤلاء الرجال ...

جاك ــ اسمعني يا كابتن ! سوف ينتهي بعضنا الى اليأس ، بعضنا الى الجنون ، بعضنا الى الفرار ، ولكننا مشدودون الى هـذه الارض الخراب ... اتدري يا كابتن بم أفكر ..

الكابتن ــ ادري ، وما الفرق ..

جاك ــ (غير متنبه) ... الان تنفجر حرب التحرير ... لقد هزمنا في الهند الصينية .. ومن قبل دحرنا في اوربا ، ولكن الان ، الان الان يلزمنا النصر ، دونما اعذار ، ولا تبريرات ، النصر ، كيما يرتد شباب فرنسا اليها (يتمهل) قلت دونما اعذار يا كابتن ...

الكابتن ــ الن تجري المقابلة ...

جاك ــ (يتوقف ويواجه الكابتن) اتريد ان نبدأ حقيقة يا كابتن ؟..

الكابتن ــ اريد .. اريد ...

جاك ــ اترى كم انت مشوق اليها يا كابتن ؟

الكابتن ــ كيف ، اليس عملا يوميا مكررا ؟

جاك ــ (غير متنبه) لاذع وامين ، اننا نخوض اليه سبخة العمل اليومي انه محـرر .. .

الكابتن ــ نعم ، قد يكون لاذعا ومثيرا ، فما هي امانته ؟

جاك ــ (يقترب منه) سوف تقف الساعة على انفجار كبريـاء حقيقية عندما تصطدم بالعار ، اتظن ان الرجل الصامد هو الحقيقي ، الصامد فحسب ؟

الكابتن ــ اليس هو ؟

جاك ــ يقينا لا ... زود رجلا عاديا بالمطلق ، ثم بقليل من الحماسة ينجز الرجل الصامد بين يديك ! ان الفلاحين يموتون ببسالة ، يعصبون على قلوبهم حقدا مروعا فينتهي الحب ، والامن ، والرغبات ، وحتى الامل ، ان الفلاحين يحاربون بدون امل ، همهم ان يقذفوا الاخرين في الموت ، وان يوفروا انفسهم اذا امكن ، انهم بشر ، لهم صلابتهم ، ولكنهم منتزعون من دائرة الشرك اليومي ، انهم منسيون برغمهم ، مفصلون للموت ، احياء فقط ليؤدوا دورا واحدا ، مكررا ، هو ان يجهزوا الموت للاخرين (يغادر مكانه ، ويتجه صوب الباب الخارجي) سوف نعرف الان معنى الامانة الحقيقية ...

الكابتن ــ (حائرا) امانتنــا ؟

جاك ــ (يتوقف) من طرازها يا كابتن ، ولكنها بكيفية مختلفة ، لماذا ؟ اجل لماذا ؟ ان لنا عشرات الدوافع كيما نزج بانفسنا في الحرب .، النصر مثلا ، فرنسا ، شرف الجيش ، العادة في ان نحكم الاخرين ، تفوقنا ، اوربيتنا ، الا تكفي نصف دستة من التبريرات ؟..

الكابتن ــ بالنسبة لي .. يكفي ان ننتصر !

جاك ــ يكفيك واحد .. يلزمني انا عشرة ، فماذا يمنعنا بعد ذلك من السقوط ؟ نستطيع ان نمد ايدينا فنخرج هذه اللعب واحدة ، واحدة ... ولسوف تغرينا احداها ، فنعلق بها ، كما يعلق طائر في الشرك ، ان جنودنا يموتون بفعل العادة ، قد يكونون اقل بسالة من الفلاحين، لانهم يتلقون الرسائل من فرنسا ، ويطلبون الحب والعودة وسهرة المساء الممتعة ، ان لهم احلامهم ، وبيوتهم ، وزوجاتهم ، وتسلياتهم ، ومن حقهم ايضا ان يقتنصوا مئات الرغبات الممنوعة ، ولكن الفلاحين معزولون عن الشرك اليومي ، عندما يصارع جندينا الموت ينبثق في مواجهته مصيره الحقيقي ، اما قدرته على الموت ، ويعني هذا ان يصمد ، او قدرته على ان يحيا ، ومعنى هذا ان ينخذل ، وعلى الفلاح ان يموت فحسب، لقد لعبوا بنا يا كابتن ، ان العربي يموت لانه لا يعرف حتى اليوم حقيقة اخرى ، ماذا ترى تعني البندقية للعربي؟ عندما يمتلكها ينعكس الوضع تماما، انها تستحوذ عليه، انها تستخدمه، انها طريقه الوحيد يا كابتن..

الكابتن ــ (متعبا قليلا) الى اين ..؟ الا تريد ان تفرغ ...

جاك ــ صبرا يا كابتـن ، فسوف نلتقـي ...

الكابتن ـ في نظري سواء ، جنودنا ونحن والفلاحون ، صنعتنا الموت ليس غير ، يكون الجندي امينا عندما يؤمن بحتمية الموت ، هذه هي القضية ، اما ابن حمود فهو يثيرني لسبب اخر ...

جاك ـ ما هو السبب يا كابتن ؟..

الكابتن ـ (يهز رأسه) لست ادري بالضبط ، ربما كان اغتباطي ناشئا عن الامل في لقاء ثائر غير عادي ، ثائر ممتاز، مثقف ، ابن حضارتنا ، وكذلك ...

الكابتن ـ (يتمهل) اتظن أني ؟

جاك ـ وكذلك ؟..

جاك ـ بلى ، بلى ، انك مشغوف مثلي تماما بهذا اللقاء ، متلهف لا تكاد تحبس فضولك ... اننا لا نستطيع ان نقف مع ضباطهم وجها لوجه الا ويلازمنا العار ينبثق فجأة في محاذاتنا . ذلك الظل الكريه المقبض ، ظلنا نحن ، عندما تنحسر اوامرنا ، وشارات الرفعة التي نعلقها على اكتافنا ، عندما يقف الرجل في وجه الرجل ، عندما نتحرر من الزيف ، فاذا بنا مسلوبون اعز ما نملك .. مسلوبون الحق في ان نقتل، ننقلب الى مسوخ ، مجرد الات للتعذيب ، مجرد وسائل لفضح الشرف، والمجد ، عندما نصبح غير مستحقين هذا اللباس الذي صنع من اجل الموت المختار ، المنتقى ، الموت النظيف !

الكابتن ـ (مثارا) اية تسميات ! انه هذيان ايها الملازم .. اني لا اؤمن بشيء مما تقول ...

جاك ـ وما جدوى الاقرار او النكران ؟.. سوف يموت هذا الثائر بين يديك ، ولكن بعد ان تسلبه كل الامتيازات التي تستحقها انت ولكنها مستحيلة في وضعه هو .. ان تعامل بشرف وامانة ، ان تموت كما ترغب في الموت ، ان تحترم فضائلك الغالية ، ان يكرم الانسان الثاوي في أعماقك ! ولكن مهلا ، الم اقل لك اننا سوف نلتقي ، وها نحن الان مع خط واحد ، خطوة اخرى ليس غير وتنكشف امامك الهاوية ولا بد ان تزل بك القدم يا كابتن !.. لا بد ... انه عارنا نحن ... ورجولتنا تلزمنا دائما بحمله .. من يخلصنا ... ؟ عذاب الفلاحين الجهلة السفاحين ، قتل جنودنا ، الخرائب ، التدمير.. كلا يا كابتن اليك الفرصة الثمينة ، عذبه ، املأ قلبه رعبا ، دعه ينطوي امامك ، وتأكل احشاءه ديدان الشرف والاستقلال والمثل والفضيلة .. عذبه بايمان حتى يشعر بان فرنسا عاجزة ، مسحوقة ، مريضة وانها منشبة انيابها في جسده الطري الدسم ، راشفة مناهل دمه ، فجّر الحقيقة كلها في وجهه يا كابتن ، قل له اننا انتهينا

الكابتن ـ (صارخا) هراء ، هراء ... انك تهذي..

جاك ـ (ملتهب العينين) الواقع يا كابتن ، الواقع ..

الكابتن ـ اي واقع في ان نجعل من انفسنا سفاحين، جلادين ؟.. مفرغين من ايما معنى رجولي؟ أي واقع هذا ؟.. ان نميز في تعذيب الرجال ، فنسوق الجموع الى الموت ، ونخشع امام قداسة مثل هذا الرجل .. ان تتهاوى فضائلنا جميعا ، وتتردى في مواجهته ، اذا كان هناك من عار فانه واحد .

جاك ـ (مشيحا بوجهه عنه) العار الواحد خرافة يا كابتن ... هناك النموذج دائما ..

الكابتن ـ هراء ، مرة اخرى ...

جاك ـ ليكن ... ليكن .. دعنا نستقدمه يا كابتن ، وسوف تجد بنفسك الحقيقة

الكابتن (يهتف من حيث هو) فرنسيس ..

فرنسيس ـ (يتقدم من طرف المسرح ، فيفاجيء الكابتن) نعم يا سيدي ...

الكابتن ـ ماذا كنت تفعل هنا ؟

فرنسيس ـ (مضطربا) لقد كنت هنا يا سيدي دائما ...

الكابتن ـ أه ..أه دائما اذن .. هيا استدع روجيه والمرأة ...

[يخرج فرنسيس]

الكابتن ـ (مثارا) سوف نرى ، سوف نرى ، ان امتيازاتهم فارغة . كلهم سواء ، كلهم .. ماذا كنت تقول ؟ النموذج ؟ ماذا في ذلك ؟ هل ستشعرنا اشرطته بالخجل ؟ رجل ممتاز ، ولكن ما هو السبب ؟ ما هو السبب ؟ اليس لانه اكثر قسوة ؟ اكثر ميلا للقتل ، اكثر حظا من النجاة؟ ان ثقافتنا لا تغنيهم شيئا .. ولكن .. ولكن ربما اودت بهم وجردتهم من هذه البدائية الجامحة التي هي عنوان جدارتهم .. دعنا نرى ابن حمود في مواجهة التعذيب ... سوف يتلوى ، وتنكبح عواطفه، و يسقط، متهالكا (يمد اصبعه في وجه الملازم) مثل الاخرين ، تماما ... [يخبط الباب] نعم .. ادخل حالا، حالا .

(يدلف من الباب الخارجي بيير ومن خلفه روجيه ، جارا خلفه على مهل ، فتاة عربية ذات وجه طفولي رقيق، ابرز ما فيها عيناها السوداوان الكبيرتان ، يطلقها روجيه بعد ان يقودها الى منتصف المسرح ، تحاول ان تنسحب الى الزاوية فيردها روجيه ، وعندما تكرر ذلك بصورة غير ارادية يحيطها بيير من جانب وروجيه من جانب ، تلتفت مذعورة الى الخلف والى الجانبين ، ثم تستسلم وتنكس برأسها)

الكابتن ـ هل هي ؟

روجيه ـ نعم يا سدي .. انها هي..

الكابتن ـ الم تحاول النطق بشيء ؟

روجيه ـ كلا يا سيدي ...

الكابتن ـ (يتقدم صوبها) ايتها الابنة اللطيفة ... نحن لا نريد ايذاءك وصدقيني، لن يمسك واحد بسوء .. افهميني، جيدا ، سوف تقابلين حالا ابن حمود (ترتجف الفتاة برغم ارادتها) نعم ابن حمود انه لا يريد ان يتفوه بشيء ،سوف تقربين منه وتلامسينه تماما .. وبعد ذلك سوف يقص علينا شيئا ما (تخفي وجهها بين يديها) نحن ندري مدى تعلقه بك ... كوني لطيفة الان وسوف ينتهي كل شيء سريعا ... هيا، رفعي وجهك ، الا تودين رؤية ابن حمود ؟ ابن حمود كما هو ؟

الفتاة ـ (تهز رأسها يمنة ويسرة ثم في كل اتجاه)

الكابتن ـ ماذا ؟ لا تريدين ؟

جاك ـ الا تريدين ان تري ابن حمود ؟ اخاك البطل ..

الفتاة ـ (تدور على نفسها وتصبح الان في مواجهة الجمهور)

جاك ـ (يذهب الى جنبها) سوف تجعلينه يقول شيئا .. هه ..

الفتاة (تهمهم باصوات غير مفهومة)

جاك ـ (يقترب منها) يا صديقتي الصغيرة ، قد لا يكون مرآه لطيفا، ولكن ، ولكن ستخففين عنه ..

الفتاة ـ (تحاول الافلات منه فتصطدم بروجيه الذي يمسك ذراعيها باقل ما يمكنه من الشدة)

جاك ـ (يلاحقها) سوف نجعله يتكلم يا صغيرتي ، رويدا ، رويدا ، (يلتفت الى فرنسيس الواقف قرب الباب الخارجي) اخرجه .. اخرجه كما هو ...

(بيير وفرنسيس يفتحان باب غرفة التعذيب ، ويغيبان قليلا ، ثـم يعودان حاملين ابن حمود حملا من تحت ابطيه ، يتقدم الكابتن فيسوق الفتاة من حيث هي ويرميها فجأة في وجه الاسير)

الفتاة ـ (تتسمر لحظة ، ثم تقفز بحركة مفاجئة ، وتحوط رأس الاسير بذراعيها ، وتروح تمسح على شعره ، وتتفحص وجهه المتعب ثم تفتـح عينيه المطبقتين)

ابن حمود ـ (وهو في غيبوبة) .. لن اقو...ل ... لن اقو..ل

الفتاة ـ (تعانق الاسير ، وتلثمه حيثما تقع شفتاها على وجهه وهي تخرج اصواتا غير واضحة)

ابن حمود ـ (منتبها شيئا فشيئا) .. أ...ه .. نسيمة ..

الكابتن ـ ابعدها الان !

(يدفع فرنسيس الفتاة عبثا ، فيتقدم جاك ويخلص ذراعيها)

جاك ـ اهدئي يا بنية ! (يسوقها بعيدا ، ويطلقها ، فتحاول الانـدفاع الى الاسير من جديد) آه ، ولكن اهدئي ! (يصفعها فجأة وبقوة على وجهها) يحسن بك ان تفعلي...

ابن حمود ـ (صارخا بصوت ما يزال واهنا من التعب) كلا ، ايهـا الملازم ، ايها الملازم ..

جاك ـ (يمشي اليه) ابن حمود .. انك وجها لوجه مع اعتى جلاديكم ، ابن حمود ، سوف تتضرع الي ان اكف ... (يتوقف في مواجهته ويحمل شعره بكفه ثم يشده الى اعلى) تطلع في يا ابن حمود ، جد ما اذا كنت قادرا على اثارة ضغينتي .. انها هنا ، لتشرف عليك ، حتى اخر نفس..

ابن حمود ـ كلا ، ايها الملازم...

جاك ـ ماذا ؟ ماذا بالمقابل ؟

ابن حمود ـ (يلوي وجهه محاولا التخلص من قبضة الملازم التـي تشد رأسه) الم تر ... الم تر . .

جاك ـ (مثبتا راسه فترة) ماذا ؟

ابن حمود ـ الم تر .. (تنفجر الدموع من عينيه) انها بكماء.. بكماء.. (يختنق صوته)

جاك ـ مذ عطلت لسانها يا ابن حمود ... مرة ..

ابن حمود ـ ... اطلقوها .. اطلقوها !!

جاك ـ كيف ، الا يشوقك ان ترى ضحيتك ماثلة امام اعدائك ؟ كيف .. هل اطلقتها انت ؟ افعل الان (يطلق شعره) من هو اكثر قسوة يا ابن حمود ؟ جلادو فرقة المظلات ... ام فلاحوك .. ام انت ؟..

ابن حمود ـ لماذا ، لماذا ؟ جربوا في ، في انا ؟ لماذا الصغيرة ؟.

جاك ـ اتريد ان تلعب اذن ...

ابن حمود ـ اختاه ... نسيمة ، تشجعي ..

نسيمة ـ (تهز راسها في ايمان)

ابن حمود ـ سوف تلتاعين يا اختاه ...

نسيمة ـ (تهز رأسها باصرار)

ابن حمود ـ اني اصدقك ، نسيمة ، لم اعد احسن ... لقد هتـكوا مواطن الالم .. نسيمة غفرانك .. اشيحي بوجهك .. تسمعي الي ، نسيمة ان مصير الالاف من مواطنيك معلق على كلمة منك ، لا تصرخـي من اجلي ، اختاه ...

(يقفز جاك صوبه ، ويلطمه بجمع كفه على وجهه ، مرة اثر مـرة اثـر مرة)

جاك تشجعي اختاه، سوف تخوضين الى الشجاعة بحرا من الالم، اختاه .. (يرفسه في بطنه ، فتخرج من الضحية صرخة ملتاعة وتنهار الفتاة فجأة على ركبتيها) تشجعي ايتها الصغيرة ، لم تري بعد ما نخبيء لك ، الن تتكلم ؟ ابـن حمود !.. ابن حمود وفر على الصغيرة لذعـة اخرى واخرى واخرى ...

ابن حمود ـ (من بين اسنانه المشدودة) نسيمة ، لا تتطلعي يا اختاه..

جاك ـ اسحبوه الى الداخل

(فرنسيس وروجيه وبيير يجرون الضحية الى داخل غرفة التعذيب)

الكابتن ـ سوف اتعهده ، ابق البكماء على مقربة (يلحـق بهـم)

جاك ـ (يذهب الى الباب الخارجي ، ويعود بجنديين) احملا هـذه (الى الفتاة) واجعلاها تنظر الى الداخل (يصرخ) يا كابتن ...

الكابتن ـ (من الداخل) ماذا ؟

جاك ـ ارجوك يا كابتن ، واحدة ، واحدة ..

الكابتن ـ (مقهقها) دع اذنيك تلتقطها ، جرب هذه ... هيا ..

(ترتفع انات الضحية متلاحقة ، مكتومة ، منفجرة ، تنطفيء احيـانا قبل ان تبلغ المسرح ، وترتفع احيانا اخرى ، الجنديان يشدان الفتاة عند باب الغرفة المفتوح ويقسرانها على التطلع صوب الداخل)

جاك ـ انك تسرع يا كابتن .. اليس هذا وخز الابر ؟ .

الكابتن ـ كيف ، كيف ...

جاك ـ (يروح ويجيء في الغرفة) امسك عليه حساسيته ، يا كابتن انك تسرع ، اجعله يتصاعد قليلا ... قليلا .. .

الكابتن ـ هيا ، ايها الملازم ، انك تغيظني ..

(الفتاة تحاول التملص عبثا ، فتشرع هي في الصراخ بدورها مرغمة ، تلوي رأسها ، فيشدها الجندي من شعرها ويرغمها على تثبيت وجهها في اتجاه الداخل)

جاك ـ اه الملقاط ، ولكن لماذا ؟ انك تنتش لحمه يا كابتن ...

الفتاة ـ (صارخة في جنون)

جاك ـ اسرع الان ، يا كابتن ..

الكابتن ـ تمهل ، اننا نجرده ..

جاك ـ اه .. انك تورثني الخجل ...

الكابتن ـ (ضاحكا) لن تجد فيه هذه الصغيرة شيئا جديدا ، فقـد افرغا من بطن واحد ، والان ، أتود ايها الملازم ان نبدأ من اعـلى ام من اسفل ...

جاك ـ (يلوح بذراعه) اشرح للصغيرة ...

الكابتن ـ ايها الملازم ، الا ترى اني لا اريد القيام بالمهمتين معا ؟

جاك ـ حسنا ، سوف افعل بنفسي (يقترب من الفتاة ويهمس فـي اذنها) ، تتلوى الصغيرة مع كل كلمة) .. والان اعيدها كرة اخرى ، سوف نبدأ بالتيار فيما بين الاصابع ووراء الاذنين ، ثم يسقط التيار قليلا ... قليلا .. استميحك العذر يا صغيرتي ، ان ابن حمود صيد ثمين ، سوف نرغمه بالتأكيد ، انتبهي يا صغيرتي (الى الجنديين) ارفعا رأسها ايهـا الغبيان ... سترين فوق ما تطيق عيناك الحلوتان النديتان ، امسحـا دموعها ايها الخبيثان ، اجعلا سواد العينين براقا ، مصفى . وبعد .. يا صغيرتي ، سوف تعمر معدته بالماء المجمع من فضلات الاستعمال ، يا صغيرتي ، مهلا ...

(تسقط الفتاة بين ذراعي الجنديين متلاشية)

جاك ـ وفره الان يا كابتن ... لقد تلاشت الصغيرة (يجر الجنديان الفتاة الى مقعد يسنده الملازم الى المكتب ، ويحطان جسدها المهمل عليه)

انعشها ايها الغبي ، هيا ...

(يعود الكابتن ، ومن خلفه روجيه ، وبيير وفرنسيس)

الكابتن ـ (يعالج الفتاة بزجاجة صغيرة في يده يمررها تحت انفها، فستيقظ تدريجيا) انتبهي يا صغيرتي ، ما .. ما هذا ؟ سوف نعالجين مرارا اذن ... ولكن لماذا ؟

(يظهر ابن حمود ، عند الباب ، عاريا الا من سرواله التحتي ، مترنحا ، مجنونا من الالم ، يستند بيديه جميعا على طرف الجدار ، ثم يتقدم ، متهاويا ، بحيث تلوح للنظارة في الصفوف الامامية مواضع التنتش فيجسده محمره ملتهبة ، تبصره الفتاة دون الجميع المحيطين بها الغافلين عن الاسير ، تمد ذراعيها المرتجفتين في حركة عفوية متضرعة ، وفي اللحظة التي تفشل فيها بالنهوض ، يسقط ابن حمود عند قدميها ، ويلفهما بذراعيه)

ابن حمود ـ نسيـ..مة .. نسيـ..مة ..

(يفاجأ الجلادون ، فيمسكون عن الحراك فترة ، حتى تخمد حركة الضحية عند قدمي اخته ، تنحني هذه فوق راس اخيها ، ثم تسقط جسدها بحركة بائسة جنبه ، وتغمر رأسه بذارعيها ، كأنما تحول بين الجلادين وبينه ..)

جاك ـ (منتبها وفي سخرية جافة) اي مشهد ..؟

الكابتن ـ (يهز راسه) تلك الصبية .. تلك الصبية ...

جاك ـ (يرفسهما برجله) ثبته على العارضة ، ولننتظر برهة ..

(ينفذ روجيه وبيير وفرنسيس اوامر الملازم ، فيسحبون الاسير الى داخل غرفة التعذيب)

جاك ـ (يرفع الفتاة الى المقعد ثانية) ايها الصغيرة ...

نسيمة ـ (تسد اذنيها بكفيها)

جاك ـ ابتها الصغيرة .. مري ابن حمود ان يفعل شيئا ...

نسيمة (تخبيء راسها في صدرها) ..

جاك ـ (في صوت متعب) ايتها الصغيرة اني انذرك ..

نسيمة ـ (تقفز فجأة ، وتروح تلطمه بذراعيها وكفيها على صدره ، وهي تعول وتخرج اصواتا منغمة غير مفهومة)

جاك ـ حسنا ... افرغي غضبك يا صغيرتي ... هيا ..

(تتوقف يائسة عن الضرب ، وتتطلع بعينين زائغتين ، ملتهبتين الى الكابتن حينا والى الملازم حينا اخر ، ثم تسقط عند قدمي الملازم وتوميء له في حركات متضرعة)

جاك ـ كلا .. اوه ... كلا يا صغيرتي ، ان كلماتك لا تعبر جدر الفولاذ اني محصن ضد الشفقة ،اتدرين يا صغيرتي ، كان لي قلب ذهبي .. مفطور على الشفقة .. ولكنه (يفرقع اصابعه) كما ترين ... فر يا صغيرتي ، فر !..

الكابتن ـ (يشيح بوجهه) دعها ، من اجل المسيح.. جاك

جاك ـ (غير منتبه) ابدأ الان ، ان صوتين عربيين يصدران معا ... واحد من تحت قدمك ، وواحد من تحت قدمي.. يهزان الجدر الكتيمة الغليظة ، يسقطان الشفقة في صدري من جديد ، يعيدان الى هذا القلب الغار ... (تدور الالات ، والانات المعذبة في الداخل). هكذا اجرف الغضب من صدره يا روجيه ، دعه يصمد كما يصمد الفلاحون ... اجعله ينفجر غيظا ضد القتل (يصرخ) ... ابن حمود ، اين هي نماذجك الباسلة ، الا تفوقك الصغيرة بأسا وتمردا ؟ ابن حمود سوف نجعلها تواجه الرعب بعد قليل ، ولكنك صامد ايها الفتى، شامخ كجبال بلادك ، لقد اتحت لهم الوقت كيما ينسفوا خططك فلم تعد نافعا لنا ، ابن حمود يجب ان تسقط ... يجب ان تسقط (في لهجة هستيرية) يجب ان تسقط ... (هامسا لنفسه ، مصر على اسنانه) كيما يسقط عنا العار يا ابن حمود ..

الكابتن ـ (يصرخ) توقف ، حالا (يهرع الى الباب) انك تقتلته ايها الغبي..

جاك ـ (يتملص من ذراعي الفتاة) ماذا ؟

(يغيب الكابتن في غرفة التعذيب ، ثم يعود بعد فترة)

جاك ـ (ملحا) ماذا ؟. .

الكابتن ـ (لنفسه) ادري ، ادري هذا الشيء ..

جاك ـ يا كابتن ؟

الكابتن ـ (يلتفت) جاك ! لنتوقف ..

جاك ـ اي شيء هذا ..

الكابتن ـ انه لا يقاوم ..

جاك ـ واذن ؟

الكابتن ـ يترك نفسه للموت ، الا تلاحظ شيئا ؟

جاك ـ تعني ...

الكابتن ـ (محتدا) اعني .. ولكنه لا يعاند ، ولا يكبح نفسه ، انه يستدعي الموت .. لقد غشى وجهه اليأس ، جاك اتراهم يستطيعون استدعاء الموت هكذا ؟

جاك ـ هراء ، انها خدعة !

الكابتن ـ انظر اليه ، لماذا لا تفعل ؟

جاك ـ ولكن كيف ، ونحن لما نبدأ ؟..

الكابتن ـ بسببها .. (يشير الى الفتاة) ولكن .

جاك ــ ليس في وسعنا التراجع يا كابتن ، وكذلك ليس من حقنا ان نختار ... ابن حمود فائد في هذه الثورة ... ان فرنسا تريده ، فرنسا وليس انت او انا ... يجب ان تستخدم الصغيرة الان تحت ابصاره [فترة صمت ثقيلة]

الكابتن ــ ان ذلك جديد علي ، جديد...

جاك ــ اترهبه ؟..

الكابتن ــ ليس الا نوعا ، صنفا ، ادري ، ولكني مأخوذ ببعض الشيء.. ترى انستحق فضيلة الوطنية كل هذا ... كل هذا ..

جاك ــ كل هذا العار ؟..

الكابتن ــ نعم .

جاك ــ في رأيي ، اننا لا نضع الفضائل في مرتباتها مواجهة ، او مداورة .. في رأيي ان فرنسا يجب ان تنتصر ... لمصلحة من ؟ ربما كان ذلك لمصلحة الحضارة ، ربما لمصلحة كل الفضائل العظيمة التي انضجتها اوربا خلال القرون ، ربما كان هذا زائفا .. النصر ... النصر ايها الكابتن ... هو الحقيقة الوحيدة ..

الكابتن ــ (مغمغما) اي نصر ؟

جاك ــ لا تستمع اليه .. يجب ان يصمت هذا الصوت في داخلنا.. مؤقتا على الاقل ...

الكابتن ــ وما نفع هذه الاشكال الخارجية اذن ؟ قل لي ما نفعها ؟

جاك ــ (يهز كتفه) وما يدريني ؟. في مثل هذه اللحظات يخيل الي ان كل شيء حقيقي لم يعد كذلك .. ان الاصطلاحات غير مجدية في مواجهة الموت ، اننا نؤكد وجودنا ، يجب ان تستمر فرنسا ، سواء أكان ذلك وهي ممتطية حصانا خشبيا ، او مزنرة بحزام الكهنة ! ان العالم كله بحاجة الينا ، من اجل فنوننا ، من اجل عهرنا ، من اجل خفتنا ، من اجل موقعنا في اوروبا ، لست ادري.

الكابتن ــ (في نبرة موجعة)اية وسيلة ؟

جاك ــ (ساخرا) الوسيلة ؟ لماذا يكون الموت اشرف من التعذيب ، وبخاصة اذا وفرت الحياة في النهاية .. قل يا كابتن .. ماذا يهم ؟ ان تستمر الحياة او ان تسقط في حماة اصطلاحاتنا السخيفة ، ماذا سوف يصيب الصغيرة ، ربما تروع ... ولكن الجرح سيلتئم .. قد يهدمها العار .. ولكنها تستمر برغمه ... وربما انبثق العزاء من خلال الندبة الميتة .. ليس اكثر من اتلاف بعض الاغشية فلماذا نهول الفعل؟ (فترة) لماذا تقاوم يا كابتن ؟ ان كلمات عادية يطرحها ابن حمود وهي تشبه ملايين الكلمات التي تطرح عبثا خارج الفم ــ قد توفر عشرات ، مئات بل عشرات الالوف من الارواح الحقيقية ، شيئا من الشجاعة يا كابتن ليس اكثر ...

الكابتن ــ (متخلصا) ليكن ، ليكن ! (صارخا فجأة) ليكن ... اعدوا الذبيحة .

[ينطلق جاك الى الداخل ، وتجري الحوادث فيما بعد في صمت كامل ، يسوق روجيه وفرنسيس الفتاة الى داخل غرفة التعذيب ويتبعهما بيير صامتا ، الكابتن يروح ويجيء في الغرفة متململا ، يخفق الارض بحذائه ، يجرب القعود وراء طاولته ، ثم ينفجر في حركات عصبية طائشة وهو يردد في صوت مخنوق هذه الكلمات ((ما هذا .. ما هذا ؟.. اي شيء هذا ؟)) . تضعف انوار المسرح تدريجيا ، وبوصد باب غرفة التعذيب ، ولا يبقى الا الكابتن على المسرح، تنبثق صرخة حادة مفاجئة من الداخل ، وتسقط العتمة مع الثواني حتى يغرق المسرح في ظلام كامل ، وينطفيء كل شيء ... المشهد والاشخاص والاصوات. تمضي الدقائق ثقيلة، والمسرح مظلم ، ثم تعود الانوار ، فتكشف جوانب المسرح بصورة متدرجة ويلوح شبح الكابتن متوسدا ذراعيه خلف الطاولة كأنه غارق في السبات ، عندما يكتمل النور يفتح باب غرفة التعذيب ، ويتسلل منه الملازم ، يتقدم الى منتصف المسرح متنفضا بين لحظة واخرى كأنما يطرح عن جسده عبئا حقيقيا ولكنه غير منظور]

الكابتن ــ (دون ان يرفع راسه) اين نحن من النهار ؟

جاك ــ اين ؟ ربما في العصر، كلا.. [يكف فجأة كمن خطرت له سانحة]

الكابتن ــ لماذا انا متعب اذن ؟

جاك ــ هل انت متعب ؟

الكابتن ــ قليلا .. قليلا جدا .. ولكنه عميق ..

جاك ــ من ؟

الكابتن ــ التعب ، كأنما هو مخدر ...

(فتـرة)

الكابتن ــ ما رأيك في شيء من الخمر ؟

جاك ــ الخمر .. نعم .. هنا ؟

الكابتن ــ ما الفرق ؟ في مكان اخر

جاك ــ هل تعني ...

الكابتن ــ نعم.. نعم.. يجب ان نذهب (في نغمة خاصة) من هنا ..

جاك ــ (تكتسحه انتفاضات متتالية ، سريعة) لنمش ...

الكابتن ــ (دون ان يتحرك) لنمش ...

(فتـرة)

الكابتن ـ يجب ان نعد تقريرا للكولونيل ..

جاك ـ اتظن ؟

الكابتن ـ نعم

جاك ـ يا كابتن ....

الكابتن ـ (يرفع رأسه) ايهما ...

جاك ـ ... الصغيرة

الكابتن ـ حسنا ، انها الصغيرة اذن ...

جاك ـ انها الصغيرة (مترددا) لقد شهقت ..

الكابتن ـ فورا !

جاك ـ فورا ...

(فتـرة)

جاك ـ ... لقد راقبها بعينين مفتوحتين ، لقد مضغ جزءا من شفته.

الكابتن ـ وبعد ؟ ..

جاك ـ لقد استدعت الموت .. خيل الي.. خيل الي ..

الكابتن ـ نعم ما هو ؟

جاك ـ ان شيئا ما قد طق في صدرها ..

الكابتن ـ ربما انفجر قلبها..

جاك ـ قلبها ... كلا .. فوق .. لم تخرج الا شهقة واحدة .. لقد ماتت حنجرتها اولا ، ان جسدها ما يزال ساخنا ..

الكابتن ـ (ينهض) لنمش من هنا (ينقل خطوته في اتجاه الباب) ولكن (يعود)

جاك ـ الى اين ؟!

الكابتن ـ (يتوقف فجأة عند باب غرفة التعذيب) .. الظل الكريـه ايها الملازم ... ولكن ما اريد ان افعله يحررنا .. الا تذكر .. الا تذكر كلماتك !!

جاك ـ دعه يا كابتن .. ربما كان ناقصا

الكابتن ـ (ساخرا)وماذا عن الظل ؟

جاك ـ (محتجا في لهجة متعبة) يا كابتن ...

الكابتن ـ (بنفس اللهجة الساخرة) الظل ايها الملازم ... آه ... انتظـر .. شيء اخر، الشفقة ايها الازم ، يلزمك قلبك الفارغ ... من اجل متعة المساء على الاقل ايها الملازم ، نحن نزحف في اتجاه النـصر .. الديدان تزحف ايضا ايها الملازم ، ها.ها..ها.. الديدان .. ماذا عن الحصان الخشبي (يصرخ فجأة) لقد انتهى دور ابن حمود ايهـا الملازم .. انه لم يعد شيئا ، لم يعد رجلا ... هل انت سامع ... عندما تصير الله ، يكون من حقك حينئذ ... حينئذ فقط ان تجعلـه يستمر مفرغا كاناء مثقوب (يعلو هياجه)لقد افرغته ايها الملازم ... اطرحه اذن الى الديدان ... اتريد ان تعرف اشياء مبتكرة عن الرجل ... التفسخ والنتانة والانسلاخ في غمرة الحركة المهملة العمياء للحياة ... تسل به اذن ! دع آلاتك تطمعه ، عينان فقط ، متحركتان ، شـفتان متقلصتان ، ارجل مهملة تستطيع ان تجري في اي اتجاه ، ولكنه لا اتجاه له ، قلب مطاطيء ، ايها الملازم ... ايها الملازم .. ان الله خجل من نفسه في مواجهتنا ، الا ترى كيف تتعرى الحياة ، الحياة التي يكرس نفسه لدفعها منذ الاف السنين ، فتصبح تراجعا ، ما هو ... ما هو (يحملق في الاشياء من حوله مستغربا مستحييا) شيء من الاشـيـاء.. لقد طق صدرها ... ولكن صدره هو ... قفص صخري ، من خلفـه القلب والرئتان .. اي قلب ! انه لا يريد ان يكف من اجلنا ، يمكننـي ان انقر عليه الساعة هل تراهنني ايها الملازم ؟ فسوف يرجع الصدى ... كما ترجع مغارة صدى صوتي ... صوتي انا (يقرع صدره بكلتا قبضتيه) .. القفص الصخري .. اسمع... اليك الصدى نفسه.. لقد ماتت شجاعة القلب وفضائله في عيني انا .. انا ... انا .

الملازم ـ (متضرعا) يا كابتن .. ارجوك ، يا كابتن ..

الكابتن ـ دعني ، دعني ، سوف اوغل فيه قدرتي ، آلاتي اناء تفوقي ... سوف اميته ، اميته ، اميته حتى النهاية .. كيف يجوز ان يخجل الله امامي ؟ ما معنى ان يستمر انسان ، بدون شجاعة ، بدون نـذالة بدون فرح ، بدون امل ، ما معنى ان تقتله ويستمر ؟ ما معنى ان تتحرك خيالات ، اشكال مرتدة فوق ارض حقيقية ... (يصرخ) ايها الملازم ... انها بالنسبة لي ارض البشر الحقيقيين ، لا يمكنني ان اعيش جنب رجل مقتول ، متحرك ، جنب رجل مسروق كل ما يملك في داخله من معنى، جنب رجل باق باجهزته فقط ...

(يندفع الى الداخل ، وهو يصرخ في وحشية .. وبوصد البـاب خلفـه)

الملازم ـ (مسمرا) اي شيء هذا ؟ رجل باجهزة ... (يخبط رأسه) اني مأخوذ بشيء ما .. هل هذا حقيقي ؟ آه .. آه .. رجل بأجهزة فقط، رجل بأجهزة .. (يدور في الغرفة ، متلويا ، متهدما ، ويسقط ستار الفصل الثاني ، والصخب يرتفع اكثر من داخل غرفة التعذيب)

اللاذقية مصطفى الحلاج

ـ التتمة في العدد القـادم ـ

لا أملك الحياة...

« رسالة الى صديقة »

صديقتي
سؤالك القديم ، ذلك المساء
يظل يوقظ الحنين في دمي ويمسح الضلوع بالاشواق
اليك ، كلما توغل المساء
ومد ظله الكئيب في جوانب الافاق.
لا شك تذكرين اذ سألتني
وكنت تشخصين في الدجى الصموت
تستقرئين سره العميق.. «لم نموت
وليس في أرواحنا شوق الى العدم؟»
أكنت تأملين ان أجيب ؟!
وكيف لي .. ولست بالعجائبي حافظ الغيوب
ولست املك الاسرار او افوه بالحكم.
سؤالك الاليم هزني .. زلزال
وخلتني وقد صمتت في اساي سادرا عن السؤال!
وربما حسبتني مع السنين قد نسيت
والحق ما نسيت ..

***

أفيق من هموم يومي لاهب الشجون جائع الخيال
واقطع المساء صامتا مستوحش الاعماق
ونلتقي ..
(كل مساء تغمرين مرقدي الجديب
بوجهك الحبيب)
فتمسحين بالرضى جروح خاطري الحزين
وارغب الحياة باشتياق
وبغتة .. يفر من مبسمك السؤال :
« لم نموت
وليس في أرواحنا شوق الى العدم ؟»
وأستكين للجمود لا ارد
اضيع في مجاهل من الاسى بغير حد.
اقاب السؤال حيرة .. لكنما يرهقني السؤال .
واقدح الخيال عله يسعفني برد
ويعجز الخيال بعد جهد .

***

صديقتي...
كان هذه المدينة المزمجره
كمثلما رحى تدور والقبور حولها
تلم قتلى المجزرة ...!
تقول لي:
« الهو .. والزوال .. شرعتي
وانت ايها الغريب لست من رعيتي
يظل في عينيك دائما سؤال ...
ما أغربه !
يطوف مشرق الاسى ومغربه
ويقلق الاسرار ..
وآخشية الاسرار !!

***

ادور ما ملكت ساعة اطمئنان
صديقتي
لانني حيران
أصادق الوجوه والوجوه دائما تدهلني
غريبة ..!
ودائما تجهلني
في هذه المدينة المزمجره
كم اشتهي مهدا من الحرير اتكي عليه
كم اشتهي مهدا من الحرير
وصاحبا بسمته تشد قلبي الكسير
الناس لاهثون ها هنا ومتعبون
صديقتي
وحين يضحكون أبصر الاسى يضيء في الشفاه .
كأنهم يسعون في جنازة هم بها المشيعون
وترقص الاقدار فوقهم وتحتهم وتلطم الجباه
وغافلين يركضون نحو هوة العدم !
صديقتي واستجير بالهوى ووجهك الحنون
لكم تروع الظنون هوة العدم

***

قلبي يضيع ها هنا في القبو يختنق
قبو الضجيج والنقود والبغاء والعرق
الشمس ها هنا كئيبة كدمعة الحداد
والليل جارح العيون شاحب الضمير
يمتص من جروحي الخضيبة السرور
الليل موحش اليم
لكنه صديق قومي حين يقصدون ركنه الركين
يمد كفه مباركا .. فيشربون ويرقصون
ويطفئون اعين الهموم ساعة او ساعتين
(اظل وحدي .. لم ابارك .. والكؤوس تقرع الكؤوس)
وربما تلطفوا وقدموا لي كاس راح
- أشرب فديناك - فكل العمر ساعة او ساعتين
وربما قضيت ايها الصديق دون مطلع الصباح !
لكنني كرهت يا صديقتي الهموم والافراح
والموت والحياه
لانني لا املك الحياة ان تفوت !
لا املك الحياة ...

مختار عبد الباقي بيروت

مُناقشَات

الانسان العربي ورواية «دريس»

بقلم السيد خميس شاهين

« دريس » الانسان العربي الذي يفاخر باتقان الفرنسية ، لغة صانعي مأساته ، يشد رحاله الى فرنسا الذي تعيش في وجدانه كوطن ام ... تمتصه احلام اليقظة من الواقع المر حيث البؤس والجوع ، لتصنع له من فرنسا فردوسا مفقودا ، يعوضه عن بؤس الجزائر ، بديل اروع ينتظره في شوق .. فقط عليه ان يذهب .!

ولكن باريس تضمه ليمارس التصعلك فيها ! وتطارده الاف العيون ، وتصفع مسمعه الاف الكلمات التي ذهب بانسانيتها القلق والتأزم وكل العصابات والقيم اللاانسانية التي تنشرها حضارة استغلال الانسان للانسان .. ويكون رد فعل « دريس » استخذاء احساسا بالدونية ... بأفضية الانسان الابيض وسيادته : « لو كان يستطيع التخلص من الشعر الاسود المتطاير في الهواء .. من البشرة الخشنة ... من العيون السوداء » من كل مايصمه بانه عربي ..!

ان المونولوج الداخلي صادق ومريض .. منسجم مع التراث الانهزامي، مع الرواسب القابعة في الاعماق ، مع قيم عمرها اكثر من قرن ... ان « دريس » لم يصح .. لم يتطهر ... فالاستعمار نجح في جعل عوائقه .. سمه ... عاره .. من داخل .

هذه هي بداية الخط النفسي الذي بدأت تسلكه شخصية « دريس » وامكستنا به الروائية الفرنسية « جانين اوريانو » لنتابع معها تطورات المسار السيكلوجي لهذه الشخصية النمطية ـ التغيرات الدخيلة المنعكسة عن المواقف والاحداث التي يعايشها بورجوازي صغير منسحق نابع من مجتمع مستعمر .!

فعندما تلتقي الشخصية بالانسة « بلانشي » العانس ... تعطف عليه ، لانه جزائري من الارض التي مات عليها ابن اخيها .! من الناس الذين اوصاهم بها لانهم « تعساء ويجب ان نساعدهم » ثم يتركها ليلتقي بمتعطل اخر .. فرنسي هذه المرة .. يبتز منه ماأخذه من العانس !.. ويستعد للذهاب الى اسرة « جاك » صديقه في الجزائر وزميله في الدراسة ، ويلقي نظرة على لباسه الزري فتكبله مشاعره ، مخافة من ان تعرف اسرة صديقه انه محتاج..! خوفه من الا تستقبله ، فتضعه امام عجزه وفشله وتحطم احلامه ... كرامة طبقية مريضة وسمة نفسية ثانية تنسحب على النمط الذي يمثله « دريس » ولا تنسوا ان دريس مثقف قضى اعواما في المدرسة الفرنسية الاسلامية !!..

والاحاسيس التي تنبثق في نفسه من غربته .. وضياعه .. والحاجة للعمل .. لا تدفعه كل هذه الاحاسيس الى ان ينفلت .. يتفتح ، يعي قضيته . فالبناء النفسي جدار ضخم يحول بينه وبين كل هذا ، البناء النفسي لاؤهله الا لان يحلم : بان الاله يحبه كما لو انه ابيض البشرة ولم يعد «واحدا اخر» ـ عندما كان بالكنيسة ـ وفي القبو حيث ينام اثنا عشر افريقيا الى جواره ، حيث العرق والاجهاد ، والصراع الوحشي حتى في النوم ، عفونة المكان ولا ادميته ـ بدأ « دريس » يشعر بالخوف من الاخرين ـ فلا انعطاف ـ ومن الخوف والبرد ومن الاشمئزاز من المشاركة في المصير تبدأ رحلة الهروب « ليعطوني فتاة اي فتاة .. جميلة او قبيحة ، شابة او مسنة ... ان ذلك لايهمني اذا نجحت فتاة ان تنسيني من انا لمدة دقائق » واحلام اليقظة نتاج لحرمان وكبت ... وسمة اخرى لهذه الانماط التي تنشد خلاصها في « يوتوبيا » !

الى هنا ولا تزال الشخصية متخبطة في سلوكها ، منغلقة على ذاتها ، تعيش انانيتها ، ولا تكاد تستجيب لطرقات الواقع ، بل تبدو كأن هذه الطرقات تنزلق على السطح النفسي لها . فلا تغير ولا شروع في تعديل المسار النفسي نحو دروب الصحة والوعي والمشاركة .. ولكن النظرة المعمقة ترينا أن تحت السطح .. ووراءهذا التجمد الظاهري على سلوكية معينة ، قد بدأت تراكمات بسيطة تتجمع واصوات طرقات تعلو فالاحداث بدأت تهزه ، تسخر باحلامه الفردية ، بانغلاقه .

فمقابلة « جاك » والحوار المتأزم بينهما ، واخبار القتال عن قرى برمتها تحرق من اجل قتل فرد ـ ولا يزال « دريس » بعيدا عن الجزائر عن التغيرات التي حدثت يخرج حديثه عاديا كأنه لا يعنيه شيءهناك ، ويبدو كأنه كسب صداقة « جاك » ووجود عمل اهم من الحرب والجزائر معا ـ ثم .. ثم لمسة مباشرة لوجدانه . .هزه عنيفة .. .لطمة « قتل اخوك ، لقد حملوه الى امك وعلى وجهه غطاء .. كان يحمل اسلحة لم يرد ان يسلمها . .وقد قتل بينما كان يحاول الفرار » .

وترنح للخبر ، وبدأ شيء يتحول في الداخل ، فلم يعد الامر بعيدا ، قتل اخوه .. هذا الاخ الذي كان اشجع منه واجدر بالحياة .. انه لم يخف قط ان يقاتل او ان يجوع ، فكم كان اعدل واجدى لوطنهما ان يموت هو دريس .. سقطة سيكلوجية ، اعتراف بالجبن في لحظة انهيار !.

وبدأ يعرف رأي الفرنسيين فيه وفي رفاقه من كلمات صديقه جاك. «ما الذي تفعله في هذه البلاد؟! كل يوم يصل عدد اخر من اقربائك او رفاقك ومع ذلك، فانكم تشغلون جميع الاعمال القذرة هنا.. فلماذا اتيتم بهذه الكثرة الى فرنسا ! جيش لجب من الرؤوس الجاهلة .. والايدي الفارغة ، ولقد شعرتم بان باريس لاتخصكم كما تخص الاخرين .. ان شعورك بانك فرنسي يشبه الى حد ما شعور ابي بانه عربي حين يدخل مشتى من مشاتيكم » ...

اذن فليس الوطن الام هو فرنسا . خدعة كبيرة عاشها .. وما هو الا افريقي فليبحث عن الافريقيين امثاله ، والتقى بهم في مقهى للمتعطلين يبحثون عن اعمال ، ودفع مامعه الى « ارمان » افاق فرنسي اخر ، يمتص فرنكاتهم الباقية ولو كانت عنده اعمال لعمل هو !.

ومن خلال كل هذا يتعرف دريس على نمط جزائري اخر تضمه باريس « عبد » عامل في مصنع له نشاط سري ورفاق ، امل الخلاص الحقيقي انه في الطريق هو ورفاقه ، ابناء الجزائر تملأ رؤوسهم ، وفاطمة زوجته وشريكته ، تعرف انه شجاع ، يكافح حتى لايمثلوا مع غيره الدور القذر الذي لعبوه معه .. كان يكافح حتى لايظل الجزائريون يأتون الى فرنسا وقبض عليه هو ورفاقه ـ هزت ادريس ، الكلمات البسيطة الشريفة

الخارجة من فاطمة ، والدور الرائع الذي يلعبه عامل من مواطنيه فاندفع يقول في موجة حماس « سوف اساعدك في العثور عليه وسوف احضر انا ايضا اجتماعاتكم وسترين اننا ننتصر في النهاية » واستيقظ اكثر فبدأ يصيح « انني ابدا رجل اناني ، لم ارد ان انضم للذين في مثل وضعي ، ولو اخرجني ارمان من بؤسي ما فكرت في المتعطلين ، لقد اضعت الوقت وانا وحدي ، لم احضر قط تلك الاجتماعات التي كنت اسمعهم يتهامسون بها وكأنني كنت في صف من وضعوا عبد في السجن »

صحوة .. يقظة ... لحظة رائعة من لحظات التفتح . ولكن للاسف لاجذور ، فهي يقظة من خارج ، انفعال وقتي يحول بينه وبين ان يعيش في وجدانه .. ركامات ، احلام طبيعية تستقطبه ليقف مع الذين سجنوا « عبد » ، يرنو اليهم باعجاب بينما احذيتهم تسحقه ! انه لايمكن ان يسلك المسار الثوري غير نماذج ايجابية صلبة لامتقوقعة .

ولكن وجدان « دريس » المهترىء الذي مزقته العوامل السالفة لم يحتمل الصحوة ، لم يجد الشجاعة في ان يحمل صليبه وينضم الى الجموع ، لقد راعه ان يكتشف ذاته ، لقد اخافته الطريق ، فالطريق تضحية وجهد ، انفتاح ، لا انانية ولا احلام مريضة او انتهازية خلال الطريق بل العرق والعمل ونكران الذات !!!

وكان لابد بعد تلك الذبذبة النفسية العنيفة ، بعد الصراع الحاد الذي نشب في نفسه ، بعد المنلوجات الداخلية التي نهشت كيانه ، كان لابد من منعطف جديد للخط النفسي . ولما كان التكوين الداخلي للشخصية لايسمح لها بالصعود وبالتطهر ، فلا بد من العكس ، لاشيء الا الانحلال ، الا السلوك المريض اللاانساني ..

فامتدت يده الى « الالف فرنك » التي تملكها فاطمة زوجة « عبد » العامل الجائري السجين الذي اواه ، ولم يفعل هو شيئا الا ان القم ضميره حجرا « ساردها لها » وذهب الى الانسة بلانش التي عطفت عليه اولا ، فاخذ يشرب الكونياك بوحشية ، ولسانه يخرج اعماقه المتمزقة ، ثم ختم ليلته باغتصابها ، في فورة سكر وكبت وتأزم ، وهكذا صار عربيدا لانه لن يستطيع ان يعيش في باريس الا هكذا ، وفي الصباح كان يسير ووراءه كلمة احد المارة « هؤلاء الافريقيون الشماليون ، جميعهم عرابيد »

هذه هي الملامح العامة لشخصية « دريس » كما رسمتها بعمق وصدق الكاتبة الفرنسية الحرة « جانين اوربانو » ونقلها الدكتور سهيل ادريس الى صفحات الاداب الغراء (١) فاتاح لنا ان نرى عملا فنيا جديدا ،يزيد من تفتح عيوننا واذهاننا على واقعنا العربي ، ويزيد من ايماننا بانه في نفس الاماكن ، التي ترسم فيها الاذهان المريضة : الحرب والفاشية ، ويكتب فيها ادب الهروب والخيانة ، في نفس هذه الاماكن تتحرك الضمائر الشريفة ، والاقلام الحرة لتكتب ادب السلام والتحرر ، وانه في كل يوم تضاف قسمة بانية ، غنى جديد ، الى صف الانسان الطالع في كل مكان .

والعطاء الذي يقدمه العمل الفني ويبرزه ، هو هذا التخطيط الدقيق لشخصية نمطية تعوقها عوامل كثيرة عن التطور والمشاركة في عملية الصياغة الجديدة للحياة المرجوة ... نموذج مريض منهزم ، يدفعنا الاحساس بهذه من خلال العمل الفني ومعايشته ، الى التفتيش عنه ... فهل يوجد هذا النمط في الجزائر الان ؟ كم دريسا هناك ؟

ان الحقيقة التي تؤكدها الاحداث ان هذا « الدريس » قليل في الجزائر ـ سواء من ناحية العدد او ناحية الخطر ـ فالثورة بلهيبها المقدس ، المستقل من زمن طويل ، قد احرقت تلك العواسج السامة ، كل العفن ، طهرت تلك النفوس .. دفعتها الى نسيان انانيتها ... فمن خلال الحرب ، والخطر المشترك ، الذي يهدد الجزائريين ـ لمدة طويلة ـ بلا استثناء ، اجتثت عوامل الانحلال والتميع .

كانت حرب التحرير الجزائرية ـ ككل ثورة تحررية ـ « مطهرا » ... مرحلة انتقالية بين « جحيم » الامس ، الى « فردوس » الغد ..

لاخوف اذن من « دريس » على الجزائر وثورتها الصاعدة ، وانما الخوف علينا ، علينا نحن في شرقنا العربي ، حيث يتعدد « دريس » ويتكرر ، وينمو ، ويشكل خطرا ... انه مازال بيننا ـ بكل اسف ـ عدد كبير من المثقفين ، وانصافهم ، قراء صحف اخبار اليوم ـ والكتب الانيقة ذات الورق المصقول جدا ، والثمن المعقول جدا ايضا !! ما زالوا يؤمنون بان اميركا وفرنسا وانكلترا بلاد النعيم ، والحرية ، ولا يمكن ان يأتينا منها الا كل خير ..!!

هذه اذن قضيتنا ، مشكلتنا العصابية ، الجدار الذي يحجب عنا الحقيقة ـ لاوعي ثوري ـ لافهم علمي للواقع العربي والعلمي ـ ...

والان ؟

بعد ان كشفت الروائية الفرنسية الشابة عن « دريس » ونقل رئيس التحرير كشفها الينا ، فعلينا نحن المثقفين العرب المتسلحين بالوعي ، علينا ان نفضح كل « دريس » ان نحاول توعيته ، ان نحاول ادخال النور الى سراديب نفسه ، فان حاول ان يشكل خطرا ، ان يعرقل ويعوق كعشب سام ، فعلينا ان نحرقه في نفوسنا وفي الاخرين .

القاهرة — **خميس شاهين**

(١) عدد اغسطس ١٩٥٩

حول قصة

بقلم : جان الكسان

ان يطلق قلمي في صحيفة اسود بياض صفحتين منها بما اشاء من اراء دون حسيب او رقيب ، فان هذا يهيب بي لان اعمد فورا الى احتلال مقعد استاذ كبير ، اشير منه بايحاء ـ لا يهمني ان كان افتعاله ظاهرا للعيان ـ الى طول باعي في ميدان النقد الادبي مثلا ، والى انني العملاق امام اقزام شاء حظهم انتوضع قصصهم امامي لاعمد الى تشريحها بساطور القصاب العصبي لا بمبضع جراح ماهر ..

هذا ما افعله اذا كنت من الذين يتنكرون للضمير الادبي ، وللامور الواضحة وضوح شمس حزيران ، اما اذا كنت ذا حصافة ، ورأي سديد ، وانصاف ، فانا ازن الامور بوزناتها ، واعطي كل ذي حق حقه ، ولا ادع المخطيء دون تقريع عادل ، مجرد ، مخلص .

واخي صدقي اسماعيل كان في نقده لبعض قصص عدد اب من الاداب، من النوع الاول مع الاسف الشديد ، اقول هذا واشفع قولي باحترامي لشخصه الذي اجله . وكم تمنيت على اخي صدقي لو راجع ما كتب من نقد لقصتي (الشمس باردة في خط الاستواء) ، وقصتي زميلي زكريا تامر وياسين رفاعية : (النهر ميت) و (الحزن في كل مكان) اقول لو راجع ما كتب بضمير ناقد متجرد ، لادرك ان نقده ان هو الا اجحاف بحق هذه القصص الثلاث .

لن اتهم اخي صدقي بان غضبه من نقدي يوما في الجريدة التي اعمل بها ، الزاوية التي تقدمها السيدة زوجته من راديو دمشق ، تدخل في هذا النقد ، فليس من شيم الاديب ان يسف الى درك المهاترات الصبيانية ، ولكني احب ان اناقشه نقاشا موضوعيا ، هادئا ، موجزا ـ لضيق المجال ـ حول البنود التي شاء ان يقسم اليها نقده لقصتي ، اذ يقول عني انه حشد فيها ما يلي :

١ ـ شخص يختنق في مدينته المخيفة لان الحياة فيها مجرد ضياع (ما هي نقطة الضعف يا حضرة الناقد في اختناق نفسي لشخص يشعر بالضياع في المدينة ؟)

٢ ـ حكاية تحليلية عن شاب دلله ابوه في الصغر فنشأ جبانا ، ولكن الاب في الوقت نفسه يشد على يده يوم الذهاب الى الجندية ويوصيه بان يعرف واجبه . (لماذا اوهمت القاريء يا اخي صدقي بانني اتكلم عن شخصين ، اسميت ـ انت الاول في البند الاول من النقد « شخصا » ثم اسميته في البند الثاني «شابا» ، ثم متى كانت الكتابة عن توصية والد عربي لابنه الذاهب الى الجندية والذي كثيرا ما دلله في صغره، توصيته له بان يعرف واجبه ، ضربا من الخطل يجعل منه مأخذا على القصة ؟ ثم لماذا اغفلت المبرر لهذا التصرف والذي ورد في القصة يقول ان الاب قد عجم عود الجندية وحارب في ميسلون والدردنيل وفلسطين؟)

٣ ـ يقول الناقد عني : ينتقل من لعنة الجبن التي تنهال عليه في كل مكان الى البطولة ، ويصبح بطلا بكلمة واحدة هي : في صباح اليوم التالي كان خبر تسللي الى مراكز العدو ونسفي الجسر حديث الخطوط على طولها . (في هذا النقد خطأ لا ارتضيه لاخي صدقي اسماعيل الذي اعرفه كثير التبصر في المفاهيم ، والا لماذا يعجب من ان يصبح بطل القصة بطلا لانه نسف الجسر الذي هو عقدة مواصلات العدو في الارض المحتلة ، الانه حقق بطولته في ليلة واحدة ؟.. اننا لو سلمنا مع صدقي بهذا لحذفنا من قائمة اسماء ابطالنا : جول جمال ، ويوسف العظمة ، وعدنان المالكي وغيرهم .. قليلا من التبصر يا اخي صدقي !..)

وتتتابع البنود بعد ذلك بايحاء مفتعل ، وبجمل مبتورة ، يقول بعضها ان في القصة موعظة اخلاقية عن الانهزامية ، وان فيها نداء عاطفيا حزينا موجها الى المدينة ، وان اشخاصها كثيرون ... الى اخر هذه التعليقات التي يتبرأ منها النقد .

وما ادافع به عن قصتي ادافع به عن قصة زميلي زكريا تامر (النهر ميت) التي تعد من انجح القصص القصيرة التي قرأناها في المدة الاخيرة، فان عدم تذوق الناقد لها لا يسمح له ان يقول لكاتبها ، وهو قاص متمكن ـ اقرأ كثيرا قبل ان تنشر غسيلك على الناس ..

وكذلك اقول عن قصة زميلي ياسين رفاعية (الحزن في كل مكان) ، واحيل الناقد الى ما كتبه الناقد المعروف رجاء النقاش حول هذه القصة في مقال (نحو قصة عربية) المنشور بنفس العدد ، ففي هذا المقال عن نقد مثل هذه القصة الخبر اليقين.

واخيرا ، ارجو ان يتسع صدر (الاداب) الكبير لهذا الرد الموضوعي، لاسيما وان بعض كتاب باب (قرأت العدد الماضي) يستقاون عدم وجود الرقابة على ما يكتبون ، فيروحون في عملية تجريح وتحطيم باسم النقد المسكين .

لقد نصحني اخي صدقي اسماعيل ان اقرأ تشيكوف و او . هنري بتعمق قبل ان اكتب .. ولا ادري كيف يسمح لنفسه بالحكم علي بانني لم اقرأ هذين الكاتبين بتعمق، وهو يستندالىاحكام مغلوطة اطلقها حول قصتي.. وهل يجب ان اقابله بالمثل فاحيله الى سلسلة من كتب النقد لنقاد غربيين وعرب ، ليقرأها بتعمق ثم يكتب في النقد ، فلا تأتي اراؤه بعد ذلك ـ كما يقول المثل الفرنسي ـ وقد شدت من شعرها شدا !!

جان الكسان

من(جمعية الادباءالعرب)

المقدرة السلبية في النقد

بقلم : حسان منير

تتميز القصة الحديثة اليوم بقوى معينة من الادراك الحاذق تحولت الى هذا الجزء اللاواعي من الثقافة فجعلته في متناول الفكر الواعي ، وقد يظن ان ذلك يعني ان لا تعنى القصة الحديثة بالافكار ، وان القصاص المبدع بمنجاة من حكم العقل الصحيح ، غير انني ما قصدت الى هذا ، انما عنيت تلك الفكرة القائلة : ان الوسيلة الوحيدة لتقوية العقل هي عقد النية على لا شيء ، وجعل الذهن طريقا عاما لجميع الافكار لا لنخبة مختارة منها ، ومن هنا يصدر حكم النقد الحديث على القصاصين القدماء والتراث القصصي القديم : « انهم رجال اذكياء وادباء ، الا انهم جد نظريين في عقليتهم ، وهم لذلك لن يعثروا على حقيقة ما طيلة حياتهم ما داموا لا ينفكون عن محاولة العثور عليها (١)» . وبالاضافة الى ذلك

(١) ليونيل تريلينغ : ملابسات القصة الحديثة . الهلال سنة ١٩٣٦

لا يستطيعون ان يظلوا قانعين بنصف المعرفة .

وعلى كل مهما اسهبت في شرح ملابسات القصة الحديثة فقد لا اتوصل الى اكثر من ان ثمة اعتبارات معينة تطغى على حاسة الجمال عند القصاص المبدع ، وهي نفسها ـ هذه الاعتبارات ـ تجيء عفوا . .

في العدد الماضي من الاداب اخرج الاستاذ صدقي اسماعيل مقومات القصة اثناء نقده لعدد من القصص ، والحقيقة ان هذه المقومات تصدم عقل المثقف الحديث ـ الخط الواحد الذي يتسلسل فيه الموضوع، العبارة البسيطة الحية ، ترابط الصور الفنية ، الوضوح الذي يفرضه هذا اللون من الادب ـ ماذا يعني الخط الواحد الذي يتسلسل فيه الموضوع، وهل يمكننا ن نعتبره من مقومات القصة؟

ان الخط الواحد الذي يتسلسل فيه الموضوع ، والعبارة البسيطة الحية والوضوح الذي يفرضه هذا اللون من الادب كل هذا انما هو من مقومات المقالة ، اللهم الا اذا اراد الناقد ان نعود الى الواقعية الفوتوغرافية ـ التسجيل الالي لظاهر الحياة دون المساس بجوهر اعماقها ، الامور يجب ان تجري كما تجري في الحياة حيث الكثير منها لا يجري قط بذات الاسلوب ـ ان الناقد يرى ان القصاص كلما توغل في النادر والغريب ازداد غموضا وتعنتا ، قد يكون الحافز على هذه النظرة استنارة عقلية جديرة بالاحترام الا انه لا يسعنا التجاوب معها في هذه الايام ، فنحن نهوى الغريب النادر ولا نتجاوب مع المألوف المبتذل ، او لعل علاقتنا مع المبتذل معقدة على الاقل ، فقد نرغب في شيء من عناصر الابتذال في لغة الشعر والادب عموما على ان يبلغ حد التطرف والتهويل بحيث يخدم كحد اقصى امكانيات الحياة اليومية ، وبالاختصار نرضى بالمبتذل متى قارب الغريب النادر واندمج فيه .

ثم هناك ناحية يجدر بالناقد الكريم الالتفات اليها ـ تلك الاستطرادات التي ليست لها علاقة بالموضوع . ان السيد فاضل السباعي يقدم جزءا من الحياة الواقعية في قصته « الربع الحلال » فهل من الضروري ان تكون للاستطرادات علاقة بالحادث الرئيسي ، مع ملاحظة ان القصص يقدم صورة حياتية بشكل ممتليء ؟ لا ينكر ان نقد الاستاذ صدقي ينطوي على معان سامية تستحق الملاحظة ، ولكن لا يسعنا ان نتجاهل حبه لسوقية اللفظة كتعبير مثالي في القصة ، ورفضه لعبارات حية معبرة ـ « بان لعينيه الباص يلفظه المنحنى هناك » « وعن الباص » ، « امتص حاجته من الوقوف » ثم «طفرت من تحت شاربيه بسمة طيبة » اذا كان ثمة تحذلق في هذه العبارات فلا بد لي من ان اسأل الناقد الكريم رأيه : في قصة « انا قذرون ـ لسالارويه » عبارات شتى مثل ـ « انها زهرة عجيبة من الحديد الابيض كان يفوح منها عطر موسيقى » وكذلك « انغرست الابرة في الثلم . وارتفعت الاغنية في النسيم الفاتر كأنها شيء مسحور ، وجمدت احراج الجوز في البعيد عروقها واخذت تصغي ، وكانت نجمة السماء تبدو وكأنها تكبر وتصغر كما لو كانت معلقة في خيط ، ثم غمست وهم يرفعونها او ينزلونها في ماء الليل الهاديء » ـ ايهما اشد غرابة ، وايهما اشد تحذلقا ؟ اليست عبارات سالارويه ؟.

ثم في قصة النهر ميت ـ « اكل الذباب عينيها » ، « انا عنكبوت ، انا غبار ، انا ذباب المدينة الخ » . ان هذه الالفاظ لا تخلو من المبررات الفنية التيتثبت ضرورتها ، لذلك لم تات خالية من حرارة الصدق والتعبير على نحو ما توهم الناقد ، وواضح ان تجريد اللفظ عن ملابساته الداخلية النابتة في ارض الواقع يجرد الناقد معها من التتبع الشعوري لنمو الظاهرة ، ولست اجد للاستاذ « صدقي » عذرا في هذا التجريد الا عدم قدرته على تفهم جذور القصة مما جعله ينكب على نقد الالفاظ الظاهرية دونما وعي بالظروف الموضوعية المحيطة ببطل القصة .

لقد امتاز نقد الاستاذ صدقي بكونه تحليلا سيكولوجيا للغة ، وهذا اسلوب نافع في النقد لولا ان في الادب لحظات لا تبوح بسر قوتها الى دراسة لغوية لان تلك القوة لا تعتمد على اللغة بل على الخيال الادبي.

ـ عندما نطالع كيف انتهك البطل حرمة اخته وداس شرفها ، وكيف ماتت منتحرة ، او كيف دب اليأس في نفسه الاسترسال في نشوة واسى عميقين ـ اي شيء يستطيع ان يوضح سلطان هذه اللحظات علينا ـ هل تستطيع الالفاظ والعبارات البسيطة ان توضح مثل هذا الحادث، بل وحتى عندما نستحسن التعبير اللفظي عن تلك المشاعر لا يسعنا ان نعالج لفته بالتحليل ، لان التعبير انما كان حقيقة ادبية لا منطقا سيكولوجيا .

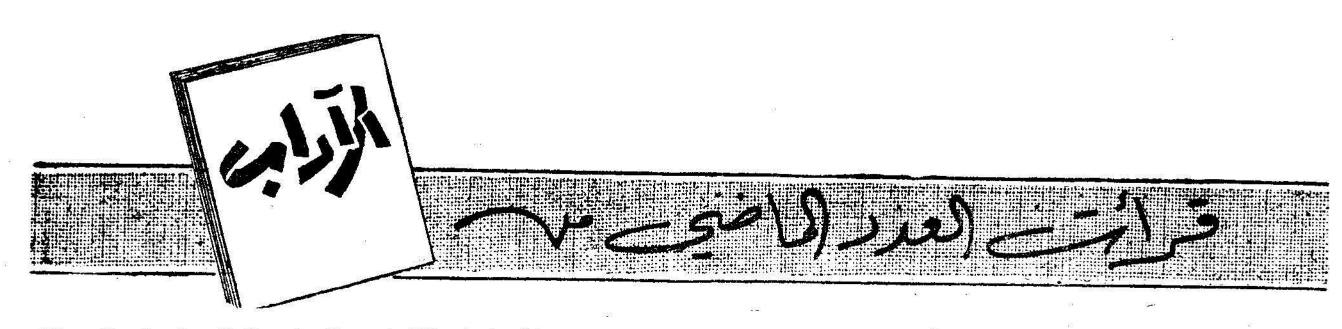
اما وان الاستاذ « صدقي » يضع القصاص المتمرس موضع التلميذ المبتديء ـ تريث كثيرا في نشر ما تكتب ، واقرأ كثيرا ولا تنشر غسيلك امام الناس ـ فان القاريء الحساس يشمئز من هذه الصور ولا يقتنع بهذه الثورة الكلامية ـ البلاغية ، ان مثل هذه الالفاظ والحوار والمخاطبة اصبح شيئا مستهجنا في النقد الادبي حيث لا يتسع المجال رحبا امام مناورات لفظية ومباريات بلاغية .

حتى ولو لاحظنا ان الاستاذ « صدقي » رجل صادق النية ، امين في نقده فاننا يجب ان لا نتجاهل بحال من الاحوال ان ميزة فن النقد هي قوته واندفاعه بحيث تتبخر الاشياء البغيضة بسبب قربها من الجمال والحقيقة . وان ناقد القصة اليوم يجب ان يجمع بين حكم الاداب وحكم الذوق والجمال .

حسان منير

دمشق

من « رابطة الادباء العرب »



القصائد

بقلم : محيي الدين صبحي

--

منذ شهور وانا في شوق الى فرحة عرمة بان اطير على جناح حرف الى عالم من نغم وخيال وطموح يراود العلياء ، او يغوص فيفضح للقلب اسراره ، ويعري التوق في حسن مجلو ونزوة متلهفة راعشة .

ان الشعر في العراق ! أكلما اسدل الستار وتقطعت الاسباب بيننا وبين الرافدين قدر علينا الحرمان من ابنية السياب بجبروتها ومن اغنيات الملائكة بشحوبها ؟ وفي الحق ان الشعر العربي يتيم بعد صمت الجبارين البعيدين كأبوريشه والقباني والحاوي والعراقيين .. اما سلمى الخضراء فما تزال تعطي بكرم ، واننا لنامل ان نرى ديوانها في العاجل القريب . اما الخطير في الامر فهو انه ما طلع في دنيا الملهمين واحد يبشر بخير الا وصمت بعد اول ديوان ... ولنا في شعراء مصر مثولة حسنة ... كأن موهبتهم لمع براعة وليست ضوء نجم . وعلى الرغم من ان موهبتهم قد استهلكها ـ فيما يبدو ـ ديوان واحد ، فان لهم قصائد تحمل بعض التعبير عن روح الامة والعصر ، كما ان فيها بعض التمكن من فن الشعر وصناعة الشعر . اما ما نقرأه فشعر «حديث»! خال من اي تعبير « حديث » وان وجد شيء يحمل بعضا من رفيف ففارق في ركام الكلام العادي والفكرة المبتذلة حتى نكاد نستذكر المثل القديم « رب جوهرة في خرابة » . ويدخل في هذا الباب من شعر العدد الماضي قصيدة خليل خوري « الى سواد عينين » . وهي قسمان :

١ ـ « الصحو المخمور » : قصيدة كان يمكن ان تكون جيدة لان الحركة النفسية واضحة في بعض المقاطع .. واننا لنقع في دوار اذ نقرأ منها :

.. وصفاء الابيض النعسان في اثوابه
أبدا القاه يرميني ، على شطآن لا ادري مداها
ليل عينيك وارحل .

الا انني لم استطع ابدا ـ رغم محاولاتي المخلصة ـ ان افهم مطلع القصيدة :

انت ، ما ترنين ، شيء ليس لي عهد به

فانا لم افهم معنى « انت ما ترنين شيء » اذ ان الجملة الاعتراضية (ما ترنين) ليس لها اي معنى سوى الوقع الموسيقي . ولا يستقيم المعنى الا اذا كانت «ما ترنين» اسم علم مثل «جانين» .. ثم يتم القصيدة على هذا الشكل :

في وجودي يتململ
وضبابيا ، ومن لون الصحاري وجبيبات الندى في موقفله .

ترى ما هو عامل النصب في « وضبابيا » ؟ على ان القصيدة في جملتها متماسكة وفيها دفقة شعورية وشعرية كان يمكن ان تكون اكثر تأثيرا لو استمر الشاعر في هذا النسق من البوح ، لكنه بتر ، وابتدأ مقطوعة جديدة هي « الوهن العاني » يشتكي فيها من انه يعجز عن الحب امام من يهوى كما قال الشاعر القديم :

فما هو الا ان اراها فجأة فأبهت حتى ما اكاد اجيب !

ولكنه لا يعطي المعنى بهذا الشكل المختصر وانما يعطيه بحسب الشكل الحديث الذي يستخدم طريقة الاحياء والتجسيد :

تبهت الحاء ، وتشقى الباء
كي توضح ما ليس يعرف !

وفيما بعد :

وتمد الماء كفا
وتمد الباء اضلاع السلال ؟!

وهكذا توضع الخمر القديمة في باطية جديدة وتقدم للقارئين على انها شعر حديث !

والمشكلة ـ فيما تبدو لي ـ مشكلة الانسان العربي : يكون ابداعه جديدا على مدى تجدده وتخليه عن القيم العتيقة واعتناقه لمثل جديدة واستشرافه لحياة جديدة وتعبير جديد . وقد عرض لمثل هذه الحال الشاعر المجدد صلاح عبد الصبور فقال :

قد يعقد الوجد اللسان
فلا تسلني عن خبر

واستمر بعد ذلك في تقديم التجربة ...

ان المشكلة في كل قصائد العدد (ما عدا سمعتنيك ، وكلمات انسان معاصر ، وستشرق الشمس ثانية) هو وقوف الشاعر عند حدود التجربة الضيقة دون ان يقدر على الاطلال الى افق انساني . واننا لنسأل انفسنا بعد قراءة هذه القصيدة : عم اراد الشاعر ان يعبر ؟ أعن عجز الانسان امام الحب او امام الجمال او عن ضعف ادوات التعبير ؟.. ان القصيدة سرد معدوم الحركة .

ويلحق بهذه القصيدة ـ من حيث كونها محصورة في رؤيا مسطحة ـ قصيدة «الطريق الشائك» للشاعر كيلاني سند وفيها يظهر خداع الصور على اشده ، فالشاعر يحاول ان يصور صعوبة الدرب الذي نشقه في سبيل حياة افضل فيعتمد التهويل في تعداد المفاوز المهلكة : اجتياز البحار وصعود الجبال وارتياد القفار وانسفاح الدماء في سبيل اغنية ! ومع ذلك فالقصيدة تعجز عن اثارة عصب واحد في حساسيتنا لانها سرد لعدد من الصعاب وليست تحليلا للجهد الذي يقتضيه اي منها . ان القصيدة تخلو تماما من روح التحدي والتمرد ومن كل العوامل التي تصور الصراع . انها « قائمة مشاكل » اكثر منها وقفة شعرية على امجاد جيل يصارع الاقدار ويهزمها . وهي مع كل ذلك تحتوي قدرا من (نظم المنثور) .. قدرا يكفي اية قصيدة لان تتحطم . اسمعوا :

كم جبهة عالية ، ملهمة مفكره

ما ابدعته في سجل الخالدين مفخـرة !

وفوق هذا كله ... نلمح قاموس نزار قباني.. ولكن خاليا من اناقة الصانع الاول. ومن هذا النسق في « نفخ » المعنى القليل و « تذويبه » في اكبر مقدار من الصور قصيدة « التتر الحمر في كركوك »... وهي من شعر « التعبئة الوطنية » التي شاهدناها ايام البطلة « جميلة » حين جرب كل ناظم « مبضع تفاعيله » في موضوع جميلة ... وما مر عامان حتى نسينا كل ما كتب عنها ـ لخلوه من الاصالة والصدق ـ وبقيت البطولة تنادي شاعرا يمجدها ! ان ما يذبح كل هذا الشعر عدم تروي اصحابه حتى تتجلى لهم رؤيا انسانية تربط شعرهم بقضية ما ... أقول هذا لانني اجد في قصيدة الشاعر « رفيق الخوري » مثلا طيبا على اللقطة الحلوة اضاعتها قلة الروية . يقول الشاعر :

الحب ... والسلام ... والرغيف

ملطخ بالدم ... بالخريف

ممزق في الدرب مصلوب على النخيل

وقمر الجريمـة الهزيل

يغمر بالاشعة الحاقدة السوداء

جمجمة لطفلة سمراء

تركلها الاقدام في انتشاء

ولم تزل خصلاتها ترف للمساء

ترسم درب عودة لبيتها المضاء

لامها .. للوالد الشغوف

ترسم تاريخا بلا حروف

هذا المشهد يأتي بعد عديد من الابيات التي تتحدث عن الدماء والحقد والاشلاء والرصاص ... الخ . ويعرض المشهد ثم تنتهي القصيـدة باعلامنا ان التتار الحمر فقؤوا الف عين بريئة وشربوا الخمر في جماجم الاطفال .

بماذا يفترق الشاعر عن المراسل الصحافي ؟ لعل الاخير يضطـر الى الايجاز أكثر ! وبماذا يفترق فن الشعر عن فن الريبورتاج ؟

ان الاطفال المعذبين والاطفال القتلى رمز استغل منذ حديث المسيـح عنهم الى اليوم ... وقد كتب فيهم دوستويفسكي (وهو روائي وليس شاعرا) اعمق مناقشاته عن خلاص العالم فقال بما معناه (اذا كان خلاص العالم مرهونا بشقاء طفل يعذب في الظلام ، فهل نرضى بهذا الخلاص ؟) وبذلك رفع دوستويفسكي هذا الرمز وساواه بالقدر وربطه بقضيـة مصير الانسان وخلاصه عن طريق ثورة حمراء ! ترى لم هذه السطحية؟ وما سبب العقم ؟ هل السبب قلة الموهبة ام قلة الثقافة ام قلة التأني؟

هل اتابع الحساب ؟ الحب والسلام والرغيف .. ملطخ بالدم ... بالخريف . انا افهم ان يلطخ الرغيف بالدم ولكن ما ذنب الخريف ؟ هل يقال ان هذه استعارة او رمز ؟ في البلاغة القديمة كانوا يعجبون بما يسمى (الترشيح للاستعارة) اي خلق الجو الممهد لانتقال كلمة من معنى الى معنى اخر كأن تكون حسية فتجرد والعكس اما هنا فالمفاجـأة تامة حتى لا نستطيع ان نقول الا ان الخريف جاءت قافيـة للرغيـف كما ان صفة « هزيل » في « القمر الهزيل » جاءت على قافية النخيـل وكذلك بقية الصفات والقوافي ... على ان هذا كله مقبول ـ ففيـه على الاقل محاولة اولية لايجاد فن او ما يشبه الفن .. وهناك اثر جهد ولو في وضع الصفات والقوافي ، اما قصيدة « طارق الليل » ففيهـا

حسب تعبير محيي الدين محمد ـ سوء « تمثل » لنشيد الانشاد حين يقول : افتحي يا اختي يا حمامتي . رأسي امتلا طلا .. الخ.. وكذلك يبدأ كامل أيوب :

نقرت نقرتين ...

صديقتي أتيت فافتحي

حتى يقول :

ومتعبا ـ صديقتي ـ اتيت من بعيد

تقودني البلاد للبلاد للبلاد

وهكذا بامكاننا ان نتخيل كلمة « للبلاد .. » تتكرر الى ما لا نهاية بدون ان تقتضيها اية ضرورة .. كما ان تقديم الحال « متعبا » على الفعل فيه لكنة اجنبية وخروج على قواعد اللغة ما دام ليس هنـاك اي لزوم للتقديم والتأخير . واذا اردنا مثالا على الركاكة وعدم استقامة الجملة العربية في ذهن الناظم حتى يكتب كلاما لا هو بالشعر ولا هـو بالنثر ، قبسنا من المقطوعة هذه الجمل المتتاليات :

أجل انا رجعت ...

الثوب ما خلعت ، وما قعدت ..

الى اخر هذا الكلام الذي لا يستقيم على ذوق ولا ينسجم مع اذن . واذا اردنا ان نعرف كيف ينحط الشعر الى مستوى الكلام العـادي المبتذل الخالي من اي معنى قرأنا في نفس « القصيدة » قوله :

ماذا عن الاصحاب ... كلهم بخير

محمود .. في سفر ؟

ماذا يختلف هذا الكلام عن قوله : ازاي الصحاب . ان شالله مبسوطين امال ... محمود مسافر ؟

أليست سلة المهملات بحاجة الى « شعر» من هذا النوع ؟ مهـلا فما يزال لدينا من هذا النوع قصيدة (فطام) حيث يدعونا الشاعـر ان نسأل (أهل الحي) و (شيخ الحارة) عن حياته العاطفية المليئـة بالمغامرات :

لا تحسبوا ان فؤادي فارغ من الهوى

فلي ككل الناس قصة قديمــــه

وذكريات حلوة ومره

وكل ما في شعركم عرفته ، وذقته

ومت فيه الف مرة ومره

او فاسألوا عني اهالي حينا

واذا لم نجد في هذا الكلام تجربة ولاعطاء انسان ولا صنعة ـ ولو لفظية ـ ولا موسيقى ولا اي شيء يدل على الجهد فان لدينا قصيـدة اخرى تحمل ذات الاقانيم ومطلعها :

ما زارني يـوم

مذ مسني الهم .

وفيها من (حسن الاستدراك!) ما يجعل (لكني) نصف الشعر !

ادور لكني الى ملقاك جاهد

أراقب النجوم حيث انت

واتحف السماء بالف بيت

من شعري الطليق !

وهذا بحسن التعليل في قصيدة « خليل خوري » حين يقول :

تبهت الحاء وتشقى الباء

(كي) توضح ما ليس يعرف

واذا فالتركيب النثري ظاهرة عامة . والاذن الموسيقية والذوق المرهف الذي يجعل للحرف لينا وطيبا .. أشياء مفقودة . اما المطالبة بهـــا فأمور رجعية ؟!

ولكن لا يحق لنا ان نيأس .. ففي العدد ثلاث قصائد كان لا يجوز ان يوجد غيرها ، اذ اعتقد ان تسهيل النشر يضر بالشاعر والمجـلة والقراء .. وما دمنا اخذنا القصائد الست كظاهرة لدراسة « خداع الصورة » في الشعر الحديث ، وكوسيلة الى تبين « الرؤيا المحدودة التي بلا عمق » فيجدر بنا ان نبدأ بقصيدة الشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد كنموذج للشعر الذي يمتح من معين الحياة ويصلنا بمأســاة الانسان في سبيل تحصيل لقمته وصراع الفرد ضد تقلبات رياح الرزق في مجتمع لم يحصل بعد على ضمان قانوني ضد الجوع والبؤس .

يلاحظ في المقطوعات السبع توخي اللقطة الانسانية التي تعبر عـن مأساة جماعة ضمن خصوصية بطل متميز . وفي كل مقطوعة نجد الصورة نابعة من صلب الموضوع وقد جاءت لتوضحه وتزيد عليه ، لا لتزينه . واذا كان تكثيف التجربة وعرض خلاصتها من اهم ميزات الشعر القديم، فان اعطاء التجربة كل تفصيلاتها التي تردها الى الحياة ، من الخصائص الاساسية في الشعر العربي الحديث . والشاعر هنا يقدم تفصيلات التجربة من خلال صور متكاملة يكاد يصح لنا ان نفسرها كرموز عميقـة او ان نتخذ منها امثلة نقيس عليها في مثل حالتها . ان البراعة تكمـن فـي حيـاد الشـاعر ، اثنـا سرد التجربـة . وبالطبـع لم يكـن محايدا حين انتقى لنفسه موقفا تبناه واخلص في عرضـه ... انه فنان ملتزم وشديد الاخلاص لقضيته . فهو يوحي الينا بافكاره من خلال تصويره لحوادث بؤس الطبقة العاملة وايحاء تلك المقطوعات ، وخلوها من اية خطابة مجلجلة ، يحقق في الفن تلك الرسالة السامية في التوجيه غير المباشر للمطالبة بحال احسن . والحقيقة انه ليس هنـاك الفاظ شعرية ولا افكار شعرية بل هناك « تفكير شعري » اي طريقـة خاصة في ترتيب الافكار والحوادث ثم عرضها بشكل يثير خيال القاريء ويؤثر في عاطفته كما في مقطوعة « العشاء الاخير » حيث يعرض قصة منتحر ظل ستين يوما بلا عمل وذات مساء قدم عشاء لاولاده وشنـــق نفسه . وتردد زوجه :

قد قبل الصغار مرتين
ومات دونما عشاء
وعينه على حسن

و«حسن» ابنه الكبير ... الذي ملأ مكان ابيه وجلب الخبز وقسمه بين اخوته فرأته امه :

رأته يقطع الرغيف بينهم
يوزع الطعام ....
بكت عيونها وادركت بان سبعها
ما مات امس
بل لا يزال ...
وحولها العيـال
كان العيال واجمين
كان الاخ الكبير بينهم وكان حزنها سكن
كانت تقطع الطعام
وعينها على حسن !

هنا تندمج كل عناصر العمل الشعري في سبيل تقديم الحادث ... ونكاد لاول مرة في الشعر العربي لا نبحث كثيرا عن اللفظة اللغويـة والحرف المفتاح بل اننا نسير مع الحادث نتابع تفاصيـله بهذا السرد البطيء الذي يربط كل صورة بما قبلها فيغمرنا بجو من الهدوء العائلي الحزين ويشعرنا بطمأنينة الام وهي تنظر الى الاسرة فتـراها تستعيد تماسكها بعد انهيار دعامتها . ان هذا النوع من الشعر يعتمد المقدرة على خلق جو الحادثة خلقا يؤثر في نفس القاريء ويهيـؤها للتعاطف مع الحادثة وتلقي الايحاء من الفن الذي دأب صاحبه عليه حتى مسح اثـر الدأب فظهر بسيطا عاديا لا تكلف فيه . ولعل المقطوعة الاولى « النـاس والاعلانات » من انجح المقطوعات في خلق الجو الذي يصور ثقل المدينة على صدر المرهق واللهاث المسعور في مطاليب الحياة اليوميـة ... وبعد العودة من نهار المبيع كم يشعر المرء بغربته عن اضواء المدينـة المتلألئة والنوافذ المشرعة في البنايات الشاهقة والسيارات الفارهـة واصوات الغناء من المذياعات :

... وكلم الفتى الجدران
وساءل الجدران : من انا ؟
فلم يجد امامه سوى الاعلان ...
وسلة الليمون في اليد الصغيره ..
وضجة المدينة الكبيره ..
ولمعة النيون ...

انه احساس عانيته ـ يا اخي منعم ـ وانا طفل ابيع الاوراد .. وكم ساءلت نفسي : لمن كل هذا « اللمعان » ؟ وكم شعرت ـ ورجلاي تقودانني

الى الكوخ ـ بان الشوارع الفسيحة اكبر مني الى حد يضيعني. واليوم وانا اقرأ هذه المشكلات شعرا اسوان يخلو من خطابية المظاهرات انفاعل بمستقبل امتنا وقرب تخلصها من كابوس البؤس .. ولي عندك رجاء صغير هو ان هذا النوع من الشعر صعب وليس فيه حد وسط فهل آمل منك ان تحارب اي انحدار سوف يصدر عن اتباع هذه المدرسة؟ ويكاد الدوار يغشي عيني كلما تصورت (شعراء الموضة) الذين سوف يقلدون هذا الاتجاه واذا بنا امام كل اخبار الجرائد وقد نظمت شعرا ! انا اعلم ان اختيار مثل هذه اللقطات يحتاج الى ثقافة واسعة وحس شديد الرهافة ، بل انني لالمح تشابها في روح الانتقاء وطريقة العطاء بينك وبين او. هنري . حتى ان مقطوعة « بائعة العطور » تشابه قصة « غرام النصف قرش » عند ذلك الكاتب . ـ ولا اتهمك ، فقصته تلك تختلف تماما عن قصة مقطوعتك . لذلك ارجو منك ان تكون قيما على مذهبك اذ انني اتلامح من خلال شخصيتك الاف المقلدين . كما ارجو منك انت بالذات ان تكون اكثر عناية بفنية التعبير وعدم الاتكاء على الركاكة بحجة البساطة كما في المقطوعة السادسة .

واذا كانت القصيدة السابقة مثالي على طريقة احياء التجربة وتقديمها في الشعر الحديث فان (كلمات انسان معاصر) للشاعر ظافر الحسن تعطينا مثالا ثانيا على عمق الرؤيا الشعرية وتمكن الشاعر من فنه حتى يغمرنا بثورته ودفقات تمرده العاتي على استسلام انسان الوطن للقدر وغرقه في الفراغ والضجر المرهق .. والمدن الجاثية في رهبة البارود تستغفر الاله « تستغفر الفولاذ بالصلاه » :

تهتف في أناه :

« يا ايها المغامرون في مدى البحار
« في الجزر المشدوهة التخوم
« يا ايها المراودون شرفة النجوم
« والقمر الغرير
« لما تزل في سجننا المذهب الكبير
« قوافل خيامها الجليد والسعير
« واعين ذاهلة مسيخة الشعور
« تبحث في عنابر هتيكة الستور
« يدرها الاله بالشرور
« بالشبق المحرق .. بالحمام
« لما نزال في سجننا الملوث المخيف
« تبحث عن رغيف
« ومرقد يضمها المساء في سلام .

وبذلك تطل عينه ـ بلمحة خاطفة ـ عل كل مشاكلنا في هذا العصر : بقية الارض تراود النجوم والقمر ونحن ما نزال نناقش الخير والشر ، والفكرة الالهية تشغلنا بكبت شهواتنا فنحيا في سجن من الشبق والفقر حتى نستسلم ولا نعود نريد غير الراحة .. أما المواطن الثائر . أما المفكر الذي عرف مكان وطنه من خط سير العالم فانه لا يملك الا ان ينظر الى هذه الجموع وقد شغلها هم الحياة اليومية ـ اللقمة والراحة ـ عن كل طموح فيتمزق الما ويشعر بغربته عن قومه وبعجزه عن تركهم واللحاق بعالم حديث متقدم . ان الفرد يشعر بارتباط عضوي مع امته ولو خالفها وابتعد عن عقليتها ، بل انه ليضيق بها ويتمنى ان يجرها معه والا احس بالشلل كما في الابيات التي تنتهي بها القصيدة :

مواطني الموتى ـ بلا ـ قبور
منابع مجدبة ، ناضبة الدموع
أوغل في هجيرها كأنني غريب
وحولي الجموع والجموع
مجهدة تدور
ولم أزل ادور
أهيم بين الجثث الهريئة الصدور
أحمل في اوردتي ضراعة المغيب
كأنني ثورة لا تثور
كأنني قد مت من دهـور
ولن أزال ـ الدهر ـ في دوامة الصراع
ابحث عن ذراع
عن بعضي المضاع
في كوم الموتى ـ بلا ـ قبور

وبذلك يعبر عن انفصال المثقف عن امته ، ذلك الانفصال العقلي الذي يورثه التمزق والضياع في بيئة هو منها وليس منها . يكرهها ولا يستطيع ان يغادرها . انه خير تعبير عن ذلك « القرف الذهني » الذي يعانيه البعض ، ونحن وان كنا نطلب منه ان يكون اكثر حنوا على هذه الجماهير التي اعاقتها اللقمة ـ لاسباب عديدة ـ عن الطموح الى خلق الذرة ... ونحن وان كنا نطلب منه ان ينظر بعين الرضى الى ما تحرزه الجماهير العربية من انتصارات في سبيل حريتها .. ونحن وان كنا لا نشاركه هذا التعالي ، فان كل ذلك لا يمنعنا من الاعجاب بجودة التعبير الفني الذي يذيب الفكرة في غمار رؤيته الجامحة ، وبذلك تخرج القصيدة قطعة من الحياة ... وملاحظتنا الاخيرة على القصيدة هي ان ذروة الانفعال تأتي ، وبشكل غير واضح تماما ، في نهاية القصيدة مما يجعلها مسطحة وليست هرمية . وهذا يقلل من قدرة القصيدة على التأثير. كما ان اصالته تبتعد به عن الدوران في فلك « خبز وحشيش وقمر » والفرق بين القصيدتين يصدر في ان موقف الشاعر ظافر الحسن هو موقف فكري يستشرف حياة جديدة في حين ان الشاعر نزار قباني يكثف تفاهات الحياة القديمة . وبذلك تشكل القصيدة الجديدة خطوة تطور بالنسبة الى قصيدة النار تلك .

الاستاذ عبد الباسط الصوفي للشاعر القصاص المفكر .. استقطبته مجلة الاداب اخيرا كشأنها في جمع النخبة من شباب الجيل . وقد طلع علينا عبد الباسط بعمقه وصفائه وخياله ، متجليا بتلك القصيدة الرائعة « سبوتنيك » فقدم لنا شعرا تتوازن فيه عناصر الابداع بتناسق الفكرة والاداء والنغم فكأننا من القصيدة حيال بناء شديد الرسوخ شاهق السموق. وهنا اذا اردنا ان نسأل الشاعر : ماذا يريد ان يقول ؟ اجابتنا القصيدة بطوفان من الافكار والشفافية . « سبوتنيك » حديث العالم ومعجزة العصر ! كيف تكون؟ وكم كلف الانسانية ؟ وما معناه للانسان.. تلك اسئلة تتوارد في أذهان المخلصين للانسانية ، المتعمقين في تطورات حياتها . وكما لعن الكثيرون بناة الاهرام حين علموا ان ثمنها ارواح نصف مليون انسان .. يلعن شاعرنا الكبير « سبوتنيك » هرم النصف الثاني من القرن العشرين . انه يتساءل ويجيب . انه يعرف المذابح ومشانق الحرية التي انتصبت كي يرتفع على حطامها « سبوتنيك » يجوز الحدود . ان التجربة الغربية حولت تمرد الانسان الى الطبيعة ... ليتغلب عليها ويكتشف قوانينها ويخضعها لمشيئته . وفي سبيل ذلك هانت القيم وضاعت الحريات وامتهن الانسان فتحول من كائن مفرد

ألى رقم في سجل الانتاج... انه الانسان « أثمن رأسمال » حسب قول ستالين ... اما الانسان « أثمن مثل – فذلك شيء « رجعي » ليس واردا في الحساب . وفي صمت الرؤوس المطرقة على الالات والظهور المقوسة والعمل الجبري ، وفي كل الظلم الاخرس الذي يمثله الجزء الثاني من الحضارة الصناعية يرتفع سبوتنيك « في سحيق الفضاء» والابعاد الزرق :

ويلتفت العالم المثقل
والف وجوم ، به ، يسأل
وينقض ليل الظنون عليه
ويحتقن الرعب ، في مقلتيه
وسمره وجل مذهل

ويتسمر العالم من الرعب ... فما كان لكشف مثل هذا ، ثمنه حياة ملايين البشر ، ان يكون بشير خير في يد أثيمة .. تبدأ التصريحات تعلن « ولادة عصر جديد » وتمتلىء بالزهو ملايين الرؤوس الفارغة من اي وعي.. ويدب الكبر في النفوس : ويسكر بالفخر من اصمهم ضجيج المصانع :

« عمالقة نحن، نرفع الهة من حديد
اتيناك ، يا نهر الزمان تدفق
وفجر ، من الغيب ، ما كان مغلق ...

وفيما الصدور تزخر بالاماني تبلغ القصيدة ذروتها مدوية مع صخب الملايين وشعارات السلام ورنين كؤوس الفودكا .. ثم يهدأ النغم في سكرة الظفر ويرن لحن مفرد هادىء النغم كما في اية سوناتا جميلة ..

وماتت اغاني المروج ، القديمه
ويمتط ، في الارض ، ظل الجريمه
« زفاغو » صدى يائس لا ينام
تطارده لعنات الظلام

وتنطلق نبوءة الشعر :

هنا .. من سجون « زفاغو » الهزيمه

فحرية الانسان وكرامته ... اولا ، وكل بناء لا يحترم حرية الفكر يحمل عناصر فساده في ثنياته :

هنا ، يتصلب قيد ، على الجرح ، بين الصديد
حضارة ضوضاء ، حالمة بالفضاء البعيد
تفح ، وتلفظ ، انسانها قطعة من جليد
وفي « الكرملين » يقولون : عصر جديد .. جديد

وبذلك تأتي النهاية تتمة طبيعية لكل العناصر الفنية التي تساهم في هذا البناء الفني الممتاز ، واول هذه العناصر السخر المر الذي يلف الجو الفكري للقصيدة بأجمعها ، فهو منذ بداية القصيدة يبدأ بمخاطبته باحتقار : « من الارض رحت رسولا غبيا » .. ويبدأ بتصويره تصويرا هزليا كاريكاتيريا ، فهذا الصاروخ الفولاذي (الرسول الغبي) يومض كاللمح ، عيونه موغلة في سحيق الفضاء ، ثم يجمع بين السخر والاحتقار حين يبين المعنى الذي خلع على السبوتنيك : فسروا وجوده بانه تمرد سوف يكشف لغز الحياة . ثم ينتقل الشاعر من السماء الى الارض فيصور المواكب التي سارت تفخر به : جرعة فودكا ، صخب عيد ، عمالقة نحن ، ملايين ساروا ، تراكم رقم . وينتهي ذلك السخر بمأساة ظهور زيفاغو تطارده لعنات الظلام فيفصح الشاعر اخيرا عن كرهه لحضارة تحلم بالفضاء وتلفظ انسانها قطعة من جليد .

وتأتي تلك العناصر الفنية الصورة الاثيرية للفضاء : « في هجعه الاوج تغفو ثلوج الفناء » وبذلك نحس ثقل وجود الصاروخ . وهو يثير هذا الشعور بالتعاكس حين يصور الاحتفال بصخبه وملايينه ثم أنات زيفاغو السجين.

والتوزيع العاطفي للقصيدة توزيع هرمي حيث يعلو نغم الفخر : عمالقة نحن ... وينتهي بالانات

والقصيدة بأجمعها شعر على مستوى القضية التي يعالجها . وهذا التوازن بين عناصر القصيدة يمنحها طابع الكلاسيكية الجديدة .

ولعل مما يزيد في قيمتها ان اكثر الشعر المعاصر قد اصبح خاليا من العنصر الفكري فجاءت هذه القصيدة بداية خير لشعر يشترك العقل في تذوقه . ومن الممكن ان نقول ان هذه القصيدة ليست فقط خير ما في العدد من شعر بل من خير قصائد موسم الصيف عامة ... واننا لنأمل ان نلتقي دائما مع هذا الشاعر المفكر .

دمشق **محيي الدين صبحي**



القصص

بقلم عايدة مطرجي أدريس

..★..

احدى قصص العدد الماضي من الاداب قصة مترجمة للكاتب السلفادوري سالارويه . وهي قصة تعتبر نموذجا رائعا للقصة القصيرة الموجزة ، المركزة ، المعبرة ، البسيطة في اداتها ، العميقة بمحتواها الانساني ، ذات التصوير النفسي الدقيق والاسلوب الموحي الذي يتماوج مع ذبذبات العاطفة والصورة والفكرة .

فالقصة قصيرة لا تتجاوز الصفحة والنصف من صفحات هذه المجلة وهي موجزة ، يقطع الكاتب فيها جمله قطعا همه الوحيد منها ان يصل الى الغاية التي من اجلها كتب قصته : « بنل غويو وابنه جهدهما فانطلقا يصطحبان الفونغراف الى الهندوراس . وكان العجوز يعلق الصندوق على ظهره . وكان الصبي يحمل كيس الاسطوانات والبوق الملتوي الذي كان يشبه جرسا كبيرا .. »

وفي الصورة الصغيرة الموحية التالية، عبر الكاتب عن موت غويو وابنه تعبيرا كان يحتاج الى عشرات السطور . لقد اكتفى بقوله « وشاهدتهما الاضواء الاولى هناك ، وهما نصف مجلدين متوجعين ، مخدرين من البرد ، فاغري الفم البشع واللاعب ، وقد تقلصا نصف تقلص على الغطاء الممزق الوسخ المخطط كحمار وحشي . » تاركا لخيال القاريء ان يحمل وان يمتد ضمن الاطار الدقيق الذي رسم له ، فيعيد بناء الصورة بمختلف ابعادها الشعورية ، ويحس بلذة كبرى ، هي لذة التفاعل والمشاركة في الاكتشاف ولايجازها جاءت القصة مركزة تركيزا شديدا . فبناؤها متين وهي تسعى بسرعة نحو الفكرة الرئيسية التي يريد المؤلف ان يؤديها . وهي الى جانب ذلك بسيطة في اسلوبها ولكنها عميقة في معناها . فالقاص يرتكز على فكرة فلسفية تقول بان الانسان طيب بطبعه ، وهو لا يريد الشر وانما الظروف هي التي تجعله شريرا . وهو يدلل على ذلك بموقف اللصوص الذين يسرقون الخيرات والحيوات ولكنهم ، ما ان يخلوا الى انفسهم ، حتى تعود تلك النزعة الانسانية الخيرة فيهم فتطفو ، فاذا هم « يبكون » وفي هذه العبارة من القوة والايحاء ما يجعل القاريء يهتز من التأثر والاقتناع .

وفي القصة مواقف انسانية رائعة اخرى ، كالمشهد الذي تظهر فيه العاطفة الابوية عند غويو الذي لم يداعب في حياته طفله ، ضمه الآن الى صدره واحاطه بذراعيه اذ رآه في هذا المجال الفسيح الرهيب من شاملسون خائفا ، منهوك القوى ، يريد ان ينم ان الوحدة هي المحك الرئيسي للعواطف الانسانية ، للعواطف الطيبة التي تكمن في اشدنا وحشية .

اما الاسلوب فهو ، على بساطته ، رائع . انه يلائم جو القصة ملاءمة شديدة ، بل لعله هو الذي يخلقه . فهو يوحي بالرهبة حين يقول : « فقد دلفا الى الجبل عندما هبط المساء. ونظفا مكانا صغيرا تحت سفح شجرة ، وامضيا هنالك الليل ، وهما يصغيان الى صرير الصراصير والى طنين البرغش،يصغيان من دون ان يتجرآ علىالتنفس وهما يرتجفان من البرد والخوف . » وهو يوحي بالبساطة والبراءة والنعومة اذ ينطلق من فم فتى صغير فيأتي الحوار معبرا عنها ب « اه ، ذلك ان الحزام يسبب لي الما في ظهري .. « يا بابا ، هل يوجد هنا حيات ؟ »... « ان كنت ستدخن فدخن تحت قبعتك يابابا ، فان شاهدوا البصيص فانهم سيجدوننا » وهو في مواقف اخرى شعري ساحر ينساب سلسا عذبا يدغدغ العاطفة الانسانية ويدعو الى التأمل : « وارتفعت الاغنية في النسيم الفاتر كأنها شيء مسحور . وجمدت احراج الجوز في البعيد عروفها واخذت نصغي . وكانت نجمة المساء تبدو وكأنها تصفر وتكبر كما لو كانت معلقة بخيط ثم غمست وهم يرفعونها او ينزلونها في ماء الليل الهادىء » . انه جو يعيد الطمأنينة الى النفس، فاذا هي تصفو من ذلك الضباب الكثيف الذي كان يكتنفها ، واذا الانسان عار ينصت امام نفسه ، على صوت « اغنية حزينة على القيثار .. اغنية ذات نبرات شاكية وغصات حب وعظمة. وكانت انغام القيثار المنخفضة تئن وهي تنهد من الرغبة . وكانت المغنية الصغيرة تشكو ظلامة وهي يائسة ! في هذاالجو العابق بالموسيقى تبادل اللصوص النظرات ثم اطلقوا زفرة .

لقد اثر فيهم هذا التعبير الفني الوحيد الذي يمكن ان يتجاوب معه اناس ما يزالون في حياتهم البدائية ، هذا التعبير الفنائي الذي يحاكي القلب وينفذ الى المشاعر فيتعانق معها الانسان الخير ، لمجرد كونه انسانا ، من اجل ذلك اعترف اللصوص بانهم قذرون ، ولهذا ايضا اخذوا يبكون .

الابواب المغلقة

هذه القصة للكاتب المصري عطاء النقاش يمكن ان نرى فيها صورة للادب العربي الحديث المطعم بادب الغرب والمتأثر بثقافته تأثرا لا يفقده طابعه الخاص الذي ينبع من مجتمعنا وارضنا ونفسيتنا .

فموضوعها ليس بالجديد . وهي تلح على فكرة تأثير العيون على المرء ، تلك العيون التي تعتبر « السد المنيع في وجه كل تفاهم بشري » فهي « تأكل وجوده وتعريه من كل شيء» انها عبارات سارتر نفسها واحدى الركائز الرئيسية التي تنتظم فلسفته الوجودية وموضوع روايته «الجلسة السرية » . وروح سارتر موجودة في هذه الدعوة الى الانطلاق منالقيود التي تكبلنا ، وتعيق سيرنا على الخط الذي نرتضيه لانفسنا . نفس الروح الكئيبة ، والقلق والغثيان ، نفس التشاؤم من وجود اي سبيل للتفاهم فكأنها عبارة سارتر تعود الينا لتذكرنا بان « الجحيم هو الاخرون » .

« انا قد سئمت حياتي على نحو مر وممض وقاتل .. ما من مرة حاولت فيها ان اغزو اكتئابي وخوفي الا وعدت وفي نفسي خيبة وبقلبي انقباض ... » ـ « ولكن شيئا ما في عيونهم كان يمنعني ، كان ثمة سد قاس ومخيف ورهيب يمنعني ويحبس الحروف على شفتي ويميتها».

هذا التأثير الواضح بسارتر في القسم الاول من القصة يضعف قليلا ليحل محله تأثرات اخرى اذ يبدو في القسم الثاني من القصة التفاهم ممكننا بين عيون اربعة ، تعتزم هي ايضا ان تتحرر وان تعيش حياتها كما يحلو لها ان تعيش ، عينا البطل ، وعينا ليلى . هذا التفاهم يشكل قوة هائلة تجعل كلا منهما قابلا لان يثور ، وهكذا يصبح هذا الاخر ، الذي كان بالامس بغيضا خاملا ، قوة معجبة . وهنا يقترب الكاتب من نظرة « مارسيل » الى الاخر على انه مصدر سعادة وقوة وانطلاق . ولكن الكاتب لا يسعى اشواطا مع « مارسيل » . اذ تظل هناك عيون اخرى تراقبه وتحاصره فيمقتها . ويظل المؤلف ملتصقا بنظرة سارتر الى الاخرين . اما هذا الاخر الذي احبه واندمج فيه ، فما هو الا جزء منه ، من كيانه هذا المتحفز ، المستقوي لمواجهة الاخرين ، الداعي الى التحدي .

ويعود الكاتب ليوفق بين نظرتي سارتر ومارسيل بصورة ملحوظة جدا في القسم الثالث من القصة حيث يشتد العزم لمواجهة الاخرين باصرار وتحد مهما كان الثمن غاليا . فالبطل سيكلم المدير بلهجة جافة وصريحة ، وسوف يضم حبيبته فوزية امام اهلها ، وكذلك ستفعل ليلى، ستواجه عيون والدها ، ستتحدى ارادته ، سترفض ان يفرض عليها الزواج من شخص لا تريده هي .

ولكن هذا التحدي السارتري رائده لا البغض بل الحب ، الحب الذي يشع في فلسفة « مارسيل » . ان ليلى تحب والدها ولا تمقته ولكنها تريد ان يفهمها . وكذلك البطل لم يعد يمقت الناس ، انه سيواجه عيونهم بعطف وحب لان نظرتهم اليه سوف تتغير ، سيفهمه من اساء فهمه ، وهكذا تفتح الابواب المغلقة ، فيتحرر المؤلف من تأثير سارتر ليلتقي مع مارسيل في جو عابق بالامل والحب ..

رأينا الى اي حد بدا الكاتب متأثرا في موضوعه ببطلي الفلسفة الوجودية ولكن هل طغى هذا التأثير الى حد بدا فيه المؤلف نسخة مشوهة عنهما ؟

لا . ان الكاتب قد هضم ما قرأه عن سارتر ومارسيل . ولذا اصبح بامكانه ان يتصرف بتلك المعلومات ويتلاعب بها . ويخيل الي ان الكاتب لم يكن ليتأثر هذا التأثر بسارتر لو لم يكن لديه استعداد نفسي مبدئي للتقبل . انه يستغل مفهوم سارتر ومارسيل ليحوله في مختبره الخاص ، من خلال تجربات خاصة الى نظرة متعددة الابعاد ، مختلفة المرامي.

ان عيون الاخرين البغيضة اصبحت ترمز هنا الى افاقنا الاجتماعية العربية . انها العيون الجاهلة المتمثلة في الاب الذي يبخل بالمال لتعليم ابنه ، وفي الفتاة التي حازت على درجة رفيعة من العلم وبقيت بلا تثقف او بالاحرى بقيت هذه الثقافة رموزا لم تستغلها في تطوير مجرى حياتها . والعيون البغيضة ترمز ايضا الى الاسرة التي تخنق انطلاقات الشباب العاطفية نحو من يحبون ، ويفرضون الزواج بالقوة على الفتاة كما كان يفرض ذلك عليها ازمان كانت جاهلة . والعيون التي

تنشر الاسى والسدود تتمثل ايضا في القوى الرجعية والكذب والنفاق الذي يعم بعض دوائر التوظيف في بلادنا ، وما تخلقه لدى شبابنا من عقد نفسية يغذيها الاذلال وطرق الابواب . انها احدى المشاكل الاجتماعية الكبرى يطرقها الكاتب هنا . ان مائة من الشباب يترددون كل يوم على حاجب المدير يطلبون عملا . وهو لا يريد منهم سوى خمسة لا يجهر بعددهم بل يتركهم يضيعون وقتهم كل يوم ليعودوا بهذه الجمل : « المدير مشغول جدا .. فانتظر قليلا » « انتظر .. ان السيد المدير مشغول في اجتماع » او « انه لم يأت بعد » او « غدا » تأتون لتقابلوا المدير فقد انصرفاليوم مبكرا .»

اجل ان من طرق ابواب الوظيفة سعيا وراء الرزق يدرك ما في هذا التصوير من صدق ودقة وابداع في الوصف والتأثير برموز فنية ، رموز العيون البغيضة ، ويدرك ايضا ما في هذه القصة من محاولة خلقية لرفع هذا المجتمع الذي يدفع المثقف الى التفكير بحمل السلاح بيديه للتخويف بعد ان فشل سلاح العلم الذي يحمله في عقله » سأشهر في وجهه سلاحا ذا حدين وعند ذلك يقودني حيث اجد نفسي امام المدير وجها لوجه وسأظل اعبث بالسلاح بيدي وهو ينظر الي في رعب وخاصة عندما يجد الاصرار يشع في عيني المغضبتين وعند ذلك سأصرخ في وجهه محتدا :

ـ سيدي ، انت غشاش ومخادع ! »

ان شبابنا هذا الثائر لن يقنع بهذه الحياة الخاملة . انه سيبعد تلك العيون الخبيثة التي تعريه من وجوده وتخنق امكاناته وتراقب اندفاعه نحو المستقبل .

ان النفسية العربية الحديثة متمثلة خير تمثيل في هذه القصة ، التي يفتح فيها الكاتب الابواب المغلقة لتتعانق العيون المثقفة ، العيون المتعطشة الى غد افضل ، غد لا يحده افق ، غد تملأه المحبة والحرية والشعور بان المستقبل هو ملكنا ، هو في تضامننا مع رفيق جهادنا ، فان فشل احدنا او انتصر الاخر ، عد النصر مشتركا . اليست هذه كلها هي اهدافنا ، وآمالنا نحن ابناء هذا الجيل العربي الجديد ؟

لذا فان البطل ، ان فشل هو في محاولته الثائرة ، فانه سوف يعد النصر الذي ستحققه ليلى برفضها الزواج بمن لا تحب نصرا مشتركا .

هكذا يبدو لنا ان هذه القصة هي نموذج موفق للقصة التي لوحتها ثقافة الغرب وبقيت محتفظة بطابعها الخاص . من منا يستطيع ان ينكر ابطالها الحقيقيين ، نفسياتهم ، تصرفاتهم ، اندفاعاتهم ؟ لقد عرفناهم من سماتهم رغم القناع ، وعريناهم ، فاذا هم منا . طقم قديم رجعي عيونه حادة وابوابه مغلقة ، وطقم جديد ، عيونه تطفح بالامل والحب.

اما القصة من الناحية الفنية فهي مركزة تتبع في بنائها خط سير التدفقات النفسية والعاطفية . وهي منطقية في تتبع احداثها ، اقصد بذلك المنطق الذي تولده العاطفة ، وتؤدي الفكرة والغاية المقصودة .

انها تبدأ مكفهرة يائسة منهوكة القوى لتقوى شيئا فشيئا منتهية بالثورة والتفاؤل والحب « انا قد سئمت حياتي على نحو مر ومضنوقاتل» وتنتهي « ففي الغد ، وفي مكان ما من هذا العالم ، وبطريقة ما ، سيكون ثمة انسانة واحدة علىالاقل قد بدأت تواجه عيون الاخرين وتكسر سدودها وابوابها وتنتصر لنا »..

قوة البناء الفني هذا ، وتصرف الكاتب بمعلوماته بالطريقة التي اشرت اليها دليل واضح على صدق التجربة الفنية لديه واختمارها في نفسه حتى باتت جزءا لا يتجزأ من كيانه الفني، فلا عجب ان يصبح الاسلوب واسطة طيعة لنقل خلجات نفسه وتطورات عاطفته وان يأتي سلسا معبرا بسيطا . ويمكننا ان نعتبر هذه القصة واحدة من قصصنا المعبرة الناجحة .

العيـد

ذكرتني هذه القصة لثروت سرور ، بعد ان قرأتها ، بتلك الاخبار التي كانت تملأ خيالنا اذ كنا اطفالا ، تتردد لذيذة مشوقة نتتبعها بشغف عظيم ، حتى اذا وصلنا الى نهايتها صدمنا بحقيقة ما كنا نريدها ، وهي ان البطل قد توصل الى هذه الدرجة من العظمة والمال ولكن ذلك لم يكن الا في المنام !..

شبيه بذلك ما يتردد من نكتة في هذه القصة . ان الاخوين يتنازعان « فخذ البطة » وتقوم المشاحنات بينهما فتنتهز هذه الفرصة قطة تأخذه بالمخالب وتنطلق به وهما يعدوان خلفها كالمجانين .

وجه الشبههو هذه النهاية اللامنتظرة التييحدثها هناك المناموتحدثها هنا القطة .

ولكن هذه ليست الا فكرة عابرة لا تخفي ما يكمن وراءها من عمق المأساة .

ان القصة تمثل ناحية اجتماعية خطيرة ما تزال تتغلغل في مجتمعنا وتحد من امكانياته الخلاقة . هذه الناحية هي الفقر ، والجوع ، والحرمان من اللقمة اللذيذة التي من حق الاطفال ان ينعموا بها . وموضوع القصة يدور حول هذا المحور . ان خليل ينطلق ليخبر الحي كله بان لديهم عزومه ، فتشرئب اعناق الصغار كأنهميلتهمون بآذانهم ما يعدده من الوان الطعام هو واخوه « وهاج لعابهم ولمعت اعينهم برغبة عارمة كتلك التي تكون في عيون الكلاب الضالة عندما تنظر الى لحم ليس لها » . الحي كله جائع وبائس . وخليل واخوه جائعان ايضا . فكيف تكون حالهما اذا كان الطعام هذه المرة من الصنف الرائع ، من لحم الديك والبطة ؟

الجواب المنطقي هو ما جاء من وصف موفق لمواقفهما . محاصرة والدتهما الى النهاية منتظرين معا امام الكانون وقد فرغ صبرهما حتى يتم نضج الديك والبطة . وبالرغم من توسلات امه فقد ابى خليل ان يترك امه لحظة واحدة حتى ان يده قد احترقت بماء الارز . ومن الطبيعي ايضا ان يهرول في الزقاق الضيق ليعود بسرعة بعلبة المعسل لوالده قبل ان يفرغ الضيوف من الطعام ويأخذ الفخذ اخوه . وهذا تصوير بارع للحرمان : « قدم خليل لابيه علبة المعسل وبصره مشدود الى طبق العشاء الذي لا زال امام الضيوف لم يخرج بعد واستطاع ان يتبين في زحم الاطباق الصغيرة الطبق المنشود » و « فتحي يرمقه من الخارج وينتظره على نار » ثم يطبق على اخيه الخناق عندما يبدو له ان لا اثر للفخذ، ثم يتحسس جيب اخيه، فاذا الفخذ فيها . وللقاريءمجال تخيل تلك الدرجة البالغة من الحرمان التي تدفع الفني الى ان يخبيء الزفر من اللحم في ثيابه ...

الى جانب تصوير ناحية اجتماعية ، تبدو هنا ناحية نفسية مميزة هي النفسية العربية المضيافة بالرغم من هذا الحرمان كله . انها تذكرنا بكرم الطائي . ان الاب هنا ، يذبح الديك والبطة اللذين اعدهما للعيد

كما ذبح حاتم فرسه لضيوفه ، وتظهر في القصة لقطة نفسية حلوة تتمثل في موقف الام من معارضتها لذبح البطة « تلك التي زغطتها ما يقرب من نصف كيلة ذرة حتى اصبحت معدة ولائقة بالعيد . » رفضت ان تذبحها لينعم بها اطفالها الجائعون الذين تفضلهم على كل انسان .

وفي القصة تصوير دقيق لنفسية الطفل ، الطفل المحروم : الخوف الذي يستولي عليه في الزقاق الضيق – والانانية التي تجعله يتصور ان اباه واخاه متفقان ليبعداه عن الطعام ، واستئثاره لنفسه بقطعة الفخذ ، وفرحه الشديد بذبح الديك والبطة ، وشعوره في هذه اللحظة بانه اصبح يحب اباه وامه اكثر من اية لحظة مضت ، وقفزه وجذله وهو يحاول ان يحاصر الديك ، وحبه لاخبار الجن والعفاريت ، وخبثه وشيطنته في تصرفاته مع اخيه ، وترقبه الحالم للعيد ، كل ذلك يدل على تصوير دقيق لنفسية الطفل ، يضاف اليها النفسية المحرومة التي اشرت اليها .

اما القصة من الناحية الفنية فهي تعتمد في بنائها على التسلسل المنطقي لنفسية الطفل المحروم عبر الاحداث التي ذكرها . ولعل هذه الطريقة من اصعب الطرق في كتابة القصة . انها ، كالقصص الاميركية اجمالا تعتمد على ذكر الاحداث فقط ، تاركة للقارىء مجال التخيل والتحليل في ما يكمن وراء هذه الاحداث من ايحاءات معبرة . وهي عكس الطريقة التحليلية ، التي حمل لواءها « بروست » في « بحثا عن الزمن الضائع » . لقد كانت تعتمد على التحليل النفسي الدقيق لشخصية الراوي وقد عادت فقويت مع الوجوديين الذين يعتمدون على الذاتية الشخصية في جميع تصرفاتهم ومسائلهم الحياتية والعقلية .

والفرق في طرق التعبير واضح . فبينما تعتمد القصة التحليلية على « الانا » او ذكر الاخر من خلال « الانا » تعتمد الطريقة الثانية على ذكر الاحداث فقط ، ويصبح البطل « هو » فتغيب شخصيته لنكشفها نحن . والصعوبة ، بل الخطورة تكمن هنا . وهي خطورة متبادلة بين الكاتب والقارىء فقد يحمل الكاتب البطل احداثا قد لا تتحملها نفسيته او سنه فيفشل – والقارىء قد يسيء فهم الاحداث ويتطلب من البطل احداثا اكثر قوة او ضعفا من تلك التي ذكرها المؤلف . واذن فهي طريقة تتطلب وعيا وثقافة مشتركة متبادلة بين القارىء والكاتب . فهل نجح كاتب هذه القصة في هذه الطريقة ؟

مما لا شك فيه ان الكاتب قد راعى نفسية الطفل لا فرق ان كان يعي ذلك او لم يكن يعيه . فنفسية خليل هي نفسية طفل كما بينا وتصرفاته هي ايضا تصرفات طفل . وهي تنطبق على البيئة والمحيط الذي صوره فيه . ولقد اراد الكاتب ان يجعل احداثه اشد واقعية وطفولة وبدائية فاورد الحوار كله عاميا على طريقة الاولاد الذين نشأوا في بيئة محرومة وبالرغم من ان استعمال الحوار العامي كله هنا قد يحدث بعض الاعتراض ، فانه يبدو ضروريا من الناحية الفنية .
على ان هناك خطرا يرافق هذه الطريقة .

فقد يتدخل الكاتب احيانا بذكر اشارة صغيرة فيفسد كل شيء . وهذا ما حدث في هذه القصة . فقد بينا اية نفسية هي نفسية خليل، واي حوار هو حواره ، كله عامي بلدي ومع ذلك فقد اورد الكاتب على لسانه هذه العبارة : « وانه لينكر الان كيف كان اليوم حتى الضحى يمضي في حياته كسائر الايام ميتا وباردا كالعادة ويذكر ايضا كيف صحا فجاة وتثاءب ثم انتصب كالمارد يفيض بالحياة . »
وقد كشفت القصة عن ان خليل فتى صغير ما يزال يلعب الكره ، وهو بدائي التفكير والشعور – فهل يعقل ان يحس احساسا معبرا بهذه الطريقة الفنية الجميلة « اليوم يمضي في حياته ميتا وباردا ، يفيض بالحياة » حتى يظل هذا الشعور عالقا في ذاكرته ؟
الحقيقة ان الكاتب نسي لحظة بطله وانزلق قلمه بهذه الجملة الفنية التي كشفت ، بالرغم من قصرها ، على تدخله الشخصي . وهذه غلطة كشفت عن عدم تمرس الكاتب ووعيه الدقيق لمعالجة قصته بهذه الطريقة المستحدثة التي فشل فيها كثيرون من كتابنا .

النور بالثمن

لست ادري لماذا لم يتكون لدي اي احساس خاص بهذه القصة بالرغم من انني قرأتها اكثر من مرة. واني اميل الى الاعتقاد بانها لا تملك هذا الخيط الدقيق اللاملحوظ الذي يربط بين الاثر الفني والقارىء ، هذه العدوى التي تتقلك ، بالرغم منك الى الجو الذي اراده الكاتب ، فيتصرف بك ، على هواه ، طالما انت في شركه .

في القصة ناحيةهامةمن نواحي الخلل البادي في مجتمعنا . ولكن هذه الفكرة اجهضت ، فلم تأت بجنين سوي. وليس يكفي الكاتبان يكون منتقدا اجتماعيا حتى يصبح فنانا . المهم هو ان يجذبك . ذاك هو شرط الفن الاساسي . وهذا ما لم تحققه هذه القصة التي يظهر فيها التصنع والبرودة .

عايدة مطرجي ادريس



ساق على الدانوب

شعر هلال ناجي

مطابع دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٢ ص

* * *

يقول الناقد الفرنسي الكبير سنت بيف ما معناه « ينبغي على ناقد الشعر ان يدرس حياة الشاعر نفسه ويستوحي منها صورة نقده التحليلية» وقول سنت بيف هذا لا يشطر النتاج الشعري عن حياة الشاعر ولكنه يجعلها اساسا دقيقا للمعرفة العامة ومدخلا للاستحلاب الفني ، وهو بهذا لا يبتعد ابدا في مؤداه عن الشاعر الانكليزي ت. أس اليوت T.S. Eliot حينما يسخر من الناقد الحاقد الذي يعنى بخصائص الشاعر الحياتية الخاصة ، وينفذ اليها من طاحونة نقده الشخصي ، تاركا المضمون الشعري جانبا من غير دراسة حرة ، واستنباط امين متفهم للاحاسيس المرتبطة ارتباطا محكما بالتجربة الشعورية ، او بالوعي الباطني مباشرة .

ان كلا القولين يلتقيان ببعضهما من حيث النتيجة رغم انهما يختلفان من حيث الاتجاه ..

وانا اذ اكتب عن اخي وصديقي وزميلي الشاعر الاستاذ هلال ناجي المحامي اضع شعار سنت بيف في النقد الادبي معيارا لي في الحديث مؤمنا بطريقته ...

عرفت هلالا اخي صديقا وفيا واخا نبيلا وعربيا اصيلا .. وعرفت هلالا زميلا كريما حينما كنا طالبين في كلية الحقوق نصارع الاحداث يدا بيد مع شلة من اخوان اعزاء لنا في النضال القومي ، ونمرح هازلين في ملاعب النشوة المتحدية الصارخة ...

وما زالت ذكرياتنا الدراسية بما اتشحت به من الاجواء السياسية والشعرية والنقدية سلوانا لنا في معرض كل حديث عابر .. وليس غريبا علينا ان نهدهد بعض دموعنا الرقراقة ونصعد من زفرات الماضي الجميل ونحن في ايام الجفاف الفكري والجدب الادبي وتفرق الشمل الاخواني.

وعلى هذا المعيار سأكون مهتما بشعره قدر معرفتي لجوانب حياته واتصال احدهما بالاخر ، وسيكون مجال الصدق في اعطاء الحقائق النقدية والقاء الاضواء الكاشفة مساويا للحد المعين من المعرفة المستوعبة.

والحديث عن حياة الشاعر وشعره يلزمنا ان نحدد بعض الخطوط الاساسية في هذا البحث الموجز..

تتميز حياة هلال بشيء كبير من (الحدة) في كل ما حولها من جوانب، وقد يخونه التعبير المعبر في ابراز هذه الخاصية بشكلها الفني الجذاب.. الا انها تبقى ميزة حية لحياته ، فهو عارم العنف في هجائه للساسة الخونة ، فاس مقذع فصاح في هجائه العام .

وحياة شاعرنا المتصلة بالصحراء الطليقة في بعض جوانبها تفضي به الى عناد عقيم ازاء حركية الحضارة المتفائلة بالتطور العلمي ، وكثيرا ما يتكلس التعبير عن غير قصد فيفسد عليه المعنى لانصرافه العفوي الى تحنيط بعض معانيه المتحررة باللفظ الجاهلي البائد ، اللفظ الذي لا يتصدى في مسامع القاريء ، فكيف باعماقه الحسية ؟؟

هناك الايفاع والقليب والنعامى والعضاريط والقيصوم الخ. كلها وان كانت الفاظا من لحم ودم وعظم عربي ، الا ان روح العصر اللغوي المتطور قد اجهضها منذ امد بعيد، ولما تبلغ بعد دورتها البويضة وهي في الرحم.

في قصيدتيه (اذكرينا) و (وقل للجبان) نرى صورا من الهجاء السياسي غير الموضوعي في اغلب خطوطه وانعكاساته ، وفيها تأثر بالغ بالروح الديباجية لشاعرنا الجواهري ، وهو في تناوله الموضوع يتخذ من مقصورة الجواهري الشهيرة طريقا للتعبير، ينتهي تفصيله بتحاياه (للفرات) و (الشط) و (القفة) و (القبرات) و (القهوة) كما كان الجواهري في مناغاته لدجلة والنخيل والشاطئين والجنادب والضفادع .

وفي هذين البيتين من قصيدته (قل للجبان) يبدو جمال الصورة ورقة التعبير والظلال الحالمة :

والشط دغدغه ضياء حالم أغفى عليه فخلته محرابا
والقفة الرعناء يلثم جنبها موج فميلا روحها اعجابا

وهناك التقاء محبب بين قصيدتيه (الشتاء في الصحراء) و (اذان الفجر) على الرغم من اختلاف الموضوع في القافية الواحدة والديباجية المشتركة وابراز التصوير الطبيعي ، بيد ان اخلاص الشاعر الحسي كان اكثر صدقا وعمقا في قصيدته الثانية.. يرجع ذلك فيما المس الى تنوع الخواطر الشعورية ذات الابعاد اللامحدودة واحتشاد العواطف المترعة بالجو التأثيري المشحون بالانفعالات والتفاعلات الشعورية .

ويجلي الشاعر في اقصوصته الشعرية المرحة (فتنة النار) ويوفق في تجربته شكلا ومضمونا الى حد بعيد ، ساعده الجرس الموسيقي للبحر والقافية الرائية المكسورة الجميلة وحسن الانتقاء اللفظي البعيد عن التشويه بالقالب المتيبس ..

وفي قصيدة (سؤال) الراقصة يبرع الشاعر في اختيار كلماته الرقيقة المعبرة عن الصورة الجمالية بما فيها من دلالة الايقاع الفاتن والنغم العذب.

ومن قصيدته (فرفة الصيف) يعجبني هذا البيت الذي يصف به احدى حساننا في كلية الحقوق أيام التلمذة ، وهو بحق عندي اجمل بيت غزلي للشاعر في ديوانه ...

كأن الاله وقد صاغها   تملى محاسنها .. مرتين !!

وتنفرد قصيدته (غروب) بالجو النفسي الهادىء المطمئن باكآبة ، المتميز بالخشوع الراهب ، بما اضفى عليها من السينات المهموسة البالغه ثلاثه وعشرين سينا ..

وفي (اشواق اليهود) يبلغ الشاعر شعره السياسي في مجموعه . ففي هذه القصيدة تخصيصا يكمن نجاحه من طريق تلمسه المحتوى من الوجهة السياسية الذاتية بتركيز موضوعي يتناول كل طاغية هلوك يبيع وطنه العربي للاجنبي المستعمر واليهودية العالمية .

وهناك قصائد الشاعر الجديدة التي كتبها اثناء تجواله في اوروبا والتي سجل فيها تطورا ملحوظا في نضجه الشعري المتفاعل مع ترف الحضارة العتيدة .. .

في قصيدة (نقود) يعبر عن فكرة ابتزاز المال في باريس بشكل لا يخلو من السرد السطحي المتجرد من عمق الصورة الحية .. وفي (ساق على الدانوب) رغم انها من شعره العاطفي الا انه لا يغفلت من الفخر بنفسه ونسبه ، وفيها يخنق شعوره المنطلق في المقطع الثاني ، بينما يعبر بنعومة ولبقانية في مقطعي الاستهلال والختام ..

وجميل من شاعرنا ان ينعم اخته العربيه في مطار دمشق بهذين البيتين الحالمين المعبرين عن وفاء العروبة الاصيل ..

ذراع ترفرف مثل الجنـــاح   واخرى تراح على الشاطىء
اموجعـة النظرات الصحـاح   مكانك في الخاطر الظـامىء

وتذكرنا قصيدته (الوزارة السعيدية) لاول وهلة بقصيدة الاستاذ الجواهري (اي طرطرا تطرطري) التي قطعت دابر كل استحسان لما كتبه الشعر بعدها الى يومنا هذا ، ولا ننسى الضجة الكبرى التي احدثتها في الاوساط الجماهيرية والجهات الحكومية على سواء..

وفي قصيدته (عابد البدن) يبرز اثر الجو الموسيقي في نجاح التجربة اما مقطوعتاه (غيبة من باريس) و (حكاية عبر الطريق) ففيهما نفحات قبانية قوية يخيل لي كما لو انهما ليستا للشاعر ، او كأنهما دخيلتان على عواطفه ، غريبتان عن تجاربه ، على الرغم من انه لم يستطع تصوير الجو الليلي البوهيمي بشكل ناجح في المقطوعة الثانية .

وهناك بداية قومية رائعة ، يلتهب في جوها الحس العربي الاصيل من قصيدته (نحن الرماد) .. الا ان منتهاها مغلف بالتشاؤمية اللامؤمنة منحرف كثيرا عن واقع الوجهة القومية التحررية ، بعيد عن اشعاعات البعث العربي الثوري الزاحفة صوب ارض الوطن العربي الكبير ، من قناديلها الراعفة بضياء الوحدة والحرية والاشتراكية ..

والشاعر مخلص في استذكاراته العاطفية المشدودة بالارض العربية المقدسة في قصيدته التي كتبها من مدريد (في مرقص النخيل) على الرغم مما يشيعه اللهو الغامر ، وتبعثه اللذات الجسدية الطافحة بلهب النشوة الجنسية في اعصابه واعراقه من انطلاقات وخيالات وانعطافات

اما قصيدته (جمل) فهي فيما ارى احفل قصائد المجموعة غنى من حيث الفكرة ... ففي اتساع التجربة الموضوعي مجال كبير للابداع الشعوري والخلق الفني والتصوير البدبع المنطلق خلف ظلال الاخيلة والتأملات ..

* * *

وفي قصيدة (احرار وعبيد) تبرز مأساة الواقع الفاسد ، وتناقضات الصراع بين سلطان الخير وجبروت الشر .. فهنا طموح وقوة عملاقة وانتصار وخيلاء .. وهناك خور وخيانة وانانية وفقافيع وانتحار بطيء وانخذالية ، ويتراوح الشاعر فيها بتفاوت بين اسلوب خطابي عنيف يشحذ له كل الفاظه الحادة، وتأملات هادئة وخيالات صافية يذيب عليها من روحه صفاء الكلمة ورقة التعبير .

تبقى هناك .. قصيدة قومية خصبة بجمال الاسلوب وعذوبة الحرف جياشة بالحس العربي وحداء الجو المؤثر ... عنوانها (لقاء العربية)

فالشاعر في ديار الغرب يلتقي في لقيا عابرة .. ووجها لوجه ... امام اخته العربية من لبنان ... في سيارة اتوبيس ، فينبض وجدانه الدافىء بالعواطف الشاعرية ... بالحب لارض الوطن .. بالشوق لقسمات بنيه ... بالانتصار النشوان لقومه .. بما تبعثه الامجاد في الاحفاد من رؤى نيرة .. فلا يريد من السائق ان يعصر عمر الزمن بالسير العجلان ... وكأني به يود من اعماقه ساعتها ، لو ان السيارة اصيبت بعطب !! ، ليلقي نظرات الحنين الطاهر ، ويقبس من اللامح لفحات شمس الشرق ونور كبرياء العرب !

وانا لا اريد ان اقتبس بعضا من ابياتها هنا للاستشهاد بها .. وحسب القارىء نفسه ان يعشها بشعوره وحدة مترابطة الصورة بالاطار .

وللشاعر هلال اخي .. تحايا الوفاء والاعجاب

بغداد   **علي الحلي**



مع الخالدين

بقلم سمير شيخاني

***

« مع الخالدين » ، الكتاب الذي تناولته مرة في عجالة لاتحدث عنه ، عن مناخه واجوائه ومواضيعه ، عن نقاط العرق ونبضات القلب المزروعة في كل صفحة من صفحاته ، ارجع اليه اليوم لاقف مشدوها امام ضخامته ، ولاتساءل كيف بني ومن رفع قبابه واعتابه ، واية يد رصفت مداميكه وبسطت ارجاءه .

ولكن تساؤلي لا يلبث ان يأخذ في التفلص كلما اوغلت في الكتاب ووقعت عيني على التنوع العجيب .

ولا اخفي الرهبة التي اخذتني عند بابه ، والتي اكثر ما تشبه الرهبة التي تسيطر على زائر مغارة اثرية ساعة يطأ رتاجها : هلا سنرجع ؟

ويطول بنا الطواف ، ونعود باحلى ما يحكى عن الطرائف والاعاجيب..

«مع الخالدين » اثر يهزك اكثر مما يهزك زيارة هياكل تحدثك ببرودة عن الماضي . وهو حصيلة انصراف مترهب ونفس طويلة ككل عمل ادبي. حتى لتخال انك لا تستعرض حروفا ميتة واسماء تركت شذاها . لانك تنفعل غصبا عنك وتتأثر وتعيش من جديد فصلا من حياة الخالدين.

لدى تبحر في الكتاب ، يراودك ظن انك فريسة النمط الواحد والطرق الرتيب لدراسة الاشخاص. واكثر من ذلك.تنتابك وساوس في قدرة الكتاب على الصمود . ولكن سرعان ما تنحل عقد جبينك وتنبسط

التساؤل الذي لا بد ان يرتسم امام كل عمل كبير .

انه مجموعة مقابلات بين الشاعر وابطاله ، واستعراض للخصائص التي تميز وجها عن وجه ولونا عن لون ، وظلا عن ظل ، وملامح عن ملامح.

هذا ما فعله سمير شيخاني لينقذ نفسه من الترداد والاختناق في اقبية التاريخ .

وما هم اذا استهل معظم فصول الكتاب بتعريف الاسم وتاريخ الولادة ومحلها لينتقل من ثم الى سرد الوقائع واستعراض المذهب او تحديد القيمة ؟

المهم انه ركز على الجوهر ، اذ تناول كل شخص من اشخاص كتابه من ناحية القوة فيه .

ومن هنا ، ليس الكتاب مجموعة نبذات .

انها محاولات في الدراسة الادبية حينا ، وفي السيرة حينا اخر ، او مزيج من الاثنتين ، وضعها المؤلف بايجاز وشمول ودراية .

وقد تعمدت تسميتها مقابلات لمافيها من تسجيل للوقائع البارزة المثيرة في حياة الخالدين . فهي لا تترك انة او دمعة او صرخة او اي حدث بارز الا وتلتقطه بصدق وبراعة ثم تدعه يعبر ، يخفق، يمشي، ويضحك، يقهقه ، يثور او يئن .. حتى لنسمع احيانا همسهم الخافت يترقرق في اذنيك ايحاء وبعثا لما لا ينطفيء لدى الخالدين ..

ان صوتهم لا يموت ! يلاحقنا كالطيف ، يذكرنا باهمية وجودنا ،بقيمتنا وبمصيرنا .. يرسم لنا الطريق الى المستقبل ويصنع عواطفنا وافكارنا وصورنا ، يلون ايامنا بالاصداء المرحة تنبعث من داخل الوقت .

سمير شيخاني يبدع في الكلام عن الذين خلدهم غرامهم . فسواء كنت مع سميراميس او مع كليوباطره او مع زنوبيا او شجرة الدر ، تأخذك واقعية السرد وحرارته ، وشغف اللفظة بالبث والبوح.

فهو لا يهمل حركة من حركاتهم ، ولا كلمة صنعت موقفا تاريخيا او حدثا مشهودا في حياتهم ، او رائعة من روائعهم ، الا ويستغل وقعها في نفس قارئه .

غير انه يدافع كثيرا عن اشخاصه ويتبنى مواطن قوتهم حتى تكاد ان تنسى مواطن ضعفهم . فقلما تعثر في الكتاب على حكم تناول فيه المؤلف النواحي الضعيفة من نتاج اشخاصه .

وهذا ما يجعلني مرة ثانية ارى في كتابه مجموعة مقابلات واستعراضات اكثر مما هو مجال دراسة ونقد .

اما اذا حكم ، فياتي حكمه مختزلا ، ولا اقول متعسفا . وعليك ان تختار . فاما ان تقبله بلاتعليل ، او ان ترفضه بلا تعليل .

من ذلك قوله :

« لا جدال في ان برناردشو كان اعظم اديب في عصره ، هذا العصر الذي يمتد من عهد الملكة فيكتوريا حتى عهد القنبلة الذرية . كان روائيا وروائيا اعظم من شكسبير ، وناقدا موسيقيا اخبر من بتهوفن ، واشتراكيا رأى ابعد مما رأى كارل ماركس » .

ولم نعرف اذا كان المؤلف يقصد ان يقول ان برناردشو كان اعظم اديب في عصره ، في انكلترا ام في العالم . وبين القولين بون شاسع.

او تصنيفه للمتون بقوله :

« يحتل هذا الشاعر المقام الثاني في الادب الانكليزي.. فالمقام الاول يتربع فيه شكسبير غير منازع ».

ولا ادري ، للمناسبة ، الى اي حد يمكن ان يكون التصنيف حكما ادبيا مقبولا به .

او قوله عن شيللر :

« شاعر الحرية ، (وبطل الادب الالماني) - على حد تعبير الكاتب توماس مان -

وهنا الاستشهاد يعني التبني.

او قوله :

« شارل بودلير زعيم الرمزية ، او المدرسة الشعرية الحديثة » في حين ان الرمزية ليست سوى مدرسة من مدارس الشعر الحديث .

او قوله :

« كليوباتره !.. اكبر عاشقة عرفها التاريخ ... »

او قوله :

« هتلر ، جنكيز خان العصر الحديث ..»

هذه الاحكام التي لا تترك كل مجال الاختيار ، تنكشف عن جرأة نادرة في الحكم لدى المؤلف ، وابرز ما في الناقد جرأته في القول الفصل . خاصة اذا كانت دائرة الحكم تتسع لمائتين وثمانين محكوما. غير اني كنت افضل لو تحاشى الاستاذ شيخاني طريقة البت الجازم في مجال لا يتسع للتعليل الكافي . اذ لو اراد المؤلف ان يدخل في تفاصيل ، لاستغرق عمله الضخم الشاق عدة مجلدات من الحجم نفسه .

اما اكثار المؤلف منالاستشهادات في معرض الاحكامفيبقى عملا ايجابيا ما دام الكتاب ينزع الى السيرة . اما اذا نظرنا اليه كدراسة فينقلب الاستشهاد الى ظاهرة سلبية . بيد اننا قلنا في مستهل كلامنا على الكتاب انه مزيج من السيرة والدراسة والتاريخ والمقال . وهذا المزج الموفق ، المصوغ بعبارة سلسة اليفة متناسقة التقاطيع ، وان لم تكن انيقة منخلة ، وبتفكير هاديء وبسجية متناغمة وباحساس رهيف مشبع بالنغم الباطني ، هو الذي ارتفع بالكتاب الى مستوى العمل الجديد .

* * *

والكتاب ، الى ذلك ، عمل تقدمي يعادل بين المتعة والمثل ، ويقربنا من العواطف الانسانية العميقة التي بنت ولا تزال ، عالمنا - عالم البشر - بالوانه وصوره ومدهشاته ، وهو التقاء انساني في الذروة يؤلف ويجمع ويسهم في وحدة الروح الانسانية على صعيد الرسالة .

والكتاب من حيث النوع محدث في خزانتنا العربية بالاضافة الى انه تجاوب صادق مع الروح اللبنانية النازعة الى الانفتاح على الفكر العالمي .

* * *

كان يكفي ان يطلع علينا سمير شيخاني بنتاجه الاخير ، لندرك ان بيننا من لا يزال يؤثر العمل الصامت البطيء.

***

امنية ناقصة : كنت ارغب لو لم يغفل الكتاب بعض الخالدين الخالدين امثال فاليري ورمبو ....

فائـق رجى



سواد في بياض

بقلم وداد سكاكيني

اعتاد نقاد العربية الاول ان ينظروا الى الاثر الادبي من حيث المبنى بصرف النظر عن المعنى ، فقد كانوا يتلمسون مواطن الجمال في اللفظة والتشبيه البليغ ، والصورة الرائعة ، والالتفاتة البارعة .. الى غير ذلك من الامور التي باتت في عصرنا الحاضر اقل قيمة من ذي قبل ، بعد ان اصبح النقد الادبي يرتكز الى اسس جديدة ، تحفل بالمعنى المعقول ، دون ان نغض من قيمة المبنى المصقول ، كما تهتم في الوقت نفسه بمقارنة الاثر الادبي بمحيط الاديب وبيئته ، لترى ما اذا كان قد أفاد امته واستفاد منها في عرضه لخلاصة خبراته الشخصية وتجاربه الذاتية ونزعاته الفردية ، ام انه اكتفى بنقل صور باهتة لا حياة فيها ، دون ان يعرض لمشاكل مجتمعه ويقترح الحلول الحاسمة لها .

وحينما قرأت « سواد في بياض » آمنت بان للادب تأثيرا كبيرا في المجتمعات ، لا يقف عند حدود الناحية « العبارية » وحدها وانما يتمثل في المضمون الفكري الذي يؤدبه وفي الفلسفة العميقة التي يتبنى وجهة نظرها حول الكون والانسان والحياة ، وادركت عمليا ان للاديب - او الاديبة - رسالة هامة في اصلاح المجتمع ، وتحرير الامة ، ونهضة البلاد، بما يحمله - او تحمله - من غذاء روحي وتوجيه فكري ينتجان قوة فاعلة وطاقة منتجة ، لا تعدلهما اي طاقة او قوة اخرى في هذا الوجود .

و « سواد في بياض » هو مجموعة مقالات ودراسات في الادب والاجتماع والسياسة والتصوف ... وغير ذلك .. ان دلت على شيء فانما تدل على مدى ثقافة وداد سكاكيني واطلاعها في كثير من المجالات وقبل ان اذكر مميزات الاديبة المؤلفة وخصائصها اجد من واجبي ان اعرض موجزا عاما لما جاء في الكتاب من ابحاث ، وسأتبع في هذا العرض اسلوبا غير الذي اتبعته السيدة المؤلفة لانني ارى ان ايراد المواضيع بحسب نوعها خير من عرضها متفرقة مختلفة ، كي ينتهي القاريء من قراءة الدراسات الادبية ليبدأ بالمواضيع الاجتماعية وهكذا .. في حين ان المؤلفة اوردت المقالات بغض النظر عن موضوعاتها .

ولنبدأ بالمقالات الادبية :

فبعد ان اهدت المؤلفة كتابها (الى من يسدون النوافذليطفئوا نور الله ، والى من يفتحونها بادبهم ليملأوا القلوب من هذا النور) ، قدمت له تحت عنوان « سواد في بياض » فشرحت المحافز لاختيار هذا الاسم وقالت : (.. وما كانت المقالة القيمة لتأتي من الهباء ، فهي وليدة الليالي والايام في سوادها وبياضها ، ولعل البياض والسواد مما تتصف بهما المقالة فهي التي تعبر عن ظلمات الدنيا بالعدم والظلم والجهالة وتصور ضياء الحياة الانسانية بالعلم والحرية والعافية) ...

ثم عرضت لتطور مفهوم الادب عبر العصور المختلفة في مقاله « من هو الاديب ؟ » وعرفت الادب والاديب بقولها : (فالادب اذن بصورة واطاره هو النصوص الابداعية التي يعبر بها صاحبها عن ذاته وتأملاته وعن شعوره وتجاوبه مع غيره وعصره بطابعه وشخصيته وهي التي تسميه أديبا وتدل عليه بشعرها او نثرها)...

وفي مقال « حول الادب الحديث » نددت بالدعوة للاداب المحلية « الاقليمية » ودعت الى تشجيع الادب العربي الشامل فقالت : « ... وقد يدهش ادباء الغرب المعاصرون حين ينظرون الى ادبنا الحديث وهم يعلمون ما وراءه من التراث الكبير فلا يجدون حاضره في تحفز ماضيه ، وغنية ذخائره وتعدد موضوعاته ..»

وتنتقد تهجم الادباء المحدثين على الذين سبقوهم وعلموهم وتسخر منهم في مقالة « العامية والسطحية » فتقول : (.. فوصم الثائرون ادب الكبار شيوخا وشبابا بأنه رجعي زخرفي مصدره الكتب الصفراء والبروج العاجية ولغته معقدة عسيرة وهم يريدون الادب نابعا من الروح الشعبية مكتوبا بالعامية بعضه او كله متسما بالواقعية وكأن هذه الواقعية المظلومة لم تكن في ادب السالفين الذين مشوا فيه مع الزمان في حلوه ومره وتمرسوا بالحياة اصدق مراس وكانت كتبهم معاهد للفكر والفن ومراجع للجامعات وثقافة للاجيال) ..

بينما عرضت للادب العاري « الجنسي » الذي راجت سوقه مؤخرا بين الادباء والاديبات فأصبح يطبع على شكل مذكرات واعترافات.. كما فعل « أندريه جيد » و « مارسيل بروست » و « جان بول سارتر » وغيرهم .. فكتبت مقالا انتقدت فيه الوجودية .. وجعلته بعنوان « الادب المكشوف قالت فيه : (ان مذهب الوجوديين انفسهم قد هبط من عالم الكتب والعقول الى عالم الحانات الداكنة تحت الارض حيث تطلق المرأة عنان صدرها وتندفع في رقص مجنون ويندفع معه الشاب في مرح صاخب وتحرر عام) ..

في حين انها كتبت مقال « الادب في الكتب السماوية » لتستعرض أثر هذه الكتب المقدسة في الادب العالمي منذ أقدم العصور وحتى اليوم .. (فالكتب السماوية الى جانب الاديان التي جاءت بها داعية وهادية قد ازدحمت بصور الفن والادب ونفحات الحكمة والشعور ، فالرجعة اليها رجعة الوجود الالهي الذي انطلقت منه العبقريات الانسانية باشعاع من نوره الاسمى)..

وقد بلغت الاديبة المؤلفة حد الروعة في مقال « الزهر والشعر » حينما شبهت المدارس الادبية الحديثة بالورد والازاهير المختلفة فقالت : (وهناك شعر مازجه التجديد في العزة والنسق فأشبه « الكاميليا » و « والنيلوفر » وشعر جمع بين الماضي الاصيل والحاضر الانيق فاشبه « اللوتس » ! وما تزال أزهار من الشيح والقيصوم وعرار البادية تنسحب رفاتها على طائفة من شعر المعاصرين)

وفي مقال « طغيان القديم » لفتة ذكية بارعة دعت الى تشجيع الادباء الناشئين بنشر آثارهم ، بدلا من الاكتفاء بنشر آثار القدماء وحدهم فقالت : « لقد الفنا التفاخر بالقديم ولم نصنع ما نصنع الاوائل واستفاض في اناشيدنا وقصيدنا الاعتزاز بالسابقين نردده في هزة ونخوة حتى نشعر بالخدر والنشوة كأننا اطفال تدس في افواههم ملهاة الرضاع كلما هاجهم البكاء ولم يجدوا الغذاء حتى يناموا وهي في أفواههم العطشى » ...

واما القصة العربية من حيث الموضوع والابطال والبطلات فقد افردت له مقالة « في قصصنا الحديثة » التي هاجمت فيها فرانسواز ساغان والضليلات اللواتي قلدنها في ادبها الرخيص - المكشوف - بحجة الواقعية المزعومة التي لم تنبثق عن مجتمعنا وانما هي مستوردة مقلدة ... وقد قالت : « ..ومثلما اغوى حواء الشيطان الذي تقمص الثعبان فاغوت آدم وكان منهما ضلال البشر كذلك فان طغاة من الرجال يغوون أقلاما مخدوعة ومستهترة بالشهرة التي وقعت في شركها ووقف الصائد يضحك ويتلذذ بما هو أحب الى نفسه من الغزل والصبابة » ..

بينما عرضت للمسرحية العربية في مقال « المسرحية بعد شوقي » الذي ذكرت فيه فن المسرحية الشعرية والنثرية ودور شوقي فيهما وأثر

اباظه والحكيم وتيمور في تطورها .. وقالت : (ما كان فن المسرحية في ادبنا من ابتكار شوقي وابداعه فقد سبقه الى هذا الفن شعراء وادباء من مصر والشام كانوا من الرواد في اواخر القرن الماضي ومطالع العصر الحاضر ، لكن شوقي الذي يحتفل العرب في هذه الايام بتكريم ذكراه لمرور ربع قرن على وفاته قد اعطى الادب المسرحي روائع خالدة من شعره ونثره بلغ الفن في أبيات منها وصفحات حد الابداع والاعجاز وفتحت باب هذا الفن الموهوب للقادمين من المتمرسين الملهمين) ...

ثم عرضت سيرة عدد من الاعلام :

فكتب دراسة ادبية كاملة للشاعر المهجري « ايليا ابي ماضي » تمازجت روحها مع الطبيعة التي هام ابو ماضي في مباهجها واصغى الى الحانها وناغى زهرها وطيرها وكسا شعره من الوانها وضمخه بعبيرها حتى تعبد جمالها وتادب بادبها ..

وأما أحمد أمين فقد كانت معه في دراسة عميقة خلدت فيها مآثره وافكاره ونقدت مؤلفاته وابرزت تأييده ونصرته لتعليم والمرأة ونهضتها.

وكذلك « أنيس النصولي من رواد الوثبة العربية » فقد عددت مآثره ومؤلفاته واياديه البيضاء على الشعب العربي .

كما جمع الكتاب عددا من المواضيع النسوية حول « المرأة العربية » وهي :

مقال « تكريم الامومة » الذي استعرضت فيه قصة الامريكية « جان جارفس » « التي ناضلت حتى تبنى « ولسون » دعوتها للاحتفال بعيد الام تلك الدعوة التي طبقت الافاق ، وقد ذكرت في المقال عددا من الاقاصيص والاساطير حول حنان الام وعطفها ..

وحثت في مقال « العلمة والكتاب » على المطالعة والتثقف بقراءة الكتب ونقدت فيه رأي « جورج دوهاميل » فقالت : (أثبت الواقع والتجارب ان الاذاعة والسينما بما وصلتا اليه من اندفاع واغراء وحيلة ما استطاعت واحدة منهما او الاثنتان معا ازال الكتاب عن عرشه ، وهذه دور النشر في الشرق والغرب متواترة الصدور قوية الظهور تنقل الى العالم كل يوم نبوغ العقل الانساني والهام الموهوبين فتدل على خلود الكتاب)..

بينما عرضت لمفهوم القومية وتطوره خلال الازمان لدى الشعوب المختلفة في مقالها « أثر المرأة في القومية العربية » وذكرت ان قضية فلسطين هي الشرارة التي بلورت القومية العربية في العصر الحديث ، وان المرأة لم تكن في يوم من الايام بمعزل عن احداث أمتها .

وفي مقال « مستقبل المرأة العربية » تساءلت : (.. فأين من الفتاة السافرة الجامعية جدتها او امها المدثرة بالحجاب او التي عاشت في عزلة وامية ؟ ما أكثر الشبه بينهما في حياة المرأة وبين طائرة السوم التي تطوف في جو الارض وسمائها وصاروخ الغد الذي يعتزم العلماء الوصول به الى القمر ؟! فمن ماض مضطرب قاتم عاشت فيه المرأةالعربية الى حاضر ثائر تشخص فيه الابصار وتتحير الاسماع ، فيه تتجهز وتتحفز لوثبة جديدة نحو المستقبل القريب ؟)

اما الروح الفكهة والنكتة الساخرة اللاذعة والتصوير البارع للتنافس بين الجنسين فنجده في مقال « المرأة تخلد » الذي ختمته بقولها : (اذا لم تكن ـ المرأة ـ خالدة فكفاها مجدا انها تصنع الخالدين)..

واما « سر شهرزاد » فقد اجتمع فيه الادب المتع والحكمة البالغة ، اذ عرضت لشخصية شهرزاد في الادب العربي كما صورها «الف ليلة وليلة » وكما تخيلها الحكيم وباكثير وطه حسين وغيرهم .. (واعتبرت شهرزاد نموذجا للغانية الشرقية السابية التي تأسر القلوب بجمالها وعقلها وذكائها وتمنت لو ان المرأة الحديثة اوتيت طرفا من سر شهرزاد لتباعد بينها وبين الرجل لان الرباط المقدس بينهما لا يتوثق الا باسباب عديدة يتصل اكثرها بالذكاء والثقافة اكثر مما يتصل بالجسم والزينة والمال) ..

واما المقالات ذات الصبغة العامة فهي :

« أزاهير الذنوب » الذي اتصف بالجدة والطرافة فقد انطوى على نماذج شهيرة لاناس مشهورين كانوا في مطلع حياتهم أشرارا ثم لبثوا ان تابوا لرشدهم واصبحوا أنقياء اطهارا (... وهكذا فان الشوك تطل من بين الازهار وان منابتها التي تتجافى عنها الملامسة هي نفسها التي تمتد لتقطف الزهر من حولها) ..

وفي هذه الغمرة الصوفية من التأملات تنقلنا المؤلفة الى بحث صوفي اخر بمقالها « لمحات من التصوف » وهو ان دل على شيء فانما يدل على اطلاعها الواسع على تاريخ الصوفية وماهية التصوف ... فقد عرضت للصوفية منذ عهد المتقشف « ايبكتت » الذي أثر على الامبراطور « مارك اوريل » وعهد «ديوجين» صاحب المصباح .. ثم تسلسل البحث ليعرض للصوفية الاسلامية التي أنشأها الحسن البصري فذكرت ملخصا وافيا لاراء الصوفيين وعقيدتهم ثم دعت الى الاخذ بصفاء الروح والى مجابهة تصاريف الدهر بشجاعة وايمان .

وفي مقالة « قلق الجيل » تحليل رائع لمجتمعنا الحالي .. فقد صورت القلق العنيف الذي دب في طبائع وسلوك الجيل الحاضر المتبرم بكل شيء ، والمصطرع مع الحياة ، وقد وضح ان هدفها من هذه المقالة اجتماعي بحت يرمي للاصلاح.

« ومسامير الفلك » بحث علمي صيغ بقالب ادبي ممتع فقد عرض لمشكلة عجز المخلوق عن الاحاطة بعلم الخالق .

وعلى نفس النمط مقالها « الربيع والحياة » الذي شحن بشطحات فلسفية ونظرات تأملية وهواجس نفسية حول الحياة وربيعها وقالت : (.. فالفكر المتوقد والموهبة المبدعة هما في ربيع دائم ولو كان صاحبهما في شيخوخة السن) ..

وفي مقال « ايام النهاية » تذكر وطنها وما قاساه من عسف الاستعمار وهو ان الاستبداد وتوجه اللوم للادباء الذين قصروا في حق امتهم ووطنهم وتقول : (ليس للمثل العليا في النضال وللقيم الانسانية الخالدة ختام ولا انتهاء ، فهي كرواية الزمان ليس لها ستار أخير)..

ولئن كان مقال « سحر المدينتين » هو الذي افتتحت به المؤلفة كتابها فانني افضل ان اختم به عرضي لمحتويات الكتاب ليضفي عليه من سحر « المدينتين » و سحر « الوصف » وروعته بهاء ونضارة ... فهو مقال ادبي رائع تصف فيه معالم دمشق والقاهرة بشوارعهما واحيائهما وتاريخهما ومواطن الجمال في كل منهما وما توحيانه للزائر من ذكريات وما تثيرانه من اشجان ... وكأني بالاديبة وقد ارادت الا تغض من من قيمة الشرق عامة في سحره ومفاتنه وتاريخه فقالت : (ولعل السحر نفسه الذي لم يعرف سره حتى اليوم ولا مقاييسه وشكله لم يكن مقصورا على دمشق والقاهرة من بلاد العرب ، فلقد سحرت بغداد وخلدت ايام فنها في « الف ليلة وليلة » ومنذ ازدحمت على هواها القلوب ، ولو اني عرفت سحر بغداد لشاقني ان اصور تأثيره في نفسي كما احسست بسحر المدينتين دمشق والقاهرة) ..

تلك هي لمحة خاطفة عن « سواد في بياض » الكتاب الذي لم تطغ فيه الناحية العقلية على الناحية الفنية في صوره واخيلته ، بل كانت

الشاعرية بجانب الفلسفة ، والفن بجانب الفكر ، والعاطفة ممزوجة بالعقل والاسلوب يتسم عامة بالطلاوة والوضوح لان الكتاب في افكاره ومواضيعه منتزع من صميم واقعنا ، فالمؤلفة ليست كغيرها من الادباء ـ والاديبات ـ الذين يتصيدون افكارهم ويستوحون موضوعاتهم من وراء السحاب ، بل انها تنزل الى المجتمع ، لتعرض نماذج واقعية في قالب اجتماعي جذاب حتى ان كثيرا من التشابيه والامثلة التي ضربتها جاءت واقعية ساذجة كما في مقال « طفيان القديم » الذي قالت فيه : (كأننا اطفال تدس في افواههم ملهاة الرضاع كلما هاجهم البكاء ولم يجدوا الغذاء حتى يناموا وهي في أفواههم العطشى) . .

واللفظ عندها حلو الوقع على الاذان فهي ليست من هواة المعاظلة والاغراب في الكلام بل انها تؤثر الفصيح المتداول على القديم الغريب ، لتكون مقالاتها في متناول القراء على اختلاف مستويات ثقافاتهم ، وميلها الى التبسيط يتعدى الكلام الى المواضيع ذاتها فهي تتجنب التعقيد وتتجافى عن الاطالة لتلائم بين المقال ونفسية القاريء.. بيد انها لا تترك المقال قبل ان توفيه حظه من البحث والتحليل في غير ما عناء ولا مشقة . . .

ودراساتها كانت تعكس افكارها المجردة السامية فتنم على ثقافة واسعة متنوعة وذاكرة حافظة قوية وعقلية عميقة واعية ، وهذه الافكار لا يمكن لناقد ما ان يطعن فيها او يجرحها بشكل من الاشكال فهي ليست بالرجعية المتزمتة التي تنكر على المرأة وجودها وحقها في الحياة كشريكة للرجل ، تقف الى جانبه وقفة الند للند في كثير من الامور ، ولا هي بالمتهورة الطائشة التي تنادي باطلاق الحرية امام المرأة من اوسع الابواب حتى تصل الى درجة الفوضوية ، فتعمل في جسم المجتمع هدما وتخريبا ، لانه لم يألف ذلك النوع من الحريات بعد !

وللافكار الحديثة تاثير كبير في ادب وداد فدعت الى الاخذ بالجيد منها ونبذ الفاسد في غير تهور أو تسرع كما في مقال « الادب المكشوف » ومقال « اثر المرأة في القومية العربية » الذي دل على اطلاعها الواسع حول القومية وتطور مفهومها . . .

وقد بدا واضحا ان الادبية حينما كانت تكب على درر الاداب العالمية انما كانت تسودها مسحة دينية لم تلبث ان استحالت في قلبها وعقلها الى مسحة صوفية لمسنا اثرها في مقال « لمحات من التصوف » ومقال « ازاهير الذنوب » وغيرهما . . .

وكان تفاعلها مع مجتمعها وبيئتها ظاهرا جليا في سائر مقالاتها ، فقد صرحت بعواطفها وعواطف غيرها من بنات جنسها فتمازجت مع المجتمع الذي دخلته مفكرة مصلحة تهدف للبناء وتعمل للاصلاح . .

واذا كنت اوافق السيدة وداد على ما في كتابها جملة فليس لي ان افعل ذلك حينما ناتي للتفصيل، فقد كتبت مقالا بعنوان « الادب في الكتب السماوية » قالت فيه ان لهذه الكتب تاثيرا كبيرا في الادب العالمي وحينما اخذت تضرب الامثلة لتدعم رأيها اوردت في طليعة المقالات قولها : (ان ابتهالات البراهمة هي التي اوحت لفيداس باناشيده المليئة بصور الفن والجلال وكانت سبيلا الى ابتكار الملحمة الهندية المسماة « مها بهارتا » وان معابد باخوس في اليونان هي التي كانت نبعا فياضا لادب الاغريق الذي تألقت فنونه في الالياذة والاوديسة) . . . فلتعذرني السيدة المؤلفة اذا اتهمتها بالخروج على الموضوع في هذه الناحية بالذات لاننا لو استقرأنا العنوان من جديد لوجدنا ان البحث منحصر في « الكتب السماوية » فقط وليس سائر الاديان ! فما هي علاقة البراهمة ومعابد باخوس في « الكتب السماوية » ؟!

ومهما يكن من امر فان وداد سكاكيني تعتبر من اوائل الاديبات العربيات اللواتي يفاخر بهن الوطن العربي من محيطه الى خليجه ، ولعل الشيء الذي يسجل لوداد هو انها اديبة من صنع نفسها ، فشخصيتها الادبية من نسيج خاص يعز علينا ان نجد له شبيها بين ادبائنا واديباتنا في العصر الحديث .

وكتاب « سواد في بياض » يأتي في مقدمة الانتاج الادبي الذي ابدعته وداد وهو بحق مفخرة للادب النسوي العربي..

دمشق — **موفق بني المرجه**

النظرية التعبيرية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

لانها أكثر استبطانا لنفسها ... ولما كان يرى ان خير المدارس الفنية هي المدرسة التعبيرية المدافع عنها ، فهو يمجد على هذا الاساس تلك الاجناس الشمالية البيضاء!

واذا كان كروتشه قد رفض الدين واصيب بأزمةروحية، فهو قد احل محل هذ الرفض نظرة اشد عداء للبشرية في كلامه عن الفن ... و كانت نظريته هو وأتباعه اعلى مراحل المثالية المأزومة المنهارة في القرن العشرين في مجال الجمال (*)

مجاهد عبد المنعم مجاهد

مراجع المقال

١ ـ بوزما : النظرية التعبيرية في الفن (ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد) مجلة الاداب يناير ١٩٥٦

٢ ـ كاريت : في فلسفة الجمال (ترجمة : عبد الحميد يونس واخرين)

٣ ـ كروتشه : الجمل في فلسفة الفن (ترجمة : سامي الدروبي) دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٧

4 - Beryle Lake : «A Study of the Irrefutability of Imo Aesthetic theories.» (Elton : Aesthetics & Language) Basil Blaclewell - Oxford 1954.

5 - Boumand : «The Expression theory of Art.» (Elton : Aesthetics & Language), Basil Blackwell-Oxford 1954.

6 - Carritt : Introduction to Aesthetics. Hutchinson's Un. Library - London.

7 - Osborne : Aesthetics & Criticism. Rantledge & Ilegdon London - 1955.

8 - Read : The Meaning of Art, Pelican Books - London 1954.

(*) .. هذا ملخص قصير للفصل الخامس من كتابنا « دراسات في علم الجمال » الذي يصدر في اول نوفمبر ويضم فصولا ستة هي : (١) موضوع علم الجمال ووظيفته (٢) النزعة الشكلية في علم الجمال (٣) من اجل مفهوم علمي للجمال (٤) ما هو الفن ؟ (٥) النظرية التعبيرية وحضارة الانسان (٦) التحليل النفسي والفن .

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

رواية الموسم : « هل تحبين برامس ؟ »

صدرت هذا الشهر في باريس الرواية الرابعة للكاتبة الفرنسية الشابة فرانسواز ساغان بعنوان : « هل تحبين برامس » ؟(1) Aimez-vous Brahms وكانت الاوساط الادبية تترقب ظهور هذه الرواية لتحكم على تطور الكاتبة عبر رواياتها الاربع ، لاسيما وان هذه الرواية الاخيرة قد نحت نحوا جديدا في اختيار الموضوع والتحليل والتأليف . اما موضوعها فقصة حب ابطالها ثلاثة : امرأة في التاسعة والثلاثين ورجل في الاربعين ، وشاب في الخامسة والعشرين . ان بول تحب روجيه وتقضي ايامها معه منذ سنوات . ولكن روجيه يتركها بين الفينة والفينة ليرتبط بغراميات اخرى ، مع نساء اخريات . وتستشعر بول الوحدة والتمزق بين مكان عملها وبيتها ، حتى تلتقي بشاب نضر في الخامسة والعشرين يدعى سيمون ، يسألها يوما في رسالة قصيرة يدعوها فيها الى حضور حفلة موسيقية : « هل تحبين برامس ؟ » فتنعقد بينهما اواصر صداقة ما تلبث ان تتحول في نفس الشاب الى حب عنيف يستجيب له بول بدافع من ثار لوحدتها القاتلة ، وعطف على حماسة سيمون واندفاعه . وتجهد المرأة في الاعتقاد لحظة بان شباب سيمون سيعزيها عن قسوة روجيه اللاواعية . ولكن ما ان تمر الازمة حتى تعود الى روجيه وتستأنف حياتها معه ، على يقينها بانه سيظل يخدعها ويخونها . ولكنها تؤمن ايمانا لاواعيا بانه قدرها ، وانها ستظل مشدودة اليه بياس عميق ، مهما حاولت ان تتخلص منه ، وتبتعد عنه . انها بالاجمال قصة الحب الذي يقوده قدر أعمى فيصبح هونفسه اعمى.

وهذه الرواية الجديدة تبدى كامتحان اخر لفرانسواز ساغان امام وجه العالم ، امتحان تقدمه امام بضعة ملايين من القراء منتشرين في كل قارة ، يتلقون كتابها مترجما الى لغاتهم فور صدوره بلغته الاصلية في باريس .

وقد عرف كثير من الروائيين والروائيات مثل النجاح والرواج اللذين عرفتهما فرنسواز ساغان . ولكن معظم تلك الآثار لم تكن تنتمي الى الادب بمفهومه الصحيح ولا تتعدى التسلية العابرة . اما ساغان فقد اصابت نجاحين : لقد بلغت الجمهور الكبير ، من غير ان تفقد احترام النقد . وهي تحتفظ في مختلف البلاد بمناصرين متحمسين اما بين الكتاب والروائيين الذين ينتمون الى جيلها او الى الجيل السابق .

ويبدو ان الكاتبة قد حققت في روايتها الجديدة تقدما ملموسا بالنسبة لرواياتها السابقة . فهي قد تخلت هنا عن الامثلة والعبر التي كانت تنثرها في كل صفحة ، كما انها ركزت اسلوبها تركيزا شديدا : وهي تصور الاحداث تصويرا موحيا ، وتشعر بانها كاتبة تبحث عن النضج.

صحيح ان جميع ابطالها في رواياتها السابقة يتميزون بتلك اللامبالاة وهذا القلق اللذين يرهقانهم فيسعون الى التخلص منها ، ولكن عبثا ، ولكنها بذلك تبدو لسان حال الشبيبة الفرنسية كلها ، بل ربما الشبيبة في العالم برمته . انها ترى الشباب كما هم ، وتصورهم تصويرا واقعيا دقيقا . اما « الكبار » الذين يناهزون الاربعين فتصورهم تصويرا مثاليا : فهم دائما هادئون ، قساة ، واثقون من انفسهم ، يستمدون تصرفاتهم من حكمة لا تضمنها الا التجربة والمعاناة . ولا شك في ان هذا البحث عن النضج هو الذي يستوقف القراء لدى فرانسواز ساغان. ولا ريب في ان الشعوب هي ايضا ، في هذا العالم القلق ، تبحث عن النضج ، ولعل ساغان ترمز الى ذلك حين تلتمس التوازن في عالم غير متوازن . وقد قادها ذلك في روايتها الاخيرة الى اتجاه اخر : « كانت تود ان يكون لها بيت في الريف ، وايام تتشابه ، وبكلمة واحدة : الطفولة »

ومهما يكن من امر ، فقد اجمع النقاد الفرنسيون الذين سارعوا الى الكتابة عن « هل تحبين برامس » فور صدوره على انه خير روايات ساغان ، بما فيها من وحدة وتركيز وموسيقى خاصة بهذه الروائية المبدعة ذات اللحن الخائب المتوتر ، القلق . وبالرغم من ان الرواية هزيلة في عدد صفحاتها المئة والثمانين ، فانها ذات كثافة ووزن وقيمة .والتطور فيها يكمن في التحليل العمقي : فالقاريء لا يقرأ اوصاف « القلق » و « الضجر » و « الغضون » في الوجه ، وانما هو يراقب ابطال الرواية يعيشون القلق والضجر والغضون في الوجه وفي النفس . ويشعر بالكاتبة تراقبهم يعيشون ، وتسمعهم يثرثرون ، وتراهم يشيخون ويحبون ويشربون ويخافون ويضجروننا احيانا ــ كل ذلك في تجرد هاديء يكاد يكون قاسيا . وهذا ما يدل على انها تخلت عن نزعتها السابقة ككاتبة تعبر من غير تمييز عن كل فكرة ببالها ، وكل احساس يمر بقلبها ، تخلت عن نزعة التعبير عن مجرد الغناء النفسي ، لتقود ابطالها قيادة رصينة دقيقة مجردة تبدو فيها روائية قد تمكنت من فنها كل التمكن ، واضعة حدا حاسما لكل شك تطرق الى نفوس بعض القراء والنقاد حين اخذوا يتساءلون منذ كتابها الاول « مرحبا ايها الحزن » عن رواياتها القادمة ومستقبلها كروائية .

انها تكتب الحياة بكل بساطة ، وكل عمق . وقد اجابت اخيرا على سؤال طرحه عليها احد الصحفيين عما تود ان تكتبه في المستقبل ، فقالت : « اود ان اكتب روايات تقل فيها الاحداث الدرامائية ، وتكثر فيها الحياة اليومية . ذلك ان الدرامة تكمن هنا ، والاحداث الخارجية هي دائما اشياء عارضة . الدرامة هي في ان ينهض الانسان وينام ويضطرب بين النهوض والنوم ، وينساق للحياة . ان الدرامة هي الحياة اليومية .. وقد يعيها الانسان احيانا ، ولكنه لا يعيها غالبا ... مساء وهو في سريره ، اذ يكون وحيدا ، ويكون حزينا ... »

تبقى هناك قضية اخيرة لا بد ان يطرحها قاريء فرانسواز ساغان : اتراها تعتقد بان على الروائي وباستطاعته ان يحاول ، بآثاره ، المساهمة في تغيير المجتمع ؟ وقد اجابت هي نفسها على هذا السؤال بقولها:

(1) صدرت الترجمة العربية الكاملة لهذه الرواية عن دار الآداب في بيروت هذا الشهر

« اعتقد اني لا استطيع ان اؤثر اي تأثير ، لاني اولا امرأة ، ولانـي ثانيا لا املك ثقافة سياسية . ان سارتر مثلا يملك رصيدا من العمـل والذكاء يمكنه من ان يكتب روايات ويشارك في الاحداث ، اما انا ، فلا. ان هناك اشياء اكرهها ، وصحفا واشخاصا لا استطيع ان اقرأها او اراها ، ولكن هذا موقف سلبي. وكثيرون يعتقدون ان ذلك غير كاف . ولا ادري الحق مع اي فريق ... وهذا لا يزعجني من الناحية المعنوية والاخلاقية ، اذ انه يزعجني عجزي عـن الطيران . اني اود لو اطـير. ولكـن ذلك يزعجني اجتماعيا ، لانه يستحيل علي الا اتأثر ببعض الفظائع غير اني استطيع الاعتقاد دائما باني اذا واجهت موقفا اكثر حسما او يبدو لي اكثر حسما ، كان يكون اكثر مأساوية ، فلن اتردد.»

فهل يمكن للقارىء ان يأمل ، بعد اعجابه بفن فرانسواز ساغان ، ان يراها تتجه شيئا فشيئا الى ان تصبح ، في هذا العالم القلق الذي تعيش فيه ، ويعيش فيه هو القارىء ، كاتبة اجتماعية تستجيب لهموم الحياة في مختلف ابعادها ؟

س. ا.

الولايات المتحدة

حديث هام لهمنغواي ...

كان ارنست همنغواي في حلبة مصارعة الثيران بمدينة « بايون » في فرنسا ، حين التقى بالكاتب الفرنسي جان دانيال ، فجرت بينهما محادثة ادبية ذات قيمة . وكان همنغواي يرافق مصارع الثيران الشهير«اوردنيز» ويجد لذة كبيرة في مشاهدته وهو يصرع الثيران . وحين سأله دانيال لماذا يرافق اوردنيز اجابه بقوله :

« انني مسرور بان تطرح علي هذا السؤال . فقد كنت اخشى ان تحدثني عن الادب. فانا لا اؤلف الكتب لاستطيع ان اتحدث عنها فيما بعد ! اني لا احسن الحديث عن الادب ، ثم ان هذا لا يهمني ، ولا احب رفقة الادباء . بعكس مرافقة الرسامين ، فهؤلاء يملكون فنا طبيعيا. اما الكتاب فهم غير طبيعيين . انهم كائنات غير مستقرة ، محكوم عليهـا بعدم الامانة . ومن الصعب ان يجد المرء « رجالا » بين الكتاب . وانـا لا استطيع ان ارتبط الا برجال حقيقيين . وفي فرنسا هناك « رجال » حقيقيون امثال بريفير وسارتر . ولا ارى سارتر يعتبر نفسه جادا في علاقاته البشرية . وهذا شيء لطيف اذ يقوي العلاقات . ومن اجـل هذا ايضا احب انطونيو اوردنيز. لانه رجل ، ولانه كفؤ ذلك الذي يكون رجلا اذ يكون مصارع ثيران . وكذلك شان من يكون كاتبا .

« ان اوردونيز يقضي كل وقته في عمل ما يعمله الناس احيانا ، وما لا يعمله العظماء الا عرضا . وانا لم اشهد في حياتي شيئا يشبه مـا يعمله هذا الغجري الصغير . ثم انه صديق ، وقد عرفت اباه نينو دولا بالما معرفة عميقة ، وكذلك عرفت اسرته كلها . وحين اصبت بذلك الحادث الخطير بينما كنت اصطاد في افريقيا الجنوبية ، كانت البرقية الاولى موقعة باسم شخص لم اكن اعرفه ، الابن الثالث لنينو دولا بالما : انطونيو اوردونيز. وحين عدت الى اسبانيا ، للمرة الاولى منـذ الحرب الاهلية ، استقبلني انطونيو الذي قال لي اول ما قـال : « تعـال اريد ان اعرف اذا كنت اصارع الثيران كما يصارعها ابي . » فذهبت لاتفرج عليه ، وقلت له : « بل تصارعها خيرا من ابيك . » ولم يكف عن اتقان فنه لحظة ، مع ما احترمه اشد الاحترام في الناس : تواضـع الفنان . انه فنان وسيد ، فنان في السيادة . فهو فنان حقيقي لانـه يحسن مهنته .

« ثم ان هناك شيئا اخر هاما . ان بيننا ، اوردونيز وانا ، شيئا مشتركا : انا نبحث في الحياة عن انطباعات حياة وموت . هل تفهم جيدا؟ حياة وموت . اننا لسنا حزينين . اننا حيان ، سعيدان ، كثيفان . ويعرف اوردونيز ان يكون سعيدا . وانا احذر الناس الذين لا يعرفون ان يكونوا سعداء . وهم على اي حال لا يهمونني . اما اودونيز وانـا ، فاننا نحتقر الموت . اتدري ما يقول الاسبان حين يتحدثون عن الموت؟ انهم يقولون « تلك البغي الاخرى ! » اجل ، تلك البغي الاخرى. على ان الامر اشد تعقيدا من ذلك، وها انت تحملني على الحديث عما اكتبه في هذه الايام .. وخير لي ان اكتبه كليا . لقد اخذت اقصد حلبات المصارعة لان جميع الحروب قد انتهت عام ١٩٣٠ ، وكان ما يهمني انا : الحياة والموت . الحياة بالقرب من الموت . والموت نفسه الذي ننظر اليه من غير ان نغمض عيوننا .

« اني اكن لانطونيو نوعا من الصداقة الابوية . ان لي ثلاثة اولاد ، اولهم كابتن في فرقة المظلات، والثاني يصطاد الفهود في افريقيا الجنوبية وقد اراد الثالث ان يكون طالبا في الطب . اما الاول ، فقد نجحت في ان انسى اني ابوه ، اذ كنا صديقين حقيقيين . وهذه هي العلاقات نفسها التي تربطني بانطونيو . ولما كنت لا اكف عن اعجابي به وايماني به ، ولما كان يثق بي مثل ثقتي به ، فقد انتهى بنا الامر الى تاليف شركة. انه يعرف الثيران وانا اعرف الباقي، فنحن نعمل معا ونتقاسم. هـل تكتب عن الثيران في مجلتك ؟ »

فاجابه جان دانيال، وهو محرر كبيـر فـي جريـدة « الاكسبريس » الفرنسية :

ـ كلا ، مع الاسف . ولكني اهتم باشياء اخرى في هذه الفتـرة . حرب الجزائر مثلا .

النشاط الثقافي في الغرب

ـ بعد ان يعرف الانسان الحرب والصحافة ، يأتي دور الثيران . وهذا افضل من الحديث عن الادب .

ـ هل مارست مهنة النقد الادبي في شبابك ؟

ـ كلا ، لم اكن يوما مدعيا .

ـ الا تقرأ ما يكتب عنك ؟

ـ ان ذلك لا يهمني على الاطلاق . ان النقاد لم يساعدوني قط ، باستثناء اثنين ، على ان افهم نفسي او ان يفهمني الناس . والحق ان جميع الناس يفهمونني . ولا حاجة بي الى من يترجمني لهم . اما الان ، فسنتوقف عن الحديث ، وسنشرب معنا قدحا ثم تذهب ، لان امامي اعمالا رصينة كثيرة ينبغي ان اقوم بها : يجب ان اتسلى ، وان آكل وان اشرب ايضا .. »

الاتحاد السوفياتي

تطور في الفلسفة والنقد ..

في العاصمة السوفياتية التي اصبحت هذا الصيف مسرحا للمظاهرات السياسية والثقافية والرياضية (المعرض الاميركي ، مهرجان موسكو السينمائي الاول ، الالعاب الاولمبية لشعوب الاتحاد السوفياتي) لم يستلفت الانظار ذلك النبأ الصغير المتعلق بتغيير الادارة في اهم مجلة فلسفية بالاتحاد السوفياتي ، بالرغم من انه نبأ على غاية من الاهمية .

لقد نجح السيد فيدوسييف ، مدير المعهد الفلسفي والعضو الاكاديمي المعروف ، في ان يحتفظ خلال سنوات الاضطراب والانقلاب على سياسة ستالين ، بمركز الدكتاتور الحقيقي للفلسفة السوفياتية . صحيح انه كان ديكتاتورا حذرا ، حكيما ، باعتبار ان بعض المضايقات كانت قد علمته في العهد الستاليني بانه ينبغي الا يجيب قط بنعم او بلا على بعض الاسئلة المباشرة . ولكن ذلك لم يمنع من ان يظهر فيدوسييف ومعاونوه حماة الارثوذكسية الستالينية في ميدان الفلسفة .

وقد كانوا يوجهون صواعقهم على دعاة « اعادة النظر » عبر مجلة « مسائل الفلسفة » (فوبروسي فيلوسوفي) وقد كان هنري لوفيفر في فرنسا والبروفسور كولاكوفسكي في بولونيا مرمى سهامهم المفضل لمدة طويلة . وفي الاشهر الاخيرة الماضية اتى دور الفلاسفة السوفيات الشبان الذين اخذوا يهتمون اهتماما شديدا بعلم الاجتماع . ولكن فيدوسييف كان يصرح بان « علم الاجتماع هو علم بورجوازي اخترعه الاميركيون ، بينما يجد الماركسيون تحت تصرفهم المادية التاريخية ليدرسوا المجتمعات السابقة والحالية . »

وفجأة اعلنت تنحية فيدوسييف وثمانية من معاونيه الاقربين ، فاعتبر ذلك دليل انقلاب عميق في عدة فروع من الفكر والبحث العلمي في الاتحاد السوفياتي. وقد احاط بهذا الاعلان تحفظ وخفاء مقصودان لذاتهما ، فان السيد ميخايلوف وزير الثقافة لا يحب القرارات التي ترافقها الضجة المسرحية ، وهو لا يريد خصوصا ان يفسر ذهاب فيدوسييف على انه انتصار لانصار « اعادة النظر ».

ومهما يكن من امر ، فان تنحية فيدوسييف علامة مشجعة لتحرر العهد وبروز الشبان . وهناك حادث اخر يثبت ان القضية ليست قضية عمل عارض . فقد قرر رئيس التحرير الجديد لمجلة « ليتاراتورنايا غازيتا » واسمه سميرنوف ان ينشر مؤخرا ، بحجة دراسة عن النقد الادبي ، بعض التصريحات التي ادلى بها له السيد خروتشيف اخيرا في مقابلة معه بالكرملين:

« لقد قال لي نيكيتا سيرغييفتش انه كان مع بعض قادة الحزب الاخرين يعون تماما المصير المرعب الذي صار اليه الادباء في عهد « عبادة الاشخاص » وقد استمعت بانفعال كبير هذه الكلمات الصادرة عن القلب، وكنت اتذكر بان سنوات ما قبل الحرب وما بعدها قد كانت بالفعل سنوات مريعة بالنسبة لكتابنا .»

والنتيجة التي خلص اليها سميرنوف انه يجب على الحزب وعلى النقاد الادبيين الا يمثلوا بعد الان دور المدعين العامين والقضاة القساة ، بل ان عليهم ان « يساعدوا ويشجعوا المواهب بدلا من ان يحطموها بحجة المحافظة على المعتقد . »

الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الشمالي
الكتاب الشيوعيون

لمراسل « الاداب » في دمشق

••✱••

ان تكون اديبا .. ذلك يعني انك انسان ذو ضمير كبير ، وانك لست ابتغاء الشهرة والمنفعة الشخصية بل انت رجل يصدر عن ضميره ويبني موقفه فلا يحيد قيد أنملة حتى تنتصر القضية . وقد كان هذا الامر صعبا في كل عصور التاريخ ، لكنه الان اشد صعوبة واعسر خطرا ، اذ ان بامكان الاديب ـ اي اديب ، ان يصبح ذا شهرة عالمية بالتعاون مع الشيوعية العالمية والاتحاد السوفياتي ، فهناك جوائز لمهرجانات الشباب وجوائز ستالين ولينين .. الخ وكل ذلك يمنح لاي فنان يرضى بالتعاون مع الشيوعيين ، بغض النظر عن مقدار اصالته ومع المراعاة الكاملة لبعد وطنه عن الشيوعية ، فكلما ابتعد الوطن عن الشيوعية كلما زاد حظ الاديب من الشهرة والكسب والدعوات والجوائز.. ربع العالم مفتوح لقلم اجير وضمير خائن .

بدأ الحزب الشيوعي عملية استعباد الافكار بتأسيس رابطة الكتاب ـ السوريين ـ ثم حولت الى رابطة للكتاب العرب ـ ورغم وجود عناصر مستقلة في الرابطة فقد نجح الحزب في السيطرة على الرابطة وتوجيهها لبث افكاره كما يشاء مقابل دعمها في المؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، وكان دور الكتاب الشيوعيين كبيرا في كسب « الانصار » وتحويل انظار الشعب عن الوحدة الى « الخبز » .

مثل الكتاب الشيوعيون ـ داخل الرابطة ـ مهزلة ادت الى زيف الانتاج الادبي وبعده عن الانصال الاصيل بالروح الحقيقية لشعبنا العربي فهم دعموا نتاج بعضهم ، ونقارضوا الثناء بالحق والباطل ، واستوردوا اكثر موضوعاتهم من وحي النظرية الماركسية والواقعية الاشتراكية ، فعميت عيونهم عن المشكلات الحقيقية التي كان شعبنا يناضل للتخلص من وطأتها ، كالاقطاع والبيروقراطية ومؤامرات المستعمرين .. تركوا كل ذلك وكتبوا عن العمال في مناجم الفحم والحديد ! وكتبوا كثيرا مادحين النظام السوفياتي وعن رحلاتهم الى الديمقراطيات الشعبية .. جنة الله على الارض .

اننا لن ننسى انهم كتبوا المؤلفات عن « ديان بيان فو » ولم يذكروا فلسطين ولا اسكندرون بكلمة واحدة ... رفعا للعتب ، ورفعوا قصائد المديح والتمجيد الى الرفيق الراحل ستالين والرفيق المقيم ماوتسي تونغ واشادوا بعظمة الشعب الثائر في كل مكان.. الا في البلاد التي نريد ان تتوحد ! كتبوا عن الرفاق والثائرين وصمتوا عن رئيسنا العظيم وثورة الجزائر !

وحين قوي نفوذ الحزب تسللوا الى الصحف اليومية ثم الى المؤسسات الرسمية واستولوا على اكثر اقسام التوجيه الفكري في الاذاعة والدعاية ومجلات الجيش .. وفرضوا رقابة بالغة الشدة على كل انواع الثقافة الحرة .. بينما اغرقوا الاسواق بالكتب الشيوعية وكل ما يضعف الشعور القومي ويخدم امميتهم الخائنة .

لم يكن الحزب الشيوعي ولا افراد الرابطة يملكون العدد الكافي من الكتاب ، فلم يتوانوا عن الاستعانة بأناس عاميين: ليسوا موهوبين ولا مثقفين . وبذلك ارتكبوا خيانة فكرية تجاه الواجب الذي يقتضيه الاخلاص للحقيقة الادبية . وها هم ـ الكتاب الشيوعيون ـ يذيعون بياناتهم في اذاعة دمشق منذ شهور ، يعترفون فيها انهم مضللون بحزب خائن وفكرة دخيلة ويتباكون قاطعين العهود امام الله والناس على الرجوع الى جادة الصواب والايمان بالوحدة والاخلاص للنظام القائم رغم اعترافهم بانهم أدباء الحزب الشيوعي ، وان الحزب قد سخر الرابطة لخدمة اهدافه .

ومن العجيب ان هؤلاء « المخدوعين » كانوا الوجه الادبي للاقليم السوري طيلة سنين فغنموا مكاسب منها ان ترجمت قصصهم الى اكثر من عشر « لغات » ومنها انهم جابوا البلاد وحضروا المؤتمرات وتمتعوا باستاذية توجيه الناشئة باسم الادب مدة طويلة جدا .

ما اسرع ما تراجع هؤلاء « الادباء » عن « مبادئهم » وما اسرع ما اعلنوا « اخطاءهم » وعودتهم الى جادة « القومية العربية » ! حدث ذلك رغم ما هو معروف عن « صلابة الرفاق المناضلين » وعن حملهم فكرتهم حتى النصر او الموت ! ما أعجب هذا ؟ ولكن الا يدفعنا موقفهم الحالي ان نشك في موقفهم السابق ؟ الا يحق لنا ان نقول انهم خدعوا الحزب ولم ينخدعوا به ! لقد خدعوا الحزب واستثمروه وحققوا لاحلامهم الادبية ما لم يستطيعوا ان يحققوه بكفاءاتهم وانتاجهم . ولعلهم كانوا يشعرون في صميمهم بأنهم منحرفون عن سير امتهم منعزلون عن نضالها خائنون لضميرها . ولهذا السبب انهاروا امام اول اخفاق لحزبهم فتخلوا عنه وشتموه واعترفوا بأخطائهم وبأن الحزب الشيوعي كان يستغلهم ويستغل الرابطة ضد اهداف الشعب .

ومع كل ذلك فقد ابى المسؤولون الا ان يعربوا عن صفحهم وحسن نواياهم ، وان يؤكدوا بما لا يقبل الشك ان الحرية هي الاساس الراسخ في كيان الجمهورية العربية : لذلك سمحت وزارة الخارجية في الاقليم الشمالي لرابطة الكتاب العرب باستئناف نشاطها الادبي ضمن خط القومية العربية ووجه الاستاذ انطون حمصي والاستاذ صميم الشريف الدعوة الى اعضاء الرابطة لانتخاب مكتب جديد . وقد بدأت طبولهم تقرع وبدأ اذناب الرابطة الذين اختفوا حينا يعودون الى النيل من كرامة الادباء العرب . انهم يعودون من جديد بنفس التكنيك القديم . يسخرون الجرائد لمدح بعضهم بعضا ويتنادون بأنفس الالقاب واكرم التحيات . ومع ذلك فان السياسة العامة معهم تقوم على « غض النظر» والتسامح بانتظار اثباتهم انهم منسجمون مع البيانات التي اذاعوها واعترفوا جميعا بأن الحزب الشيوعي كان يسخر الرابطة لاهدافه . وحتى يبدأوا انتاجهم ويبرهنوا اخلاصهم للقومية العربية ..نظل منتظرين!

تفرغ الادباء

صدر قانون تفرغ الادباء في الاقليم الشمالي وسوف تشكل لجان فنية يعهد اليها بدراسة طلبات الادباء . ولا بد ان نقول انه قرار من

النشاط الثقافي في الوطن العربي

روح الثورة ، وهو جزء من برنامج وزارة الثقافة في رعاية الوضع الفكري والعمل على تحسينه . وليس لنا هنا الا ملاحظات اساسية ما دمنا في انتظار تنفيذ القانون .

اول هذه الملاحظات هي ان التفرغ حل جزئي في حياة الاديب ، فاذا كان الاديب مجهدا في عمله الاساسي غارقا في مشكلات مهنته فان فترة التفرغ سوف تكون فترة نقاهة واستجمام وسوف يمضي اكثرها في تركيز الافكار واستجماع الذهن المتعب والملكة المضيعة ، لذلك فان الحل الاكثر جذرية توفير عمل قريب من طبيعة الادب لا يجمد الذهن ولا يرهقه . ولنا على ذلك مثال قريب هو وجود بعض الشعراء والادباء في وزارة التربية والتعليم . وكل مطاليب هؤلاء ان ينتقلوا الى وظيفة لا تجبرهم ان « يثقفوا » انفسهم بتصحيح وظائف الانشاء والقواعد.. انهم يريدون أي عمل يتيح لهم اذا غادروا مكاتبهم ان يحلو الى نفوسهم بعض الشيء . ومع ان هؤلاء لا يتجاوزون اصابع اليد في الوزارة كلها، ومع ان الوزير التنفيذي سيادة الدكتور امجد طرابلسي يعرف من تجربته الشخصية ان التدريس يجمد الموهبة ان لم يقتلها ... مع كل ذلك لم ينظر الى امرهم بعين الرحمة بمواهبهم على الاقل .

واذن فالملاحظة الاولى هي ان فترة التفرغ شيء عارض في حياة الاديب اما الاصلاح الدائم فهو اصلاح اوضاع الاديب ككل ، وبذلك يستغني عن التفرغ او يستفيد اكبر الفائدة منه .

الامر الثاني هو تيسير وسائل النشر وذلك بازالة الضرائب المفروضة على الورق وامور الطبع والنشر ، كما ان المراقبة الادبية يجب ان تسلم الى اختصاصيين من ذوي الاطلاع على امور الادب . فاذا اقترن ذلك بشراء عدد من نسخ الكتاب وتوزيعها على المكتبات امكننا ان نقول ان ربحا ماديا حقيقيا سوف يدخل الى جيب المؤلف ويدفعه الى احتراف الادب وبذلك تصرف اموال التفرغ الى مشروعات اخر .

اما الملاحظة الاخيرة والمحيقة فهي ان نصرف اموال التفرغ الى « الطقم القديم » من المنتفعين بالادب امثال الدكاترة الادبيين والمحققين الادبيين والمتقاعدين الادبيين والشيوخ الادبيين والمنافقين الادبيين ونحجب عن ذوي المواهب الحقيقية والنشاط الادبي المتطور . بل انني اقترح وقف ثلاثة ارباعها للكتاب الشبان الذين يشتغلون في حقول الفنون الادبية الحديثة كالشعر والدراسة والقصة . وانني اذ اطالب بقصر التفرغ على الشبان من الادباء استند الى حقيقة اساسية في الحياة الادبية للاقليم الشمالي، وهو اننا في هذا الاقليم لا نعرف ازمة شيوخ وشبان ، فكل الذين كتبوا بين ١٩٣٥ و ١٩٤٥ قد انقطعوا تقريبا عن الكتابة . لذلك فان كتاب سورية شباب كلهم ولذلك يجب ان يقتصر التفرغ على الشبان من الادباء اكثر من غيرهم من اصحاب السوابق الادبية .

المعرض

هو فرحة دمشق وتحررها الاجتماعي وانفتاحة الاقليم الشمالي على العالم ، وقد افتتح من ٢١ اب الى ٢٠ ايلول ولوحظ فيه قلة دول المعسكر الشرقي الى جانب اشتراك بريطانيا وامريكا . لكنه مع ذلك معرض هزيل ودون مستوى المعارض السابقة . اما مسرح المعرض الذي استدعى في يوم من الايام فرق الباليه والموسيقى فقد اقتصر على الانتاج الفني المحلي للفرق التمثيلية في اقليمي الجمهورية العربية . ولا ندري لاي سبب حرمتنا ادارة المسرح من سماع موسيقى لا نعرفها ومشاهدة رقص لم نألفه .. لماذا نقنع بما عندنا ؟ ان الدبكة والرقصات الشعبية شيء جميل لا شك ، كما ان تمثيليات الفرق المصرية لا تخلو من الجودة ولكن الم يكن من الملائم ان نجعل من مسرح المعرض في هذا الشهر اداة لتثقيف المثقفين واطلاعهم على تطور الفنون العالمية ؟

ولماذا نترك المعرض بالذات سوقا تجارية حرة لا نتحكم في توجيهها فنجعل عاما للصناعات الثقيلة وعاما للصناعات اليدوية وعاما لغير ذلك من فنون العصر الحديث وبذلك يصبح للمعرض شيء من الوحدة العامة بدلا من ان يكون طليقا حسب اهواء الشركات والدول ؟

هذه اقتراحات بسيطة نرجو من المسؤولين ان ينظروا اليها في المعارض القادمة .

محيي الدين صبحي

